

السخرية في الأدب العربي

تأليف

دكتور نعمان محمد ربيع طه

أستاذ الأدب العربي
كلية البنات - جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٢٩٩ • ١٩٧٩ م

السخرية في الأدب العربي

حتى نهاية القرن الرابع الهجري

تأليف

الدكتور نعمان محمد ربيع طه

أستاذ الأدب العربي المساعد
كلية البنات - جامعة الأزهر

شبكة كتب الشيعة

حقوق الطبع محفوظة المؤلف



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

الطبعة الأولى
١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

دار التوفيقية
للطباعة بالازهر

تقديم

بسم الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وبعد :

فقد راودت نفسي فكرة معالجة هذا الموضوع منذ أمد ، منذ أن قرأت الأدب العربي دارساً ومدرساً . وألمت بتلك النظريات التي دارت حول مناهج البحث فيه : تلك التي تعددت بين مدرسية ، وإقليمية ، ونفسية ، وغيرها (١) .

وقد ران على نفسي صراب دراسة شخصيات الأدب دراسة متنة دقيقة فاحصة شاملة من جهة ، ودراسة موضوعات الأدب أثره وشعره من جهة أخرى .

وقد أخرجت من قبل - لكي أحقق ما أصبو إليه من معالجة - دراستي عن « جرير » الشاعر الأموي المشهور .

وهاذا اليوم أقدم دراستي عن غرض من أخطر أغراض الأدب العربي شعره ونثره : ألا وهو « السخرية » ، التي ظلت موضع اهتمام الأوربيين والأمريكيين وغيرهم منذ أمد طويل ، معالجة وممارسة وتأليفاً ، حتى بلغت كتبهم في ذلك المئات ، وظلت أيضاً تعالج بحثاً في دوائر معارفهم تحت ألقاب متعددة منها Hnmour , Irony, Satire, Sarcasm, Laughter, Comedy, Caticature ,, etc ... وغيرها ، بينما لا نكاد نعثر على مؤلف عربي يضارع أو يقارب ما هو موجود لدى هؤلاء القوم .

ولعل قد استطعت - في بحثي هذا عن السخرية - أن أملاً الفجوة التي

(١) مناهج الدراسات الأدبية للدكتور شكري فيصل .

نفسر بعينها : سواء في محاولة استكناه هذا الموضوع ، أو في دراسة طائفة من الساخرين الذين يذبثون في أدبنا العربي هنا وهناك .

ولقد ضربت صفحا عن فصل طويل كنت قد عقدته للتعريف بالساخرين في الآداب الأجنبية متتبعا لإيام تتبعاً تاريخياً ، ومفصلا القول في مؤلفاتهم وفي قيمة عملهم الأدبي حتى نستطيع أن نحسن تصور هذا الموضوع في أدبنا العربي مقارنا بمثيله في الآداب الأجنبية تصورا أميناً دقيقاً ، ولكن خشيت الإطالة ، فمؤلف على أرجاء هذا الفصل ونشره في طبعة أخرى إن شاء الله .

والله أسأل عونه وهدايته وتوفيقه ، وأن يجنبني الزلل ، مرددا في خضوع وخضوع دائما دعاءه الكريم :

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واغفر لنا ، واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

د نعيان محمد أمين طه

العباسية في شعبان ١٣٩٨ هـ

يوليو ١٩٧٨ م

١ - حاجة الإنسان إلى الضحك :

لكل إنسان حى فى هذا الوجود حاجات مادية كثيرة ، يستطيع فى أكثر الأحياء الوصول إليها ، وقد تحول فى بعض الأحيان بينه وبينها الحوائل والموانع ، فلا يصل إلى بغيته : إما لأسباب مادية تجعل ما يبنى تحقيقه أمراً صعباً أو مستحيلاً ، وإما بسبب طبيعة المجتمع الذى يعيش فيه : إذ تختلط رغباته برغبات غيره ، وتصطدم مطالبه بمطالبهم ، فيتوقف وصوله إلى أهدافه على مقدار علاقته بهم ، وعلاقتهم به .

فإذا أخفق الإنسان فى الوصول إلى غاياته ، امقلت نفسه أحقاداً ، ما تلبث أن تؤثر فى جسمه وجهازه العصبى تأثيراً سيئاً ، ويزداد هذا التأثير سوءاً حتى ينتهى إلى أحد أمرين :

إما أن يصاب بـعلة فى عضو من أعضائه ، أو ينتابه فتور عام يفضى به الجسم ويهزل .

وقد يحاول المرء أن يخفف عن نفسه ما يفرضه من آلام فينجح فى التخلص منها أو من بعضها نجاحاً ما ، بالتسرية عن نفسه أو بالاختلاط بأفراد جنسه ، شاكياً به وهمه ، أو مستمعاً إلى ما يشبه آلامه ، فتخف تلك بمشيلاتها تأسياً . . . وهكذا تحدث شبه حركة داخلية فى الجسم ، يظن إليها الإنسان بطبيعته ، فيزاولها ، وكذلك قد يكون للحركة الخارجية التى تهتز بها أعضاء الجسم ، كانتقاله من مكان إلى آخر مغاير لما كان فيه ، قد يكون لهذه الحركة تأثير قوى فى تخليصه شيئاً فشيئاً وإلى حد ما ، مما يعانى من الآلام (١) .

(١) وأستطيع أن أسوق دليلاً على ذلك تلك الحركات العنيفة التى تقوم بها بعض المريضات حينما يسمعن دقات بعض الآلات الموسيقية الصاخبة أو بعض =

إذن ، فالحركة - داخلية نفسية أو خارجية عضوية - هي من أقوى الدعام التي يحاول الإنسان بها مراجعة عوامل الهدم في الطبيعة ، بالتخلص مما يعكر مزاجه من شوائب مادية أو نفسية ، وقد عبر أرسطو عن الجانب النفسى من تخلص الإنسان من آلامه بقوله : « إنه يطهر عواطفه »^(١) .

والطفل - بمحض غريزته - لا يستطيع إلا أن يقضى طفولته وصباه متحركا في كل الأمكنة التي تستطيع أن تحتل حركته ، وتتسع لها ، وعناية نموه في الحقيقة ما هي إلا حركة مستمرة . وما الحياة إلا حركة دائبة تؤدي نطاقها داخل العالم الأكبر المتحرك بأجرامه المختلفة المتعددة ، سواء منها الذى وصل إلى علم الإنسان ، أو ما لم يصل إليه بعد ، بأبحاثه العلمية .

إذن : فالجانب المادى الداخلى من جسم الإنسان يفرض الحركة الخارجية لمعالجة الرواسب المتعددة والتخلص منها ، كذلك الجانب الذهنى من الإنسان يحاول بالحركة أن يطرد الآلام التي هي أفكار ذهنية وعواطف لا يحبها ، بل يمتقتها كل المقت ، ويحاول أن يتخلص منها .

وليس هناك وسيلة للتخلص من العواطف المؤلمة المختلفة إلا بحركة ذهنية داخلية تطرد هذه الآلام خارجا ، ولا تتولد هذه الحركة إلا بالضحك .

* * *

== أنواع الموسيقى الراقصة المحركة كالرومبا والسامبا ، فيتخلص مما يكن قد أصيب به من أمراض عصبية : كاستك الفتاة العانس التي أشار عليها أحد الأطباء النفسيين بجماع تلك الموسيقى - وكانت مصابة بمرض عصبى - فشفيت منه .

(١) كتاب الشعر لأرسطو ترجمة إحسان عباس ص ٦ .

٢ - محاولة تعريف الضحك :

والضحك استعداد فطرى فى الإنسان ، لا يكتسبه بالتجربة ، وهو انفعال إنسانى خاص يتميز به عن بقية الحيوانات ، ولذلك عرف الإنسان بأنه حيوان ضاحك . وله - ككل الفرائز - أركان ثلاثة : مؤثر أو باعث يستثيره ، وحالة انفعالية مصاحبة ، ووظيفة أو غاية يسعى إلى تحقيقها . ولذلك فالمقصود بالدراسة ذلك الضحك العميق الذى ينتهى بالإنسان إلى حالة الانشراح المعروفة لا مجرد السمات الخاصة التى تظهر على الفم وأسارير الوجه .

وما الضحك إلا حركة داخلية وخارجية ، لها سماتها المعروفة بإخراج صوت خاص من جهة ، وباهتزاز الجسم هزات تختلف وقوة الضحك من جهة ، وطريقة الأشخاص وعاداتهم من جهة أخرى .

وإذا تأملنا الضاحك فى أثناء ضحكه ، واستبطنا أنفسنا فى أثناء عملية الضحك تبينا - لأول وهلة - انفراج الفم وإخراج هذا الصوت الذى يبدأ بحرف (ه . . .) والذى يخرج من الجوف فى صورة أمواج متتابعة كأنه تيار من الهواء يجتذب معه آلام الضاحك إلى الخارج . وكذلك تحريك أعضاء الجسم كالرأس إلى الوراء والرجلين واليدين . ويقال إن هذه العملية - عملية الزفير والشهيق فى أثناء الضحك - تؤثر فى الحجاب الحاجز ، فيؤثر - باهتزازه - فيما تحته من أعضاء داخلية ، فيسرع نشاطها ، وبذلك يمكن أن يكون هذا الوصف ، هو ما يحدث من تأثير للاهتزاز العضوى الداخلى فى الاهتزاز النفسى ، فينتج ما يسمى السرور أو الانشراح Euphoria أو الارتياح أو الابتهاج أو ما يمكن أن نسميه الانتعاش الجسمى النفسى .

وقد حاول العالم الإنجليزى ، سبنسر تفسير الضحك بما يشبه تفسيرنا

السابق ويعرف تفسيره بنظرية الطاقة^(١) . وبذلك كان سبندر من يفسرون الضحك بتفسير فسيولوجي ، وهناك بعض الفلاسفة يحاولون تفسيره تفسيراً نفسياً محضاً ضاربين صفحاً عن الناحية الفسيولوجية التي يحسها الإنسان في أثناء الضحك . وهكذا انقسم الفلاسفة منذ فجر الإنسانية إلى فريقين : أحدهما يفسره ذلك التفسير الفسيولوجي ، والآخر ذلك التفسير السيكلولوجي ، وأخيراً حاول بعضهم الربط بين التفسيرين فيما سمي بالسيكوفسيولوجي . ولعل الفلاسفة الوجوديين هم أقرب الناس إلى فهم هذه الظاهرة الإنسانية فحاولوا الابتعاد عن محاولة تفسيرها قائلين : . بحسن بنا أن نقلع عن محاولة تفسير الضحك أو البحث عن علل للفكاهة ، لكي نقتصر على النظر إلى الملابس أو الذرائع التي تكتنف تلك الظاهرة ولو أننا حاولنا أن نفهم الضحك باعتباره ظاهرة نفسية ذات دلالة إنسانية ، لتبين لنا أن هناك من أفانين الضحك بقدر ما هناك من مواقف بشرية^(٢) . من العبث أن نجتزئ في فهمنا للضحك بتطبيق نظرية واحدة نحاول عن طريقها أن نتأول شتى المواقف البشرية للضحك ، لأن الحياة البشرية أكبر من أن تحيط بها نظرية تقوم بتأويل ما تتطلب عليه مواقفها الكثيرة من قيم ومدلولات^(٣) .

٢ - الضحك وأنواعه :

وليس للضحك أنواع مختلفة متباينة كما يفهم من عنوان هذه الفقرة ، ولكنها أوجه مختلفة لذلك الجسم الحي المسمى بالضحك^(٤) ، وذلك لأن الحسدود التي تفضلها هي من اللطف بحيث قد تخفى على عين الإنسان

(١) هربرت سبندر : كتابه فسيولوجية الضحك .

(٢) ذكرى إبراهيم : سيكولوجية الفكاهة والضحك ص ٨٩ و ٩٠

(٣) المرجع السابق

(٤) المرجع السابق

ولا يستطيع التمييز بينها تميزاً تاماً . غير أننا يمكن أن نعد من حالات الضحك أو ما يضحك : الفكاهة والسخرية . وكثيراً ما يخطئ الناس بينهما ولا يكادون يفرقون بينهما حين يشملهم الجو المرح الضاحك وقصص من أفواههم النكات التي يمكن أن تكون مجرد الإضحاك فحسب وحينئذ فهي الفكاهة ، وقد تكون بقصد اللذع والإيلاام فهي سخرية ، وقد تجمع بين العرضين .

فن النكت الفكاهية ما يروى عن أحد المفرطين في شرب الخمر أنه قال له أحدهم : إن الخمر انتحار بطيء .

فأجاب : ولماذا تريدونني على أن أنتحر بسرعة ؟

ومن النكت الساخرة نادرة تروى عن أحد الأمراء ، فقد التقى يوماً بغريب يشبهه تمام الشبه ، فابتدعه بقوله :

— هل كانت أمك يا هذا تقيم في البلاط الملكي ؟

فأجاب الغريب ببديهة الجاضرة : كلا ياسيدي ، بل أبي (١) .

وإذا روى أحد الأشخاص النكتة السابقة لبعض الجالسين بقصد الضحك فهي فكاهة ، أما إذا حدث فعلاً في مجلس من المجالس فيعد الرجل ساخراً بالأمير ، ولذلك تسمى سخرية .

ومثلها ما يروى عن الممثل الساخر شارلي شابلن حين سئل عن المرأة الطيبة في العالم ، فقال : امرأتان طيبتان في العالم . . . إحداها ماتت ، والثانية مفقودة .

وهكذا نرى أن كل ما يضحك ، فهو هزل ، ولكنه ينقسم قسمين :

(١) وقد دوت كتب الأدب هذه النادرة بين الخطيئة والفرزدق .

أحدهما ليس له غرض أو هدف إلا الإضحاك فحسب وهو ما يطلق عليه الفكاهة ، والآخر له غرض هادف واضح - سواء أ كان معينا أو غير معين حين إلقاء النكتة - وهو السخرية .

ولذلك كان المزاح يشمل النوعين : التفكه والسخرية أى الإضحاك واللدع ، ويكون المزاح فى أول أمره لإشاعة جو مرح ضاحك بين الجالسين ولكنه كثيرا ما ينقلب فى النهاية إلى سخرية يتضرر منها بعض الأفراد وقد يعقبها الشجار ، ولهذا اشتملت كتب الأدب القديمة على النص على كراهية المزاح^(١) .

٤ - السخرية والهجاء :

عرفنا فى الفقرة السابقة أن السخرية تلتقى مع الفكاهة فى المنبع الذى تنبعان منه ، وقد تختلط إحداهما بالأخرى كما مزاج رحيقى فاكهتين مختلفتين ، وقد تفرقتان ، كذلك تبرز السخرية بالهجاء من ناحية الوظيفة ولكنهما يفرقان من ناحية المادة أو الطبيعة التى يشتمل عليها كل منهما . فالهجاء طريقة مباشرة فى الهجوم على العدو ، ولكن السخرية طريقة غير مباشرة فى الهجوم^(٢) .

٥ - ألفاظ السخرية وتعريفها :

والموضوع الذى نحاول بحته عدة ألفاظ فى اللغة العربية سنحاول

(١) أدب الدنيا والدين للماء ردى ، وحامى ابن الشعري وغيرهما .

(٢) Edgar Johnson : A Treasury of Satire, P, 13

فما يلي أن نسوق مرادها المختلفة ، والمعاني التي تحملها في طياتها بحروفها ورونيها: فهناك الاستخفاف والمداعبة والتعريض والضحك والهزء والتندر والسخرية والتهكم ، وسنحاول التعرض لمعاني أهم الالفاظ السابقة :

أما مادة « هزء » ففيها الحرفان (الهاء والزاي) وهما يوحيان بالخفة واللين^(١) ، وأصلها من قولهم : أهزأه البرد : إذا قتله ، وهزأ الرجل إبله هزأ : قتلها بالبرد ، وهزأت الراحلة : إذا حركتها^(٢) . ففي المادة تحريك وقتل بارد لين من غير عنف أو صوت ، وتكسير .

أما مادة « تهكم » ففيها التهكم : وهو السيل الذي لا يطاق ، والتهكم نهور البئر ، وتهكت البئر : تهدمت . والتهكم : الطعن المدارك ، فالمادة فيها الهجوم بقوة وبصوت مسموع ، كذلك فهي تصف صاحبها بالكبرياء : فالتهكم : المتكبر ، والهكم : المتفخم على ما لا يعنيه الذي يتعرض للناس بشره ، وقد تهكم بنا : عبث بنا وزرى علينا^(٣) .

إذن : قالتهكم : استهزاء في قوة ، وعدم خفاء ، وفي تقهيم .

أما مادة « تندر » فهي من تندر الشيء سقط وقيل سقط وشذ ، وقيل سقط من خوف شيء أو سقط من جوف شيء أو من أشياء فظهر . ولم أجد في المعاجم تندر عليه ، والظاهر أنها أخذت من أصل المادة « تندر » وفيها محاولة الإسقاط أو إظهار العيوب بطريقة ملتوية فيها تباله وتجاهل وإظهار نوادر الشخص الذي يتندر منه ، وشذوذه .

(١) أساس البلاغة للزمخشري ٢ / ٥٤٤ في المواد : مزج ، هز ، هزب ، الريح حفيفها ، اهتز النبات : إذا طال من غير صوت . هزل الهزل الحيات ، (٢) اللسان : هزأ .

(٣) اللسان : هكم ، أساس البلاغة للزمخشري ٢ / ٥٥٠ ، خزائن الأدب للحموي

أما السخرية : فن مادة (س خ ر) وأصل التسخير : التذليل ، جاء في (اللسان : سخر) سخرته : أى قهرته وذلته . وسخره تسخيروا : كافه عملا بلا أجرة ، وكل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر فذلك : « مسخر » وتسخرت دابة لفلان : أى ركبتها بغير أجر . وأصل المادة في المعجم تدور بعامة حول « اللين » من الناحية للصوتية فإذا تتبعناها عرفنا مقدار ذلك ^(١) ، سواء أكان الحرفان (س ، خ) متواليين كما ذكرنا في الهامش ، أو متفصلين ^(٢) ، ومن هذا يتبين لنا أن الحرفين (س ، خ) في كلمة (سخر) يوحيان باللين (التذليل) والخفاء ، وعدم الإبانة بطريقة مباشرة .

وتذكر هذه الألفاظ في المعاجم مترادفة بمعنى السخرية ، ولم تحاول

(١) سخا : تدور حول لين الطبع ، من « السخاوى » الأرض اللينة التراب والسخواء الأرض السهلة الواسعة .

— سخب : قلادة تتخذ من قرنفل وسك ومحاب ، أو هى خطوط ينظم فيه خرز : فنحيط هذه القلادة وما ينظم فيها كله لين توحى به العدين والخفاء .

— السخت : أول ما يخرج من بطن ذى الحنف ساعة تضعه أمه .

— السخاخ : الأرض الحجرية اللينة .

— السخذ : دم وماء فى الساياء ، وهو السلى الذى يكون فيه الولد .

— سخر : شجر إذا طال تدلت رموده وانحنى .

— السخط : ضد الرضا .

— السخف : رقة العيش ، وبالضم رقة العقل . وثوب سخيف : رقيق النسج .

— السخلة : من أولاد الممز والضأن ساعة يولد .

— والساخن : الماء الساخن : الخفيف المرتفع . . . (انظر اللسان في

المواد التى سبقت) .

(١) فى اللسان : سبخ « السباخ » يكون تحت الأرض ، سبخ ، سبخ ، سبخ :

« السبخ » : الأصل ، وهو مختلف تحت الأرض ، ، ساخ فى الأرض : اختفى .

للتفريق بين معانيها الدقيقة ، بل لم تنهم بإيراد شواهد كثيرة لكل كلمة ، وقد تركت أيضا المعنى العام الذى يشمل السخرية والاستهزاء والتهكم بدون تعريف يقربه من الأذهان ، يدل على ذلك ما جاء فى اللسان فى مادة (عنظ) قال : عنظى به : سخر منه وأسمعه القبيح وشتمه ، وفى مادة (فلح) التفليح : المكر والاستهزاء ، وقد فلهوا به : أى مكروا به ، و فله بهم تفليحا مكر وقال غير الحق .

* * *

ومما يمكن من أمر ، فقد اخترنا كلمة « سخرية » عنوانا لبحثنا ، لأنها أقرب الكلمات دلالة على الموضوع : إذ ورد معناها فى اللغة مشتملا على التذليل ، والساخر - فى الحقيقة - يحاول إخضاع خصمه له ، وفى هذا ما فيه من تشف عميق ، وإراحة لنفسه المنعبة المكدودة ، وكذلك لاشتغال الكلمة على السين والحاء : وهما الحرفان اللذان يعبران عن اللهن والطراوة والخبث والدهاء ، بعكس لفظة « تهكم » التى تدل على محاولة الهدم المفاجئ ، أو كلمة « الهزم » التى تدل على السخرية الصريحة السريعة العابرة فهى أشبه بالجملة العارضة منها بالروح الذى وطد العزم وكرس قواه لهذا الصنيع : وهو الاشتغاف من الناس - بسبب ما - بالسخرية منهم : فهى السخرية أين أشبه بلين الأفاعى ، والساخر أفعى ليس له صوت حين يسير أو حين يسخر ، ولكنه يقتل بسخريته . وهنا يلتقى المعجم العربى مع الكتاب الأوربيين فى محاولاتهم تعريف السخرية حين يقول أحدهم : « طريقة من طرق التعبير ، يستعمل فيها الشخص ألفاظا تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم حقيقة . وهى صورة من صور الفكاهة تعرض السلوك المموج أو الأخطاء ، التى إن فطن إليها وعرفها فنان موهوب تمام المعرفة ، وأحسن عرضها ، تكون حيث تدنى بده سلاحا بمهتا (١) .

وقال آخر : وهي طريقة في التهمك المرير ، والتندر أو الهجاء الذي يظهر فيه المعنى بعكس ما يظنه الإنسان ، وربما كانت أعظم صور البلاغة عنفا وإخافة وفتكا ، (١) .

وقال ثالث : « السرية سلاح شائع عند جميع الكتاب ، والمؤلفون الكبار يأخذون أنفسهم بممارستها ، وهي تظهر في شعر الملاحم وفي التراجميدا علاوة على الكوميديا ، والخطباء يستمدون منها النبرات المؤثرة وكذلك تتخذ البلاغة منها سلاحا أشد فتكا لا يمكن إغفاله أو الاستهانة به . وتكون السخرية - في بعض الأحيان - سمة دالة على قلة اليأس ، (٢) .

ويمكن تعريف السخرية بعامة بأنها : النقد الضحك أو التجريح الهازي . . وغرض الساخر هو النقد أولا والاضحاك ثانيا ، وهو تصوير الإنسان تصويرا مضحكا : إما بوضعه في صورة مضحكة بواسطة التشويه - الذي لا يصل إلى حد الإيلام - أو تكبير العيوب الجسمية أو العضوية أو الحركية أو العقلية أو ما فيه من عيوب حين سلوكه مع المجتمع ، وكل ذلك بطريقة خاصة غير مباشرة .

ولا نرى بالتعرف السابق حصر المضحك أو السخرية في تعريف لأن عملية السخرية وكيفيةها شيء حتى قبل كل شيء : وهو مما يمكن هذا الشيء خفيف الوزن ، فإننا نعامله بما تستحقه الحياة من احترام ، (٣) وقد أصاب علم المنطق الحديث والباحثون فيه بقولهم : لا يمكن تعريف شيء من الأشياء على وجه الأرض تعريفا جامعا مانعا ، لأن الشيء الحي لا يمكن الإحاطة به وتصويره ببعض ألفاظ قاصرة إذ هو حي متحرك ، والألفاظ - مهما تكن -

Americana V .15 P. 390

(١)

La Rousse V.20 P. 793

(٢)

Henry Bergeson, Le Rire P. 13

(٣)

جامدة ساكنة ، فكيف يمكن وضع الحى فى قوالب جامدة ساكنة ؟ فهو إما أن يوضع فيها فيموت وإما أن يحطمها ويخرج إلى متنفس الحياة لكي يبقى حيا خالدا في الأنفس الحية الخالدة ، ومصدقا لهذا جاء فى كتاب علم النفس: إننا لو حاولنا حصر الانفعالات التى تدخل فى تكوين انفعال ما - على ما يظهر لنا - لبقيت بقية تقصر اللغة عن تسميتها ووصفها... ففهما يبلغ الانفعال من التعقد والتركيب ، فلا بد أن يدخل فى تركيبه عنصر نفسى خاص ، ليس من المستطاع تسميته^(١) .

والسخرية يحسها المتفنن وقارئ الفن معا ، يتفقان فى الاحساس بها والاحتفاء بها دون أن يعنيتهما تعريفها ، لأنهما فى الحقيقة ربما عجزا عن تعريف ، ولذلك حاول أدلر Adler تحليل السخرية - بصفتها انفعالا مركبا - فقال إنها مركبة من غرائز ثلاث : الغضب ، والانتقام ، والخضوع ، ثم قال بعد هذا صادقا : « ولست مقتنعا إلى اليوم بأى تعريف لها فيما قرأته إلى الآن ، »^(٢) وقال عن اللعب والمجاعة - وهما عنصران من عناصر السخرية : « وهما من الانفعالات والغرائز التى يصعب تعريفها ، »^(٣) وقال كاتب مادة « فكاهة » Humour فى دائرة المعارف البريطانية : « وهى أى الفكاهة - إحدى صفات الساخر التى تسيطر عليه ، وهى اصطلاح لا يأبى أن يعرف فحسب ، بل بمعنى آخر ، تتعالى عن التعريف ، ويمكن أن يعد من علامات النقص فى روح الفكاهة أن تبحث عن تعريف للفكاهة ، »^(٤)

(١) حامد عبد القادر وآخرون : علم النفس ٣ - ١٧٦ .

(٢) أدلر : العقل الباطن ص ٨٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٨ .

Encyclopaedia Britannica; Humour

(٤)

وعلى هذا ، يكون توضيح السخرية بمحاولة وصف الفنان الساخر ،
واستبطان نفسه ، ووصف وقعها على الإنسان ، لا بمحاولة تعريفها
بمبارات منطقية محدودة .

* * *

أسباب السخرية :

والساخر هو ذلك المتعالي بنفسه عن المجتمع الذي يضحك منه أو من
أحد أفراده لأسباب ترجع إلى حقه على المجتمع ، لما يشعر به من نقص
خلقي أو حرمان وينقد - بما منحه الله من موهبة السخرية - الأفراد
أو المجتمع لإخفاء هذا النقص .

وقد ترجع إلى عداوة بينه وبين الشخص الذي ينقده لسبب من الأسباب
التي تنجم عن الاحتكاك الدائم بين الناس ، لفرض الانتقام .

وقد ترجع إلى تعالي شخص ناقص لا يحس ما فيه من نقص ، فوضعه
الأديب الساخر إلى أن يرده إلى صوابه أو إلى منطقته ، كما يقول برجسون
Bergeson ويحاول حينذاك أن يبحث عن عيوبه فيضحكها ويكبرها ، ويجعل
منها بفتة أداة للضحك ، وقد صدق أدلر Adler حينما قال : « البغض
والانتقام هما الشيطانان التوءمان اللذان يولدان السخرية » (١) .

وقد تتولد عن تعالي الشخص الساخر نفسه ، ولشعوره بالغرور ، فهو
لا يفتأ ينقد ما في المجتمع من نقائص أو مفارقات ولذلك قال العقاد :
« ... فالعبث والغرور بابان من أبواب السخر ، بل هما جماع أبوابه
كافة » (٢) .

(١) أدلر : العقل الباطن ص ١٠٧

(٢) عباس محمود العقاد : مطالعات في السكتب والحياة ، طبعة التجارية سنة

وقد تكون زابعة من حساسية الناقد نفسه ، فهو يكون ذا عين بظيرة
نفاذة : يحس نقائص المجتمع ، ثم يكون ذا روح مرح ضاحك يتناول العالم
وما فيه تناولا بأساليب السخرية المختلفة ، يقصد من وراء ذلك الإصلاح ،
وفي طيات ذلك الإضحاك ، أو يقصد معالجة هذه الحساسية - إن صح هذا
القول - لأن الحساسية مرض ، قد يتناهى حتى يتعب صاحبه فيجعله لا يرضى
عن شيء في الحياة ، ويهديه الإحساس بوجوده الطبيعي وحب البقاء ، إلى
الظئنة لهذه الوسيلة في علاج نفسه ، أو التنفيس عما يشعر به ، ولذلك قال
جوته للشاعر الألماني قوله المشهورة : « السرور يولد للقوة » . والناس في
الحقيقة ينهجون إحدى سبيلين في موقفهم من الحياة : إما أن يستبد بهم
الغضب إلى النهاية ، وإما أن يحولوا هذا الغضب إلى سخرية من الناس . وقد
حاول أدلر Adler أن يرجع السخرية أو يحللها - كما نفع حال مركب - إلى
الغرائز البسيطة التي تتركب منها ، فقال : « هي خليط من انفعالين هما الغضب
والاستمزاز : فنحن إذ نشور فينا غريزة النفور نشمئز ، فإذا عدا الشيء الذي
أثار استمزازنا على صفاء عيشنا ، من أية ناحية من النواحي ، بعثت فينا
غريزة المقاومة والانفعال المقترن بها ، وهو الغضب ، فدفعنا بنا إلى السخرية
« ما بعث استمزازنا أو بمن أثاره في نفوسنا . ولا يتخلو هذا من عنصر الزهو ،
لأننا ننزع إلى الرضا عن أنفسنا والاسترواح إلى شعورنا ، عقب مطاوعة
السخرية والانسحاق معها » (١) .

وقد ترجع الرغبة في السخرية من الغير إلى استعداد الفنان المزاجي
الذي يكون ذهنه مهيئاً دائماً إلى التعريض بالغير ، والسخرية من الناس ، مع
انتفاء دافع شخصي معين ، يدفعه إلى ذلك (٢) . ويمكن أن يصل حد هذا

(١) أدلر : العقل للباطن تعريب حافظ محمود ص ٧٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٠

الدافع أو الوازع إلى أن يكون الشخص نفسه ميالا إلى الشر بطبعه ، يميل إلى أغاظة الناس والتشفي منهم ، اضعة أصله ومحاولة الانتقام من الناس كرها وحقدا ، وهذا متأصل في الطفولة الإنسانية حينما زى بعض الصبية يقذفون الحيوانات بالحجارة أو يعتدون عليها من غير مازحة أو شفقة ، لغير سبب ظاهر . وزى بعض الناس قد تأصل فيهم الميل إلى المشاكسة وجرى في طبيعهم إلى حد مضايقة غيرهم ، والشعور باللذة حينما يرون غيرهم يتألمون (١) ، وأوضح مثال على ذلك « الحطيفة » في الأدب العربي و « برناردشو » في الأدب الإنجليزي ، فقد كان الأول مغموز النسب محروم الميراث ، لقي بين القبائل ، ونشأ الثاني في بيئة اجتماعية منحلة : فكان أبوه يدمن الخمر ولا يحفل بشيء ، وإذا أصيب بكارثة أو محنة ، رفه عن نفسه بالضحك والسخرية ، كما أن أمه تركت زوجها ، وعاشت مع معلم الموسيقى دون أن تحفل بمهام البيت ، ودون أن تلتق بالآل إلى شئون الزوجية .

* * *

٦ - مقومات السخرية :

ترتبط السخرية في أعماقها بالمجانة ، التي يمكن أن تكون صنو « اللامبالاة » ، لأن الساخر يجب أن يكون ماجنا - ولو في أعماقه - ويجب أن يكون مباليا بمن أمامه ، وإلا ما استطاع أن يجرؤ تلك الجرأة ، وأن

(١) وللتدليل على ذلك : نذكر حادثة الخادمة التي روع لها الناس ونشرتها الصحف ، وملخصها أن خادما عملت بمنازل مصر الجديدة وأخذت تعتدى على بنات مخدومياتها الصغيرات بأن تفض بكارتهن ، ولما سئلت في أثناء التحقيق معها قالت : إني أشعر بلذة في ذلك انتقاما من اعتدى على وأنا صغيرة ! .

يضحك منه بالتقليد والمحاكاة ، أو بالحركات ، أو بالألفاظ (في فن الأدب) أو بالرسم (من ناحية فن الكاريكاتور) . واقد عدو أدلو Adler المجانة - حين محاولته تحليل العواطف إلى الانفعالات البسيطة التي تتركب منها - عاطفة تتركب من : الزهو ، والمنافسة ، والغرور ، والاعتداء^(١) .

قال : « المجانة أساسها - على الأرجح - الانفعال المسمى بالزهو مقترنا بالاعتداد بالذات ، ولا نزاع في أننا نحس أننا أسى من الشخص الذي يشير فينا المجنون ، وإن كان عنصر الدهش أيضاً عاملاً من العوامل التي تبعث على الضحك والمزاح ، كما تتطوى المجانة على عنصر المنافسة ، وأدخل ما تكون الفككة الطيبة على مشاعرنا حين نتغلب على أصحابنا ، ونتفوق بها على أهل مودتنا^(٢) » .

وكما أن الساخر يجب أن يكون قوى الأعصاب ، يحمل في طياته روح - اللامبالاة ، أو المجنون ، كذلك لا بد له من أن يكون على قدر كبير من الذكاء وقوة المخيلة أو الخيال الهازل الذي يمكنه من اقتناص أو ابتداء الصرر النادرة التي يستطيع بها إغاية خصمه من جهة ، وإضحاك نفسه والناس منه ، من جهة أخرى ، ولذلك ارتبط معنى الذكاء بمعنى الفككة في لفظه Wit الانجليزية .

والحق أن الإنسان الذي حرم الذكاء لا يستطيع أن يدفع عن نفسه غائلة الأعداء المعتدين ، فيأخذ في كبت شعوره بالضيق والكراهية والالم ، حتى يخلخل - أو يكاد - أعصابه ، كما حدث لبطل رواية Wuthering Heights المشهورة في الأدب الانجليزي :

أما إذا كان على جانب من الذكاء والفظنه في تخير الإجابة عما يسد

(١) العقل الباطن : لادلو : ترجمة عباس حافظ .

(٢) المرجع السابق .

إليه من سهام النقد أو التحقير والازدراء ، وكل ما يثير الغضب والام والحنى بكلمات لاذعة فكمة ، فإنها تسرى عنه من جهة ، وتفعل فعلها فى عدوه أو خصمه من جهة أخرى، وتشيع فيها حولها جو المرح الذى يؤمن الشخص الضعيف من غائلة المعتدى ، فتخف وطأة غضبه - ولو إلى حين - بسبب السخرية .

ولعل من أسباب ارتياح الساخر إلى نجاح سخريته ، وإلى أنها سلاح أقوى من السب ، أو الضرب أو العراك ، أن هذه الوسائل البدائية السافهة الذكر وسائل الإنسان الضعيف الحيلة الذى ينتقل غضبه وشيكا من الإحساس إلى العضلات بطريقة بدائية بسيطة تشمر وتدل على انهيار الشخص النفسى لما حدث له من خصمه ، أما الساخر الجلد - الذى يملك نفسه عند الغضب كما قال الحديث الشريف - فيضحك منه لإشعاره بأنه أقل من أن يفعل به ما يسبب إيلامه . ولذلك تمدح العرب قديما بالتجلد كما قال الشاعر :

وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

ولذلك وصلت قوة أعصاب برنارد شو وكبرياؤه إلى أنه كان يتحدى الموت وأنه كان يقول : لن أموت قبل أن أبلغ المائة من عمرى ! ظنا منه أنه - بسلامة أعصابه - التى كان يربحها أولا فأولا بالتنفيس عن نفسه بسلاحه الرهيب وهو السخرية ، يستطيع أن يحتفظ بصحته وبشأطه حتى يبلغ من عمره المائة عام. وأى رجل أقوى من هذا الساخر الأيرلندى الذى رد على تلك المرأ الإنجليزية التى جاورته عرضا فى القطار ، ولم تكن تعرفه ، فسألته : أنت إنجليزى ؟ فرد عليها ساخرا : لا ، إنتى إنسان .

وجلس يوما فى مأدبة عشاء إلى جوار فتاة جميلة ، فدار بينهما حديث قالت خلاله الفتاة للفياسيرف الأيرلندى :

- لو تزوج رجل مثلك - يا مستر شو - بامرأة مثلي ، لكان لنا - بلا شك - أذكي الأبناء وأجملهم .

فما كان من برنارد شو سوى أن رد عليها بقوله :

ومن يدري يا آنستي ، فربما ورث أبناؤنا حظي من الجمال ، وحظك من الذكاء !!

٧ - السخرية في البلاغة العربية :

- إن الموضوع الذي نبحثه الآن يمس أكثر ما يمس - من العلوم العربية - علم البلاغة ، ولذلك سأحاول أن أدرس نصيبه من عناية البلاغيين القدامى والمحدثين وإلى أي حد فهموا كلمة «سخرية» ، أو مترادفاتهما ، وإلى أي حد استعملوها .

فإذا بدأنا البحث في تاريخ الكلمة نفسها - أو مرادفاتهما - وجدنا أن النصوص الجاهلية التي ذكرت فيها قليلة جداً^(١) وأقدم ما يعتمد عليه في ذلك هو القرآن الكريم : إذ ذكر جميع المترادفات تقريباً التي تعنيها في هذا الموضوع : سخر ، هزى ، ضحك . ولم يكن نصيب هذه الكلمات من كثرة الاستعمال في الأدب الأموي بأحسن منها في الأدب الجاهلي ، فنرى الكميت يقول في إحدى الهاشميات :

يعيونني من خبثهم وضلالهم على جبكم، بل يسخرون وأعجب^(٢)

(١) انظر أبيات عمرو بن شعلبة التي رواها أبو خاتم السجستاني في كتاب المعمرين من العرب ص ٣٣ ونقلاها د . ناصر الأسد في مصادر الشعر ص ٢٣١ .
(٢) تهزأت عرسى - استسكرت - شيبى ، ففيها جنف وازورار =

وأقدم كتاب أدبي ذكرت فيه هذه الكلمة هو ترجمة ابن المقفع لسكيلة
ودمنة في أوائل العصر العباسي ، إذ ذكرت هذه العبارة على لسان الملك
وكان يعنى بها معناها الأدبي : « إنك أنت خير بي يا إبلاد » (١) .

أما من الناحية النقدية التي تعنيننا ، فنعثر على الكلمة في طبقات ابن سلام
إذ يرد فيه هذا النص : « فكان من الشعراء من يتأله في جاهليته ويتعفف
في شعره ، ولا يستهتر بالفواحش ولا يتهم في الهجاء ، ومنهم من كان
يغنى على نفسه ، ويتمهر ، ومنهم امرؤ القيس والأعشى ، وكان الفرزدق
أفول أهل الإسلام في هذا الفن ، وكان جرير - مع إفراطه في الهجاء -
يعف عن ذكر النساء ، كان لا يتشيب إلا بامرأة يملكها . فتري (٢) فيه كلمة
« تهكم » التي تعتبر صفوا الكلمة سخرية أو مرادفة لها ، ولكن معناها في هذا
النص مبهم إلى حد ما : إنها لم ترد في النص ص الجاهلية بالمعنى الصريح
المفهوم من كلمة سخرية (٣) ، ولم تذكر مرة واحدة في القرآن الكريم على
الرغم من أن أخواتها من الكلمات الأخرى المرادفة لها قد ذكرت في عدة
مواضع منه ، وإذا حاولنا أن نعرف ما يورحى به النص من معناها ، وجدنا
أله معنى أخلاقي أكثر مما هو فني أدبي ، يدل عليه ما قبله وما بعده من
الفاظ ، وما تحمله تلك الالفاظ من معان : يتعفف ، لا يستهتر بالفواحش
يتمهر ، يعف . إذن فالكلمة ذكرت بصدد الهجاء البعيد عن الفحش ،
والروح المحيطة بها روح أخلاقية بحتة . . . أي أنه يمكن أن يفهم من كلمة

لا تتكثري هزما ولا تعجبي فليس بالشيب على المرء عار
عمرك ، هل تدريين أن الفتى شبابه ثوب عليه معار
وانظر هاشميات الكميث : تحقيق نعمان محمد أمين طه ص ٤٠ ، ٤١ .

(١) كيلة ودمنة : (طبعة دار المعارف سنة ١٩٤٢) .

(٢) طبقات الخول الشعراء : لابن سلام ص ١٥ .

(٣) بل وردت بمعنى عدم قول الحق أو التخابث (أنظر مادة فلع به في اللسان)

«التهكم، الإغظة بذكر الفعل الفاحش أو العورات أو السباب الخلق أو ذكر النساء ورميهن بالفاحشة صراحة كقول - سويد بن أبي كاهل في هجائه بني غبر :

من سره بغير مال فالغبريات على طحال^(١)

ويؤيد ذلك ما ورد عن امرئ القيس وخشه في معلقته واستهتاره . وكذلك ما عرف عن الفرزدق الذي قال عنه جرير : « تدليت نؤى من ثمانين قائمة » .

ويمكن أن يدخل « القول بالفاحشة والهجاء بها ، في موضوع «التهكم، ولكنه لا يعنى « طريقة التهكم وأسلوبها ، تلك الطريقة التى تميز «التهكم، كأسلوب أكثر مما يميزه كموضوع ، لأن الهجاء والتهكم تقريبا - وإلى حد كبير - يشتركان فى الموضوع ، ولا يشتركان فى الطريقة التى يتناول كل منهما هذا الموضوع بها .

هذا من ناحية تخريج النص أو تحليله ، فإذا قرأنا تعقيب أبى عمرو ابن العلاء على قول زهير :

فتغلل لكم مالا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

استطعنا أن نستبعد معنى «التهكم، الأسلوبى الذى يعنيه ابن سلام فى النص، قال أبو عمرو بن العلاء تعقيبا على بيت زهير : هذا منه تهكم^(٢) وكيفما كان الأمر ، فلا نستطيع أن نفهم من النص أكثر مما توحى به العبارة برمتها ، وكذلك نستطيع أن نقول إن الكلمة كانت ولا شك مفهومة معروفة

(١) اللسان : مادة غبر .

(٢) انظر ديوان زهير : (طبعة دار الكتب المصرية) ص ٢١ حيث ينسب ذلك إلى الأصمعى . وفى شرح القصائد السبع الطوال الجاءليات ص ٢٧١ نسبته إلى يعقوب قال : هذا تهكم أى مزه .

عند الجاهليين والإسلاميين ، ولكنها من الناحية النقدية ، كانت قليلة الاستعمال بدليل عدم إيرادها كثيرا في الأحكام النقدية أو في التعليق على الآيات في كتب الأدب أو النقد .

وبسبب ميل الجاهليين - ومعهم الإسلاميون الأوائل - إلى التعبير المادى فإن الزبرقان لما غضب من الخطيئة حينما سخر منه قائلا :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

وعرض الأمر على حسان بن ثابت ، قال : « لم يهجه بل سلاح عليه » . وفى رواية : « بل ذرق عليه » . وهذا يدل على فهم الجاهليين لقوة أثر السخرية ولو أنهم لم يهروا عنها التعبير الذى تستحقه ، بدليل أنه شبهها بالسلاح ، (١) .

وأقدم من تعرض للموضوع تعرضا ما ، هو ابن المعتز (ت سنه ٢٩٦هـ) إذ ذكر فى كتابه « البديع » أنواع البديع الخمسة التى عرفت منذ الجاهلية . فى رأيه - ثم ذكر « صنوفا ثانوية » أطلق عليها كلمة « محسنات » ، ومنها : الاعتراض والاتفات وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجادل العارف

(١) وما رأت أعجب لتظاهر عمر رضى الله عنه بأنه أم يفهم القرية - كما منه فى بيت الخطيئة مع أن السخرية كانت واضحة ولم تكن شيئا جديدا على العرب أو على الطبيعة البشرية ، ولكن عمر - ذا العقاية القضائية - لم يجد فيها دليلا ماديا يدين به الخطيئة ، ولذلك استدعى خبيرا فى فهم الشعر . وهناك عدة تعبيرات لعمر فى هذا الشأن : فيقال إن عمر قال : ما أسمع مجاء ولكنها معاقبه (ديوان الخطيئة ص ٢٠٧) وفى طبقات الشعراء لابن سلام ٩٨ . فقال عمر لحسان : ما تقول ؟ أهجاه ؟ وعمر يعلم من ذلك ما يعلم حسان ، لكنه أراد الحجة على الخطيئة . وفى موضع آخر : فقال له عمر : ما أعله هجاءك ، أما ترضى أن تكون طاعما كاسيا ؟ .

والتعريض وحسن التضمين والهزل الذي يراد به الجلد . وقد هتز عليها ابن المعتز وحده ، وله هذه اصطلاحات (١) . وإن تأكيد المدح بما يشبه الذم والتعريض والهزل الذي يراد به الجلد لتدخل ضمن صيغ السخرية ، ولكن ابن المعتز يعتبر هذه الصنوف مجرد محسنات ، ولا يحاول أن يتناولها من زاوية الهجاء الضاحك أو غير المباشر ، وإن كان يقترب بما نحن بصدد البحث عنه حين يذكر النوع الأخير من المحسنات ، وهو الهزل يراد به الجلد . ومن عجب أن النقاد في كثير من الأحيان يفتنون إلى شدة قوة السخرية وغنف أثرها إلى حد أنهم ينعتون المكاتب المولع بها بعبارة «روح السخرية تسيطر عليه أو على كتابته» ، ويقرنون لفظة السخرية بـ «روح» ، لغنف أثرها المعنوي والشعوري الذي يشيع في الساخر والسخرية معا ؛ ولكن ابن المعتز لا يحاول الكلام عنها أو إدخالها في «البديع» ، كما سماه متضمننا الاستعارة التي هي إحدى الأردية الزاهية التي ترتدي بها «السخرية» .

وقد تبعه بعد ذلك مؤلف كتاب نقد النثر (٢) فقسم الشعر العربي إلى مديح وهجاء وحكمة ولهو ، والظاهر أن القسم الأخير هو ترجمة للكلمة اليونانية Comedia التي هي أحد قسمي الشعر الاغريقي المسرحي ، والكوميديا عند اليوناني كانت تستخدم أسلوب السخرية ، ولكن ليس معنى هذا أن مؤلف نقد النثر كان يفهم الكوميديا اليونانية على حقيقتها إلى حد أنه يعني بكلمة «لهو» ، قسما من أقسام الشعر اشتغالها على السخرية ؛ بل أغلب الظن أنه يقصد بها الفكاهة أو ما كان يسمى وقتذاك «بالمزاح» .

(١) ابراهيم سلامة : كتاب الخطابة لأرسطو (الطبعة الثانية) ص ٦٣

(نشر الانجلو) .

(٢) وقد أثبت البحث العلمي الحديث أنه ليس لقدامة بن جعفر .

وما دمنا قد وصلنا إلى هذه الكلمة وإلى هذا الكتاب الذى ألف فى القرن الرابع الهجرى ، فيحسن بنا أن نذكر المؤلفات الأدبية التى ذكرت شيئاً مما يتصل بموضوعنا من قريب أو من بعيد وهو « المزاح » ، وأهمها كتاب « نثر الدرر » ، للآبى المتوفى سنة ٤٢٣ هـ ، وقد تكلم عن المزاح عند كثير من الطوائف : الخلفاء والصحابة والأشراف والمتنبيين ، والمدنيين والطفيليين وغيرهم . والكتاب بفصوله أو أجزائه السبعة يعتبر موجزاً شاملاً لكثير مما جمعت وحوث صدور مئات من الرواة فى القرون الأربعة الأولى بعد الهجرة ، وقد ذكر كثيراً من النوادر أو القصص أو الأجوبة الساخرة تحت اسم « المزاح » ، وهذا هو الاسم الشائع الذى كان يطلق على كل ما يبعث الإنسان على الضحك ؛ وهو ما يقابل فى اصطلاحنا الحديث « النكتة أو الفكاهة » ، ولا نعثر فى هذا الكتاب على محاولة من الكاتب من ناحية التبويب أو التعليق للتمييز بين نوعى الفكاهة إذ أن أحدهما يرمى إلى الإضحاك لحسب ، والثانى يرمى إلى نوع أسمى وأجل وهو السخرية أو النقد الرمزى الضاحك . وقد جمعت نوادر أبى العيناء فى هذا القرن الثالث الهجرى - وبرغم أن روح السخرية تسيطر على أغلبها ، لم يطلق عليها إلا لفظة « نوادر » . كذلك كان يعاصره الحدونى الذى تندر كثيراً بابن حرب وسعيد ، ولم تنعت أشعاره إلا بأنها أشعار ظريفة أو « مضاحك الأشعار » .

غير أننا نجد فى أحد كتب الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ - وهو فقه اللغة - فصلاً بعنوان « فى المدح يراد به الذم » ، فيجربى مجرى التهكم والهزل ، ولعل الثعالبى أول من ذكر أمثلة توضح غرضه ، ومنها آيتان من القرآن الكريم قال : العرب تفعل ذلك فتقول للرجل تستجمله : يا عاقل ، والمرأة تستقبحها يا قرا^(١) ، ولم يستطع أبو هلال العسكري على الرغم من عنايته البالغة بتعداد

(١) الثعالبى : فقه اللغة ص ٢٦٨ (طبعة المطبعة الادبية بمصر سنة ١٣١٧ هـ) .

صنوف البديع إلى حد فات جميع السابقيين له ، لم يستطع أن يذكر - بما نخوض فيه - إلا الكناية والتعريض ، وبجاهل العارف ، ومزج الشك باليقين^(١) . ونذكر للثعالبي أيضا كتابه « الكناية والتعريض » الذي ذكر طرفا من كنايات العرب وعدد منها أمثلة كثيرة تستغرق معظم صفحات الكتاب ، ثم أمثلة قليلة للتعريض ، ولم يحاول أن يعقب عليها أو أن يذكر نكتها الأدبية^(٢) .

ثم نجد ابن رشيق القيرواني (ت سنة ٤٥٦ هـ) يذكر طرفا من أنواع البديع التي تناولها من سبقه بالذكر ، ويذكر منها « تركيد المدح بما يشبه الذم » ، ويسميه باب الاستثناء ، ولم يحاول أن يذكر عكس هذا الباب ، وهو ما يدخل في موضوعنا^(٣) .

أما البلاغين ، فلعل القاضي عبد الجبار (٢٢٠ - ٤١٥ هـ) في كتابه تنزيه القرآن من المضاعن (ص ١٠٨ ومتشابه القرآن ٢١٥) هو من فطن إلى الاستعارة التهكمية دون أن يشير إلى هذا الاصطلاح وذلك حينما تعرض لتأويل الآيتين الكريمتين من سورة النساء ١٦٨ ، ١٦٩ « إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا يهديهم طريقا إلا طريق جهنم » . وكذلك في قوله تعالى : « فأتائبهم غما بغم » . (آل عمران ١٥٣) وسمى القاضي هذين الموضوعين مجازا .

ونجد بعد ذلك تلميذه الزمخشري (ت سنة ٥٢٨ هـ) صاحب الكشاف

(١) وهما الفصلان الثاني عشر والثالث والعشرون من الباب التاسع الذي شرح فيه أنواع البديع .

(٢) الثعالبي : الكناية والتعريض (طبع مطبعة السعادة سنة ١٩٠٨ م) .

(٣) ابن رشيق القيرواني : العمدة جزء ٩٩/٢

يبحث في ثنايا تفسيره شرحاً أدبياً للسخرية حينما يفتن إلى وجودها في آية من الآيات كقوله ... هذا من معاريض الكلام، ولطائف هذا النوع، لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضية من علماء المعاني، والقرل فيه : أن قصد إبراهيم لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، إنما قصد تقريره لنفسه، وإثباته لها على أسلوب تعريضي، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة، وتبكيهم^(١).

وقد يكون الإمام الفخر الرازي (٥٤٤ - ٦٠٦) هو أول من حاول أن يطلق عليها اسمها الاصطلاحي حينما سماها الاستعارة العنادية .

وفي القرن السابع الهجري نلتقي بالقزويني (٦٦٦ - ٧٣٩) مؤلف الإيضاح والتلخيص، وذكر فيه ، تأكيد الذم بما يشبه المدح، والتعريض - وقد سماه القزويني التوجيه - والهلزل الذي يراد به الجد، وتجاهل العارف . ونرى أنه لم يضيف جديداً عن تقدمه، وكذلك لم يحاول الإفاضة في تحليل هذا النوع من البديع - كما سماه - بما يدل على ذوق وتبصرة^(٢).

أما معاصره النويري (ت ٧٣٣) فقد ذكر في كتابه نهاية الأرب، بعض أنواع من السخرية منها: التعريض، وتأكيد الذم بما يشبه المدح، غير أنه زاد على من سبقه: الهزل، والتندير، والنهكم، وبذلك يكون أول من ذكر هذه الأنواع بأسمائها، ويسوق أمثلة عليها. وبما يعاب عليه عدم اهتمامه بالتعقيب ومحاولة سرد أمثلة كثيرة بصفة أول من ذكرها من البلاغيين^(٣).

(١) الزمخشري : تفسير الكشاف ٤٩/٢

(٢) الفخر الرازي : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ٩٨ وانظر البلاغة :

تطور وتاريخ، للدكتور شوقي ضيف ص ٢٨٢ .

(٣) النويري : نهاية الأرب الجزء السابع : الصفحات ٦٠ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ،

وكذلك بمن عاصر القزويني والنويري ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١) فلم يذكر في كتابه والفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان إلا الهزل الذي يراد به الجذ ، (١) .

أما ابن حجة الحموي - صاحب خزانة الأدب - فقد أطلال بعض الشيء فيما ذكره من أنواع تتصل بالسخرية كالهزل الذي يراد به الجذ ، والتهكم وتجاهل العارف ، والثورية ، والتنكيت ، والمدح في معرض الذم ، والتعريض وأسهب في الكلام عن الأنواع السابقة بما يدل على فهم أدبي سليم حين سرده الأمثلة المختلفة ومحاولة تحليلها وبخاصة حين الكلام على التهكم والهزل الذي يراد به الجذ وتجاهل العارف . (٢) وبما يدل على ذلك قوله :

« وهذا النوع - أعني به الهزل الذي يراد به الجذ - ما سبكه في قوالبه إلا من لغفت ذاته ، وكان له ملكة في هذا الفن ، وحسن تصرف » (٣) .
هذه ملامح من السخرية عند البلاغيين منذ العصور الأولى ، لم نستطع سردها بالتفصيل ، لأن الأقدمين لم يهتموا بالكتابة عنها من الناحية البلاغية ، ولذلك اكتفيت بهذا القدر بعد قراءة كتمت البلاغة العربية القديمة .

أما في العصر الحديث ، فبلغ علمي أن الأستاذ عباس محمود العقاد كان أول من قرأ المؤلفات الغربية ، وحاول الكتابة لأول مرة عن ملكة السخر عند المعري ، وقد صدرها بهذا السؤال : لم يسخر الإنسان ؟ وكان بدؤه ،

(١) ابن قيم الجوزية : كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان (طبعة الخانجي سنة ١٣٢٧ هـ) ص ١٦٢ .

(٢) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب (المطبعة الخيرية سنة ١٣٠٤ هـ) الصفحات ٥٦ ، ٩٨ ، ١٢٢ ، ٢٣٩ ، ٢٧٥ ، ٤١٩ ، ٤٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٩ .

الكتابة في الموضوع سنّا ١٩١٢م في د خلاصة اليومّة ، ثم كتب عدة مقالات نشرها في كتابه مطالعات (١) . ثم كتب الشيخ عبد العزيز البشري مقالا عن د مرد النكتة ، سنة ١٩٢٧ عقب عليه العقاد بمقال طريف عن رأيه في النكتة ثم جمع آراءه في الضحك والسخرية وما يتصل بهما في كتابه د جمحا الضاحك المضحك د صدره بمقدمة طريفة بلغت صفحاتها أكثر من نصف الكتاب (٢) وقد تعرض العقاد أيضا للكلام عن النكتة المصرية في أثناء كلامه عن طبيعة الأمة المصرية في كتابه د سعد زغلول ، فقسم النكتة إلى د نكتة دعابة ونكتة تهكم (٣) .

وكتب بعده المرحوم الدكتور عبد اللطيف حمزة مقدمة لكتابته د حكم قراقوش (٤) ، تحدث فيها عن المزاح أو الهزل Comique والفكاهة أو التندر Humour والذع أو التهكم Ironie وقد ذكر فيها أمثلة غير قليلة من الأدب الأجنبي والأدب العربي وحاول محاولة لا بأس بها التعريف بكل مصطلح مما سبق . غير أنه لم يترجم المصطلحات الأجنبية الفنية ترجمة دقيقة فإن التندر وهو الاستهزاء والسخرية غير ذكر النوادر والفكاهات الذي يعنيه الاصطلاح اللاتيني Humour وكذلك فإن المزاح لا يمكن أن يوضع ترجمة لكلمة Comique والدكتور حمزة تكلم لكتابته السائف أصدره سنة ١٩٥٤

(١) عباس العقاد : مطالعات في الكتاب والحياة (الطبعة الثانية نشرتها

المكتبة التجارية) ص ٨٩ - ١٠٢

(٢) صدر الكتاب عن دار الهلال في أغسطس سنة ١٩٥٦ العدد ٦٥ من

بجريدة كتاب الهلال .

(٣) طه حسين : فصول مختارة طبع دار الطباعة الحديثة ١٩٥٦ ص ٢٥٠-٢٥٤

(٤) عبد اللطيف حمزة : حكم قراقوش : الحلبي سنة ١٩٤٥ ص ٧٤

بعنوان : د ابن نماتي ، (١) أضاف إليه كثيرا من السخریات المختلفة في موضوعات شتى في الآداب الأجنبية .

ولقد أفرد الأستاذ أحمد عطية الله (٢) ، الضحك ، بكتاب خاص أطلق عليه ، سيكولوجية الضحك ، تكلم فيه بإسهاب عن طبيعة الضحك وكيف يضحك الإنسان وبواعث الضحك وأنواعه التي خص منها ضحكة التهكم وأنواعها ، وضحكة الأزدراء ، وضحكة الهزء ، وضحكة السخرية . غير أنه لم يحاول التمييز بين هذه الأنواع المتعددة من الضحكات تمييزاً أدبياً .

وقد ألف الدكتور شوقي ضيف كتابه ، الفكاهة (٣) في مصر ، صدره بمقدمة موجزة عن الفكاهة ، وتعرض فيه - من بعيد - إلى صلتها بالسخرية .

وقد ظهر في نفس العام كتاب ، سيكولوجية الفكاهة والضحك ، للدكتور زكريا إبراهيم عن مكتبة مصر بالفيحالة ، أفاد المؤلف من الدراسات النفسية التي صدرت في القرن الماضي إفادة ممتازة .

ثم صدر في سنة ١٩٦٠ م كتاب ، أسلوب التهكم في القرآن الكريم ، حاول فيه مؤلفاه سرد الآيات البيّنات في هذا الموضوع بعد التقديم بمقدمة مترجمة عن دائرة المعارف البريطانية لمادة Humour .

وأخيراً أصدرت مجلة الهلال عدداً خاصاً عن ، الفكاهة ، سنة ١٩٦٦ م

(١) صدر عن دار أخبار اليوم سنة ١٩٥٤ م .

(٢) أحمد عطية الله : سيكولوجية الضحك : (عيسى الحلبي سنة ١٩٤٧)

ص ١٢٩ ، ١٦٠ .

(٣) صدر عن دار الهلال سنة ١٩٥٨

يحتوى على ثمانى عشرة مقالة عن الفكاهة فى الأدب وغيره كالرسم الكاريكاتورى . هذا ، وقد جمع الدكتور أحمد الحوفى فى كتاب له عن الفكاهة طائفة من النوارد معتمدا على جل كتب الأدب القديم من غير أن يعلق عليها .

٨ - أساليب السخرية :

أما وقد اتفينا من محاولة تعريف كلمة « سخرية » وموضوعها فى البلاغة العربية ، فلنحاول أن نعدد أساليبها المختلفة ، أو أنواعها .

وعلىنا قبل البدء فى ذلك أن ندرس مجالها الحيرى الذى تنبع فيه وهو الفكاهة أو « ما يضحك » .

والمضحكات تنقسم من ناحية منبعها إلى قسمين :

أحدهما : يكمن فى الطبيعة كالنبع الذى يتفجر من الأرض حيا متدفقا ويتخلق حينذاك فى الفرد ، وفى الظروف المحيطة به ، وفى كلماته وفى طبيعته ، وفى حرفته .

ودنه العناصر أو يثبات الضحك السابقة : يضحك منها الناس ، ويفطنون إلى وجودها بسهولة ، ومن غير حاجة إلى وسيلة لمعرفة أو خلقها (أعنى ابتكارها) ويدركونها بما فيهم من صفة طبيعة تسمى « إدراك الفكاهة » .

وثانيهما : يصنعه الناس أو يحاولون أن يصنعوه ، وليس كثير منهم بمستطيع ذلك وإعماهم فيه خاصة يسرى فى كيانهم استعداد خاص : فى لغتهم ، أو فى شكلهم ، أو حركاتهم ؛ ويصطنعون لذلك أدوات مختلفة كالملابس والأصباغ والحركات الشاذة وغيرها مثلما يفعله المهرجون فى المسارح المختلفة أو من لديهم المقدرة على إرسال « الفكاهة » أو ارتجالها ويقال إن لديهم « إحساسا فكاهيا » وهو ما نسميه نجوزا ، خفة الظل ، أو خفة الدم .

والفريق الثانى من المضحكات إما أن يهدف إلى الإضحاك الخسب وحيثئذ يطلق عليه : الفكاهة أو المزاح أو الهزل .

وإما انتقد الناس فى قالب مضحك أو للسخرية بهم ويطاق على هذا النوع التندر أو العبث أو اللذع أو التهمك أو الاستهزاء .

والمضحك سمة واضحة يكشفها الذهن بين الأفكار : كالتناقض العقلى ، أو الاستحالة المحسوسة وما إلى ذلك ؛ وهى تعريفات إذا انطبقت فعلا على جميع أشكال المضحك ، فإنها لن تقول لنا أبدا : دلم يضحكنا المضحك «^(١) .

ولعل الدافع إلى السخرية : هو محاولة المجتمع أن يجعل الشخص يتلاءم مع الحياة الاجتماعية : فإن لم يتلاءم معها فقد يكون ذلك راجعا إلى تصلب فى الجسم ، أو تصلب فى الفكر ، أو تصلب فى الطبع .

إذ المجتمع يقتضى منا انتباهها دائم اليقظة ، يميز حدود الموقف الراهن ، وشيئا من المرونة فى الجسم والفكر ، تجعلنا قادرين على التلاؤم «^(٢) مع هذا الموقف ، فالترتر (التصلب) والمرونة هما القوتان المتكاملتان اللتان تستخدمهما الحياة : فإذا أعوزا الجسد كانت أنواع الرزايا ، وكانت العادات والأمراض كالأحجب الذى تعود ظهره الانحناء السبيى ، وداوم هو على هذه العادة نتيجة عناد مادى أى نتيجة تصلب .

(١) برجسون : الضحك ص ١٦ .

(٢) انظر فى ذلك كلمة معاوية : بينى وبين الناس شعرة إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخرها شددتها .

وإذا أعوزا الفكر : كانت شتى درجات الفقر الروحي وشتى أشكال الجفون، وأعظم مثل لذلك شخصية الذاهل دون كيشوت التي ابتدعها سيرفانتز . Cervantes تلك الشخصية التي علق فكرها بالآوهام وعاشت فيها .

وإذا أعوزا الطبع ، كان فقدان التلاؤم مع الحياة الاجتماعية وهو أصل الشقاء ، وسبيل الجريمة في بعض الأحيان : ونضرب مثلاً أو أمثلة لذلك بشخصيات : البخيل والمقار ، والغيور ، والمهجول .

فالمجتمع يقتضى منادائهما : مرونة في الجسم ، ومرونة في الفكر ، ومرونة في الطبع ، ومادام المجتمع لم يصب بأذى ، فإنه يجيب على التصلب البسيط بحركة بسيطة ألا وهي الضحك ، فالمجتمع يرد أن يزيل بعض هذا « التصلب » في الجسد والفكر والطبع حتى يوفر لأعضائه أكبر مرونة ممكنة وأعلى اجتماعية ممكنة ، فهذه الصلابة هي : المضحك ، والضحك : قصاصها .

* * *

إذن فالمضحكات التي يبتدعها الفنان أو المضحك أو الساخر تكون منتزعة من فرد متصلب منحرف - كما قلنا سابقاً - أو من ظروف مختلفة محيطه به تتكرر أو تنقلب رأساً على عقب وتأتى بعكس المنتظر أو يتدخل بعضها في بعض كما إذا تبادل ضدان كشيخ وقسيس أو امرأة ورجل بعض ملابسهما وهذا ما يسمى بتداخل السلاسل ، أو ينتزع من الكلمات التي تضحك بذاتها لرنينها الصوتي الخاص بها أو بوضعها متجاوزة بصورة مضحكة وكذلك ينتزع المضحك من الطبع المنفصل عن البيئة المحيطة به أو البعيد عنها ، وأخيراً ينتزع من الحرفة التي يمتنها الإنسان في حياته وتسيطر عليه ألفاظها ومقتضياتها في جميع أحوال حياته الاجتماعية ، حتى يبدو هذا الإنسان المضحك كأنه ذاهل

داخل إطار حرفته كل الذهول ، وسيطرت عليه كل السيطرة فنرى أن
الذى ينطق دائماً ليس صديقنا فلانا بل محترف هذه المهنة الذى رانت عليه
عقلياً وصورتياً .

والصور الساخرة أو صور الفنان الساخر يتدعها بعد إضافة
روحه ، أو أعمال خياله الهازيء أو الضاحك فيها ، فيصبغها بصبغة فنية
جديدة ، أو يجعلها تنبض بنبض يلفت نظر من لم يكن ملتفتاً إليها أو تزيد
لفت نظره إليها : مثل الفنان الذى يرسم منظرأ جميلاً ويضعه فى لوحة أو
إطار ، ويجعله أمام الأعين على الدوام : إذ ربما كان هذا المنظر الطبيعي
موجوداً فى الطبيعة الحية أمام الناس ، ولكنهم يمرون عليه مر السكرام ،
أما رسم الفنان إياه ، فقد لفت أنظارهم إليه . وبخاصة حينما بث فيه « نفسه »
أو ما نسميه عبقريته أو شعوره أو إحساسه بهذا المنظر ، فعمل الفنان
أو ابتداعه شيئاً جديداً هو الطبيعة الحية مضافاً إليها جهد النفس البشرية أو
العبقرية المعبرة .

كذلك الساخر : فهو يضيف نفسه أو شخصيته أو فنه أو عبقريته إلى
هذه الصورة المسخورة منها ، وبذلك يخلقها خلقاً جديداً ، وهو ما يسمى
بالإبداع أو الخلق : فهذا رجل كسيح يمشى أمامنا . . . ربما عطفنا عليه
لعاهته ، ولكننا نسمع عنه أنه مجرم يفرض إتاوات على الناس ، ويرتكب
حوادث إجرامية ضد المجتمع فيتناولوه الساخر ، ويحيله من صورة صماء إلى
صورة متحركة مضحكة ، تجعلنا نضحك منه ونهزأ به فننتشفي به بعد أن كان
يبعث فى أنفسنا الرثاء أو الخوف أو كليهما .

وهكذا يصنع الفنان من المواد الأولية .. إن صح هذا التعبير - بإطلاقة
على بعض النماذج البشرية وغيرها .. يصنع منها مراد مركبة منها تركيباً لا يقدر

عليه إلا الساخر ، وينتهى بها إلى الصور والحوادث والحركات والنفسيات المضحكة . . . وهو لا يضحكنا من الجسم كشيء مادي فحسب ، بل كظرف أو وعاء فيه روح معوجة أو شاذة أو غير مستقيمة ، لأن الجسم .. ميتا .. لا يمكن أن يضحك أو يهزأ به ، لأنه أصبح في دنيا العدم بالنسبة لنا كأحياء متحركين ، نحركنا وتسيطر علينا روح ما داخل أجسامنا .

٩ - صور السخرية أو أساليبها :

حاول كثير من الكتّاب والنقاد الأوروبيين الإحاطة بصور السخرية والفكاهة المختلفة ، وترتيبها زمنيا حسب نشأتها منذ القدم ، ثم تدرجها على مر العصور ، فمن هؤلاء آرثر سيد جويك Arthur Sedgwick وتابعه ^(١) G. G. Sedg. : وحاول مناقشة تاريخ الكلمة وتطور معانيها ولم يستطع معرفة تاريخها قائلا : « فحتى لو لم يكن لصبرك أو لوقتي من حدود فإني غير مستطيع سرد القصة بكلمها ، لأنني لا أعرفها ، ثم قال في موضع آخر : « وكما قلت آنفا ، فربما كانت السخرية النحوية المبنية على قواعد اللغة .. هي أول صورة للسخرية تقابلها ولا تظن أنها أقدم صورها ، وهي تبدو .. في الحقيقة .. مرحلة ثالثة أو رابعة من مراحل تطور السخرية التي تعدها حسب رأيك ^(٢) .

وقد حاولت دراسة صورها دراسة تجريبية ، أي أنشئ أو أحاول ابتداء بعضا من جهة ، وأن أنعمق الناس في سخرهم على اختلاف أسنانهم وطبقاتهم وحالاتهم النفسية والثقافية والاجتماعية وطباعهم وأمزجتهم من جهة أخرى ، حاولت ذلك ردحا من الزمن : قد يطول حتى يشمل عمري

1 - G.G. Sedgwick : OF Irony , Toronto 1948 P : 4

2 - Ibid P : 6

كله بما فيه من ذكريات مفعمة بالسخرية ، وقد يقصر حتى لا يزيد عن الست
السفريات التي استغرقها البحث ، فخرجت بهذه الأنواع التي أحاول الآن ترتيبها
ترتيباً زمنياً بقدر الإمكان .

فأول صور السخرية وأقدمها في تاريخ البشر وأكثرها انتشاراً بين العامة
هي السخرية بالمحاكاة ، في الكلام والمشى والحركات الجسمية وأنواع
السلوك المختلفة ، أى في السمات البارزة التي تميز شخصية ما من الشخصيات
كأسلوب ما من أساليب الكتابة التي يمتاز بها كاتب من الكتاب أو خطيب
من الخطباء أو شاعر من الشعراء في قصيدة ما من قصائده كما فعل حافظ إبراهيم
معارضاً شوقياً في قصيدته المشهورة « عن أى ثغر تبسم » . وهذا النوع من
تقليد القصائد وإحالة الجاد منها بمعانيه إلى هزل أو مضحك منتشر في الآداب
الأوربية أكثر من انتشاره في الأدب العربي .

والسبب في أن التقليد يكون مدعاة إلى السخرية هو أن الساخر المقلد
ينقل شخصية المقلد برمتها ويجعلها رداء له يلبسه ويتماجن به كيفما يشاء
فكأنما هو يمسحه وكأنما جعل شخصية الألائع متبلورة أو مركزة في لثغته .
والفنان لا يكتفى بمجرد التقليد كعامة الناس أو الأطفال بل هو يولد منها
صوراً متفرعة كثيرة كلها مشتقة من اللثغة أو من صورة هذا الألائع وروحه
العام .

وقد ذكرت دائرة المعارف الأمريكية (الأمريكانا) هذه الصورة كصورة
من أقدم صور السخرية عند الهنود والهنود الحشيين .

أما المناداة بالألقاب ، فهي من أقدم الصور السهلة الساخرة في السخرية
وتستعمل فيها أسماء الحيوانات كالألقاب كقولهم للسمن يادر فيل ، ثم استعمال هذا
اللقب .. فيما بعد .. أما يطلق على هذه الشخصية وتعرف به ، وكذلك استعمال الصفات
المعكوسة وهي عكس ما يتصف به الشخص حقيقة كالألقاب ثم أسماء .. تتكرر

كثيرا في عور منوعة ومناسبات مختلفة حتى يلصق هذا الاسم بهذه الشخصية
كإطلاق صفة الهزيلة النحيفة على المكتنزة والسبع (أفندي) ، على
النحيف ، ويمكن استعمال ألفاظ أجنبية لزيادة الهزء بإدخال عنصر الغرابة
كاستعمال (مدموازيل) للعجوز الطاعنة في السن وكذلك استعمال أسماء
الذائل وإضافتها إلى من يدعون التمسك بأهداب الفضيلة كإطلاق « الشيخ
متلوف » - هزءا وسخرية - على الفاسد ، والأمين على اللص وإنا
لا نحس جرس السخرية من أحرف فحسب بل من الجو المحيط بها ، وأعنى
به الجو الاجتماعي الذي يفهمه السامع أو القارئ : فالكفار قد هزئوا - زمن
الردة - بأبي بكر فسموه « بأبي النصيل » .

ومن أقدم طرق السخرية وأكثر دأ شيوعا السخرية بالصوت ، وتلويح
وزفء ، وخننضه وإعطائه نبرات خاصة معروفة يفهمها السامع غالبا ويعرف
صفاتها التي لا يمكن أن ينقلها القلم إلى الطرس . وكذلك السخرية بانفراج
أساور الوجه وتحريك عضلاته ، أو بهز الرأس أو الكتفين أو بالغمز
بالعين . . .

وقد يكفي للسخرية بالشخص أن تنظر إليه - صامتا - ثم تأخذ في إدامة
النظر إليه وأنت تبسم ابتسامة السخرية أو تضحك ضحكة السخرية . وأعتقد
أن هذا النوع أقدم أنواع السخرية ، ولكن لا يمكن إثبات ذلك نظرا لأنه
لا يسجل على الورق كتابة أو على الحجر نقشا .

أما النوع الرابع فهو : معالجة الشيء الحقير كأنه عظيم ، أو ما يسمى في
الأدب العربي « الذم بما يشبه المدح » ، ويدخل فيه أيضا « تجاهل المعارف ، وكل
ذلك وغيره يتسق وينتظم في عبارة طويلة لا تستمد تأثيرها من ألفاظها : لفظة لفظة
على حدة ، بل من العبارة برمتها : ونضرب مثلا على ذلك بمخاطبة عالم يستهزئ

بجاهل قائلاً: قل لي يا سيدي الأستاذ، أو أخبرني أيها العالم الجليل . أو مخاطبة
القييخ قائلاً : القمر يغار منك .

وبعضهم يسمى هذا النوع ، أو يؤثر أن يطلق عليه « التهمك » ، ويلاحظ
أنه لا يمكن إعطاء أمثلة حقيقية لمثل هذا النوع بجملة مبتورة نظراً لأن
الكلمة أو الجملة تفقد حيويتها إذا انتزعت من الكل الحى النابض بالحياة
كالعضو الذى يموت إذا اقتطع من الجسم كله .

أما النوع الخامس فهو : « معالجة الشيء العظيم كأنه حقير : ويمكن أن
يكون طريقة من طرق الاستهزاء ، كما شبه يتلر أماكن العبادة المسيحية
ساخراً بمصرف يذهب إليه الناس ليدفعوا شيئاً ويأخذوا شيئاً .

ومن أنواع السخرية : تجاهل العارف أو التباله: وهى الطريقة المشهورة
التي أثرت عن سقراط .

يسأل الأب ابنه الراسب فى الامتحان - وهو يعلم برسوبه - أنجححت فى
الامتحان ؟

أما التعريض فهو : من أشهر أنواع السخرية فى الأدب العربى ، وجمع
الشعاب فى كتابه « الكناية والتعريض » ، طائفة من الأمثلة ، كذلك الذى دار
بين معاوية بن أبى سفيان والأحنف بن قيس ، إذ سأل الأول الثانى قائلاً :
ما الشيء الملفف فى البجاد ؟ فقال الأحنف : هو السخينة يا أمير المؤمنين !!
وقد أراد معاوية قول الشاعر :

إذا مامات ميت من تميم	فسرك أن تعيش لحيى بزا
بخبز أو بتمر أو بسمن	أو الشيء الملفف فى البجاد

وأراد الأحنف بقوله : السخينة ، أن قریشا يأكلونها ويعيرون بها وهي
أغلظ من الحساء ، وأرق من العصيدة ، وإنما تؤكل في كلب الزمان ، وشدة
الدهر ، وقد سموا قریشا « سخينة » تعبيراً لهم بذلك (١) .

وكان عبد الأعلى بن عبد الرحمن الأموي عتب على بعض ولده الحارث
فقال له معرضاً بما قال حسان (٢) :

كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

فقال :

إخال بالعم وبالجسد مفتخراً بالقدح الفرد
الهج بهمان وأشدها فإنيها أدعى إلى المجد (٣)

وصار شريك بن عبد الله النخعي يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري فبرزت
بغلة شريك ، فقال له يزيد : غض من لجامها !

فقال : إنها مكتوبة أصلح الله الأمير !! فضحك ، وقال : ما ذهبت
حيث أردت .

وإنما عرض بقوله : (غض من لجامها) بقول جرير المشهور :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وعرض له شريك بقول ابن دارة :

لا تأمنن فزاريا خلوت به على قلوصلك واكتبها بأسبار

(١) الآبي : نشر الدرر ٢ / ١٢ ومراجع أخرى كثيرة .

(٢) قال حسان يهجر أبا سفيان :

وان امرأ كانت سمية أمه وسمرام مغموز إذا بلغ الجهد

وأنت زنم نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

(٣) زمر الأداب ٢٦ - ٢٧

وبنو فزارة يرمون ياتيمان الإبل (١) .

ومن صور السخرية : التصوير البالغ فيه (الكاريكاتورى) : وهو وضع الشخص فى صور مضحكة : كالمبالغة فى تصوير عضو من أعضاء الجسم ومحاولة تشويهه إلى حد ما ، بحيث يحول الشخص كأنه لا يدرك أو يعرف إلا بهذا العيب الذى جسده وكبره : ومن ذلك ضخامة الجسم أو نحافته ، وقصر القامة أو طولها المفرط ، وارتفاع أحد الكتفين بصورة ظاهرة أكثر من الآخر ، وتصوير الشذوذ فى ملامح الوجه يلعب الدور الهام فى هذا الصدد والأنف بصفة خاصة يعد متياسا للشذوذ المثير للضحك ، لهذا نلاحظ أن المصور الكاريكاتورى يميل إلى تأكيد طول الأنف أو انعدامه لما يضفيه هذا الشذوذ من تأثير هزلى على الوجه (٢) ، وتصوير الأنف يكون بطولها أو بكونها معقوفة أو فطساء . وكذلك يصور الفم تصويراً هزلياً لاتساعه ، أو لعدم انتظام أسنانه أو لعيب فى إحدى الشفتين كقطع فيها أو ما يشبه ذلك من عيوب ، والشذوذ الحسى يدخل فى هذا النطاق : كالاعمى والأصم والأبكم ، فهؤلاء جميعاً يشيرون عاصفة من الضحك إذا سلكوا مسلكاً يحاولون به إنكار ما فيهم من نقص : فالأبكم الذى يرسل خليطاً من الأصوات للتعبير عن غرضه يضحكنا ، وإذا ما أصر على استخدام هذه الطريقة الشاذة فى التعبير عن حالة نفسية يقصر دونها الكلام بله الأصوات كأن يصور لنا هذا الأبكم فى موقف غرامى ، فإن سلوكه يكون مصدراً ثراً للدعابة ، ولا يكتفى المصور الكاريكاتورى رساماً أو كاتباً - بتصوير الشذوذ الخلقى ، بل يتخذ من السلوك الشاذ مادة خصبة لسخريته : كالجانين والبله والمفكرين ذوى الآراء الجريئة التى لم يألفها المجتمع ، وكذلك شدة

(١) زهر الآداب للحصرى : ص ٢١ ، ٢٢

(٢) سيكولوجية الضحك : لأحمد عطية الله ص ٨٢ .

الإنسيان . وقد اعتمدت الكوميديا زمنا طويلا على هذه الظاهرة ، فتماع
في القرن السادس عشر ما كان يعرف بمسرحية كوميديا الأمزجة
Comedy of Humours وفيها يعرض المؤلف شخصيات ذات أمزجة خاصة
غير مألوفة فيها كما نجح في القرن الثامن عشر ما عرف بكوميديا العادات .
Comedy of manners وفيها يعرض المؤلف شخصيات ذات عادات نابية
تستثير الضحك لغرايتها^(٢) .

وقد يكون التصوير مضحكا ساعرا بسبب الانفاظ ذاتها إذ هي التي
تبعث على الهز والسخرية لرائدتها وتنافر حروفها ، أو لأنها قوية التعبير عن
نفسية الذي يصور أو يمسح أو يحاول التعبير عنه .

ومن صورها : السخرية عن طريق التورية أو (السخرية التراجيدية)
Irony وهي العبقرية التي تجعل شخصا من الأشخاص يستعمل ألفاظا تعني
شيئا ما بالنسبة إليه ، شيئا آخر بالنسبة للنظارة العارفين بالحقيقة^(٣)
كمن يقول لأعدائه مقدما إليهم طعاما مسموما : طعاما دنيئا يا سادة .

ومنها : السخرية عن طريق الصور الملفقة المضحكة أو ما يسمى بالادعاء
أو الدعاوى الكاذبة ، ومنها اختراع النوادر والنكت وإضافتها إلى أغنياء
الحرب ومحدثي النعمة والقرويين السذج الذين زاروا المدينة لأول مرة
مثلا ، فن أمثلة السخرية بالقرويين والتشنيع عليهم أن قرويا زار القاهرة ،
فسأله زميل له مخبرا : على ذلك فأنت تعرف الترام والمترو ! فأجاب القروي :
كيف لا ، وقدأ كنت منهما كثيرا وكذلك التندير «التشنيع» على الأطباء والمعلمين

(١) سيكلوجية الضحك : لأحمد عطية الله ص ٨٤ :

(٢) المرجع السابق ٨٧ :

Har ms worth · s Universal Encycl. V.5. P : 4315

(٣) دائرة المعارف البريطانية ١٢ / ٦٨٢ مادة Irony

وقغيرهم من ذوى الحرف المختلفة ومحاولة تسديد سهام النقد إلى ناحية من نواحي النقص التى عرفت عندهم .

وكذلك يهاجم الساخر الجبان والبنخيل والمتطفل والمنسول وكل العيوب الاجتماعية الأخرى بالمباغة فى وصفها واختراع الصور المبالغ فيها . وفى كتاب البهلاء للجاحظ أمثلة طريفة .

ومنها : مجابهة الشخص بعكس ما يتوقع ، ومن ذلك سرعة الجواب الساخر ، كذلك المادرة التى تروى أن صيادا رمى عصفورا فأخطأه ، فأراد ساخر أن يسخر به ، فقال له أحضرت ! فقال الصياد : أتزأبى ؟ فرد عليه الساخر بسرعة : ولاكنك أحضرت إلى العصفور !

ومن ذلك ما يحكى عن أحد الأمراء أنه أراد أن يسخر بالشاعر الفرنسى الكبير فيكتور هوغو ، فقال له : ألم يكن أبوك خياطا ؟ قال فيكتور : بلى .

فقال الأمير : ولماذا لم تكن خياطا مثله ؟ وبنفس الطريقة سأله الشاعر : وأنت أيها الأمير : ألم يكن أبوك مهبذا ؟ فقال الأمير : بلى .

فقال الشاعر : ولماذا لم تكن مهبذا مثله (١) ؟

وقال فى ذلك الأستاذ أحمد عطية الله ويحاول المستهزئ - فى بعض الأحيان - إمعانا منه فى الزهو بنفسه - أن يدخل فى روع الهزأة أنه حقا ذو شأن وخطر ، حتى إذا ما اعتقد هذا الأخير مأوهم به ، كشف المداعب

(١) وانظر مادار بين أبى العيناء وشخص أراد السخرية به ص ٢٦ من كتاب نوادر أبى العيناء المطبوع سنة ١٩٧٢ م .

عن حقيقته ، فاخفت مسحة الجد من وجهه ، وراح يضحك ساخرا من صاحبه الذى تذهله المفاجأة حتى يعجم عليه القول (١) .

ومن تلك الصور الأدبية : التهم .. وهو ذكر أشياء أو باطيل لا يعتقد بها الشخص وفي نفس الوقت يتظاهر بالاعتقاد بأنها صحيحة ، أو يذكرها في معرض التعجب من وجودها ومن ثم الاستهزاء بها .

وعلى كل ، فالتهم من صور السخرية الشفافة التى ليس من السهل تعريفها ولكنها تعرف بالذهن اللماح ، قال النويرى : والفرق بين التهم وبين الهزل الذى يراد به الجد أن التهم ظاهره جد ، وباطنه هزل ، والهزل الذى يراد به الجد على العكس منه . كقول ابن الرومى :

فياله من عمل طالح يرفعه الله إلى أسفل (٢)

وقان آخر : أصل الأمر فى التهم أن تقول قولا وأنت تريد ضده كقول النظام : ما بعد هذا الكلام كلام : فهو لم يقصد بهذه العبارة إلا ضدها ، ظاهر كلامه الاعتراف بعلم المخاطب ، ولكن باطنه تعريض بجهله (٣) .

وأكثر ما يستعمل التهم فى الخطاب ، فهو يغلب على الأحاديث حتى يكاد يكون لهجة ينفرد بها بعض الناس . ومن الأمثلة على ذلك قول الشاعر الجاهلى :

يحزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

(١) سيكولوجية الضحك ص ١٥٠

(٢) النويرى : نهاية الأدب ١٧٩/٧

(٣) الجاحظ : شفيق جبرى ١٩٩

أو قول زهير :

فتغل لكم مالا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

أو قول طه حسين :

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لو خرج فلان لأهل قريته عن بعض ماله ، ليسقيهم ماء نقيا ، لزال عنهم المرض ، ولاستفاد زرعهم من صحة أجسامهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هو أعطف عليهم من ذلك ! ألم تعلم أن المرض محنة ، يثاب عليها المريض إن أحسن احتماها ! وأن الصحة فتنة ، إن أساء الصحيح استعمالها ، يعاقب عليها فهو (يؤثر) أهل قريته بالشراب ، و (يعصمهم) من الفتنة ! ^(١)

ومن تلك الصور أيضاً : السخرية بالمفارقة (في الحوادث تسمى سخرية القدر) وبستخدمها الساخر بمهارة في القصص ، ومن أمثلة ذلك :

« دخل رجل عل طبيب في عيادته ، فاعتقد الطبيب أن الزائر مريض يطلب علاجاً ، وأراد أن يوحى إليه بمقدار أجره في غير مساومة ، فعمد إلى التليفون ، وأداره وراح يقول لمحدثه المزعوم :

نعم . أنا الدكتور (فلان) : إنني مشغول جداً . . . تسأل عن القيمة المطلوبة ؟ إنها كما أخبرتك : أربع جنيهات . . . وأنت تعرف هذا . حسن . . . إلى اللقاء إذن .

(١) انظر قول بشار بن برد في خياط أعور يسمى عمرا خاط له قباء :

خاط لي عمرو قباء لبست عينيه سواء

ثم وضع سماعة التليفون ، والتفت إلى الزائر متسائلا : ماذا أستطيع
أن أصنع لك يا سيدي ؟

فأجابه الزائر : لا شيء . . . إننى موظف مصلحة التليفونات الذى طابته
لإصلاح تليفونك ، ا

والساخر لا يستخدم لغة مضحكة ، بل يترك الموقف للسامع أو القارئ .
لكى يضحك منه ما شاء له الضحك .

وبما شاع منها فى الآداب الأجنبية : الجمل أو التعبيرات اللاذعة :
وهى جمل تكون كالحكم السائرة أو المثل السائر وتتناول شخصا من
الأشخاص أو مهنة من المهن بالنقد اللاذع المختصر ويكون فى صيغة ،
« التعريف » ، وقد اشتهر كثير من أدباء الغرب بهذا النوع أمثال برناردشو
الكاتب الأيرلندى ، وأوسكار وايلد الانجليزى . فالأول يعرف انتشاره
بقوله : إنه الرجل الذى يعتقد أن الناس أشرف أمثله فيحقد عليهم لذا
السبب ! ! ويعرف أدامسون الطفل بأنه قناة هضمية ينتهى طرفها بصوت
مزعج ، وطرفها الآخر بالفرضى ! ويعرف أحدهم الأستاذ الجامعى
بقوله : « هو الرجل الذى يعلم تلاميذه كيف يحلون مشكلات الحياة التى حاول
هو أن يتجنبها باشتغاله بالعلم ! !

ومن أمثلة التعريفات الساخرة قول أحدهم عن الأمريكيين :
الأمريكيون أحرار لأنهم « يأخذون ، حريات كثيرة ! !

وقد يستخدمون طريقه المقابلة ، بدلا من التعريف ، كقولهم : فى بعض
البلاد الشرقية لا يرى الزوج امرأته قبل الزواج ، وفى بعض البلاد الغربية
لا يراها بعده . ! !

تحمّر البنت القروية إذا خجلت ، أما العصرية فتخجل إذا حمرت ١١ كانت
البنت قديما لا تجسر على تناول يد فتاها ، ولكن البنت حديثا لا تجسر على
تركها ١

وأخيرا التلاعب اللفظي : والأساس فيه هو محاولة المتندر أن يكسب
الألفاظ معاني غير معانيها الواضحة ، فإذا ما اكتشف السامع أن ما يقصده
المتكلم هو هذا المعنى الغريب يسخر من فهمه الأول للمعنى الجملة ، فيضحك ،
ويكون التلاعب اللفظي : باختصار الفكرة ، أو بالإضافة إليها بحيث تخرجها
عن معناها الأصلي أو بتبديل الكلمات المكونة لها ، أو بنحت بعض ألفاظها
أو بتقسيمها ، أو بالعيب بإعجامها (١) كان ندعو من تسمى فاطمة الزهراء بأن
نقول فاطمة الزعراء ١

* * *

وبعد ، فإن خيال الساخر في الحقيقة خيال مرن ؛ يتناول السخرة أو
المسخور منه بالمداعبة والعبث واللعب ، كما يسلك القط مع الفأر قبل افتراسه ،
وهو لذلك يستخدم وسائل وأساليب متعددة في سخره فتداخل كل منها
بحيث لا يمكن إحصاؤها أو عدّها ، وهي معرضة دائما لابتكار
العقول المبتكرة ، بحيث لا يمكن للبلاغي حصرها في اصطلاحات ضيقة
فمثلها كحروف الهجاء في أية لغة من اللغات : يمكن الإنسان اشتقاق آلاف
الألفاظ منها ، والتعبير بها عن آلاف الأحاسيس فتكون طبيعة في يده
يستخدمها كيف يشاء . ومن حاولوا الإحصاء أنواعها المختلفة في الآداب الأوربية
ايفان ايزار في كتابه Humour of Humour ؛ ولكنني أرى أن لا جدوى
من ذلك ، بل يكفي معرفة أشهرها ، والتعرض لما يجد منها أو ما يكون خاصا
بأديب دون آخر ، بالتحليل ومحاولة بيان أوجه الجمال أو العبقرية فيه .

صيغ السخرية :

والساخر حين يسخر ، يعتمد ، كل الاعتماد على خياله العايت الذى ينتقى من صور السجرية ما يراه مسعفا له على إدراك غايته وهو التناكيل بخصمه أو الوصول إلى هدفه فى اقتلاع رذيلة من الرذائل بفنه الساخر وهو فى ذلك يرجع إلى طبعه وما جبل عليه : فمن الساخرين من يملون إلى صيغ بعينها يختصون بها ويدور معظم سخرهم على هذه الصيغة ، ومنهم من يستخدم أغلب هذه الصيغ ، ومرجعه فى ذلك عقاه الباطن الذى يديه أو بعبارة أخرى يسيطر عليه كل السيطرة ، فيملى عليه ما يريد ، ويوحى إليه بالصيغة التى تقتضى أو تلائم قوة الموضوع الذى يعالجه ، وقد لاحظت عليهم ذلك ومنهم زميل لى (أ - م - ن) كان يسخر دائما باستخدام صيغة المغالطة .. يخطئ فى نطق كلمة ويأبى أنه يريد عكسها كالصحفى الذى يكتب تحت صورة أحد الزعماء - مدعيا الخطأ - وهذه هى صورة الكلب الذى فر من قفصه ، ويكون هذا الزعيم مسافرا إلى بلد أخرى ، ثم يكتبون تحت صورة كلب ، وهذه صورة الزعيم العظيم (فلان) متاهبا إلى الرحيل عن وطنه ، وهذه طريقة من أنكى الطارق إذا تخصص فيها الشخص وأتقنها بملاءمتها لذوقه وحسه وطبيعته من جهة ، وكثرة تمرنه عليها من جهة أخرى .

وهناك شخص آخر تخصص فى قول كلام مبتور يوحى إلى السامع بذلك أنه سيقول عبارة (ما) من العبارات حتى إذا ما اطمأن إلى أن السامع تأكد أنه سيقول مثل هذه العبارة . قال هو عكسها ، وبذلك يستخر من السامع وكأنه كرة يلعب بها كيف يشاء .

وأروع درجة من درجات السخرية هى التى تعتمد على الإشارة المباشرة وتقوم على الإيجاز الشديد ، وما يذكر فى ذلك محاولة أحد الصحفيين المصريين السخرية بأمرى - كما فرسم فى مجلة آخر ساعة السفير الأمريكى - ففكر التفكير

عميقا ، وملا للصفحة كلها - على اناسها - بالصورة ثم كتب عنوانا صغيرا
« صفقة الأسلحة » . ولم يزد شيئا على ذلك . وأذكر أيضا نادرة أخرى شاهدها
بعينى : أراد بعض الطلبة فى إحدى حفلاتهم العامة السخرية بإحدى الطالبات
وكان سلوكها محاطا بشيء من الريبة ، فوزعوا جوائز وهدايا على بعض حضروا
الحفل ، وكان نصيبها أن قدموا لها فى صمت : كوزا من الذرة « وكفى » (١)

وأراد بعض الطلبة السخرية بمدرس لهم يدعى « أحمد قته » فلما كان منهم
إلا أن استدرجوه لكي يشرح لهم إحدى مسائل الحساب ، فلما وافق ووضع
يده فى صندوق المحسك « الطباشير » لم يجد فيه إلا جسما أملس ناعما ، فلما
أخرجه ، وجده « خيارة » إشارة إلى اسمه !

وهكذا يكون الرمز والإيماء فى السخرية أنكى من الإطالة ، وذلك
لطبيعة السخرية التى تجافى الإطناب كل المجافاة إذ أنها نتاج العقول الذكية
وتخاطب فى الأغلب الأعم العقول الباحة .

ومن صيغ السخرية التى يمكن تعدادها :

الاستفهام مثل : من أنت أيها الجبار العنيد ؟ لمن ضؤل شأنه .

والأمر مثل : « ذق إنيك أنت العزيز » ، والتهكم بالبخل : « ابتعد حتى
لا تصاب مثلهم بالكرم »

والنهي مثل قول الخطيئة :

دع المسكرم لا ترحل لبعيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
وقول الشاعر :

لا تطلب المجد إن سلمه صعب ، وعش مستريحا ناعم البال

(١) انظر ما دار بين محمد بن مكرم وأبي العيضاة فى « نواحر أبى العيضاة » ص ٥٩ ، ٧٨

والتمنى مثلما يقول القائل للقسيس السارق : د ليتك تمنحني بر كنك ،
وقول القائل للعاجز : لعلك تستطيع أن تحمل هذه المعضلة !!

والتورية : كما جاء في الآية الكريمة حينما كان اليهود يقولون (راعنا)
لأنكى يوهموا المسلمين أنهم يقصدون اشتقاقها أو معناها العربى ، وهم فى الحقيقة
يهدفون إلى معناها العبرى ونزلت الآية الكريمة : د لا تقولوا راعنا ، وقولوا
انظرنا ، (١)

والمشاكاة : كمن أراد أن يداعب أو يهزأ ببخيل وعده شيئا ثم أخلفه ،
ثم وعده بوليمة عظيمة ، فيقول له :

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخا ،

قلت : اطبخوا لى جبة وقيصا !! (٢)

وكثيرا ما استعمل أبو العيناء هذا الأسلوب مع بعض الحكام فى
عصره (٣) .

والمواربة : وهى فى الأصل المخادعة والدعاء : وفى الاصطلاح أن يحمل
المتكلم كلامه بحيث يمكنه أن يغير معناه بتحريف أو تصحيف .

والعكس ، ويسمى القلب والتصدير (٤) : وهو أن تقدم جزءا فى الكلام
ثم تؤخره بأن تؤخر ما قدمت ، وتقدم ما أخرت ، مثل قول أحدهم يسخر

(١) اللسان مادة رعن

(٢) زهر الربيع للحملاوى ١٥٤

(٣) نواذر أبى العيناء ص ١٠٢

(٤) زهر الربيع ص ١٦١

من صديق له غضب لمزاحه معه : ليس الضحك بداية سيئة للصداقة (١) ،
ولكنه نهاية حسنة . وقد يدخل هذا النوع فيما يسمى « باللعب بالألفاظ » ،
وتجاهل المعارف : وهو سوق المعلوم مساق المجهول للمكينة : كالمبالغة
في المدح أو الذم أو التوبيخ . كما قال زهير (٢) :

وما أدري - وسوف إخال أدري - أقوم آل حصن أم نساء ؟

وتأكيد الذم بما يشبه المدح : وتنفع السخرية منه من المفاجأة التي يفاجأ
بها المخاطب المقصود بالذم أو السامع مفاجأة لم تخطر له على بال حينما يبدأ
الساحر بأسلوب المدح ثم يختتمه بأسلوب الذم مثل ، أجمل شيء في صديقي :
طول أذنيه !! وإنه يكر منادائنا بانقطاعه عن زيارتنا !

وحسن التعليل : أو السخرية بمحاولة التعليل أو التظاهر بالتعليل تأييدا
للمخاطب المسخر منه : مثلما يقول أبو لابنه كسر كوبا :
أعرف أنك كسرتَه لأنه مكث لدينا زمنا طويلا !!

والتضمين : ويسمى أيضاً الإبداع : وهو أن يضمن الشاعر كلامه
شيئا من شعر الغير مصراعا أو بيتا ، مع التنبيه على ذلك ، إلا إذا كان مشهورا
فإن شهرته تغني عن التنبيه عليه (٣) . مثل (٤) قول بعض الشعراء مخاطبا
طيبيا كان ي بغداد يدعى نعمان لا ينجح مريض على يديه :

أبامنذر أفنيت فاسبق بعضنا !!

حنانيك ، بعض الشر أهون من بعض !!

(١) جحا : الضاحك المضحك للعقاد ص ١٦

(٢) زهر الربيع ١٦٥

(٣) زهر الربيع للحملاوي ص ١٧٧

(٤) جمع الجواهر للحصري ص ٥٩

وقد اشتهر بهذا النوع الحمدوني في طيلسان ابن حرب وشاة سعيد -
والسخرية بالفاظ المدح : وهو أن يكون الهجو أو السخرية بالعبارات
التي تستعمل في المدح مقرونة بما يصر فيها إلى الهجاء كقول الحماسي :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا (١)
وقال بعضهم لشاعر . إنك أشعر من رسول الله !

والتصحييف : إما بوضع لفظة مكان أخرى بتبديل حرف يغير معنى
الكلمة أو بوضع كلمة في غير موضعها ، كالمحاولة كاتب أن يسخر بطبيب
بقوله إنه كتب تقريراً عن شخص متوفى ، وكان يعالجه ، وأخطأ وكتب
اسمه أمام : سبب الوفاة .

وبعد ، فهذه بعض الصيغ التي تصاغ فيها السخرية ، وليس من همي
إحساؤها إذ هي كالبحر العميق الزاخر بشتى الأحياء ، أو هي دنيا واسعة
لا يمكن حصر ما بين أطرافها ، كما يحاول البلاغيون حينما يحصرون أنواع البديع
المختلفة أو غيره من أبواب البلاغة ، وحمي في ذلك للتعبير عن رأي أن أذكر
كلمة « برجسون » عن هذا الشيء المسمى بالسخرية : « أخشى أن يكون هذا
الجوهر اللطيف من تلك الجواهر التي مرعان ما تنحلل إذا عرضتها للضوء » (٢)

(١) زهر الربع للحملاوي ص ٢٨١ .

(٢) الضحك لبرجسون ص ٩١ .

الباب الأول

١ - قدم السخرية ورسومها عند الأوربيين :

للسخرية أو الميل إلى إثارة الضحك بواسطة الصور المضحكة جذور عميقة في الطبيعة البشرية ، وهي من أقدم المواهب الفطرية التي مارسها الإنسان في مجتمعه البدائي غير المذهب ، وولوع الإنسان بالضحك والهزء والفكاهة ، وفطنته السريعة إلى كيفية إثارتها قد شملت البدائيين ، وقد ظهرت بوضوح في علاقات بعضهم ببعض من قديم الزمن وحتى قيل أن يصقل الإنسان أدب أو فن ، كان رئيس القبيلة البدائية يجلس في كوخ محاطا بالمحاربين من قبيلته ، وكانوا يسلون أنفسهم ويتلمون بتناول أعدائهم وخصومهم بالهزء بهم : فكانوا يضحكون من ضعفهم ويتبادلون النكات بما يحسون فيهم من نقص أو تشويه ، سواء كان هذا النقص عضويا ، أو في عقلهم وحياتهم ، ويطلقون عليهم ألقابا مضحكة ، وهم يقصدون من وراء ذلك أن يهزأوا بهم بالألفاظ أو بأن يلفقوا عنهم الحكايات التي هي في عداد الأشياء التي تثير انبساط أسارىهم وضحكهم .

ثم انتقل الإنسان القديم إلى مرحلة تالية في هذا الفن : بأن بحث عن وسيلة يكسب بها هزءه صورة أكثر بقاء وخلودا ، فأخذ يرسمها على الصحف المكشوفة ، أو على أي سطح لين رسما ساذجا .

ثم عرف هذا الفن عند كثير من الأمم القديمة : (١) المصريين والإغريق والرومان والهنود والوثنيين والمسيحيين . وقد وصلت آثار أدبية ساخرة عن أرسطوفان أعظم مؤلفي الكوميديا الإغريقية كالضفادع وغيرها .

(١) أنظر دائرة المعارف الفرنسية La rousse مادة Caricature حيث
تورد عدة أشكال منقولة عن الآثار المصرية القديمة تفيض سخرية .

وكان الكتاب الساخرون دائماً رواد الحركات الإصلاحية في التاريخ
فاشتهر سقراط منذ القدم بطريقة الساخرة وهى التباله أو ادعاء الجهل
ومحاولة إثارة الموضوع الذى يتكلم فيه أو يناقشه بهذه الطريقة ، وأصبح
من ذلك الوقت علماً على هذه الطريقة فى الفلسفة Socratic Irony
أما هؤلاء الذين تقدموا النهضة الأدبية - ومن ثم الاجتماعية والسياسية - فى
أوروبا ، وفتحوا عيون راجدة فى تاريخ شعوبهم بل تاريخ النهضة الإنسانية
فهم رابليه الفرنسى (١٤٩٠ - ١٥٥٠) وسرفانتيس الأسباني (١٥٤٧-١٦١٦)
أما الثورة الفرنسية فقد قدم لها ومهد المصلحون الساخرون وعلى رأسهم
فلتير ١٦٩٤ - ١٧٧٨ .

٢ - فى الأدب الغربى :

وللسخرية عندهم فى نقد المجتمع القدح العلى : فها هو بترونيس ينقد المجتمع
الرومانى ، ويحذو حذوه فى القرون الوسطى رابليه وسرفانتيز ، وقد حاول
الآخر استئصال فكرة « الفروسية » التى كانت مهيمنة على أوروبا فى ذلك
الحين ، وينهج نهجه بطل الذى سخر من التزمتمين ، ورينيه الفرنسى الذى كان
يسخر من الذين يعنون بقواعد اللغة والعروض عنايه تطفئ على الموضوع ،
أما مواييز فقد أثار صور المجتمع التى مادته عصره : كتمتع النساء ،
والبنخل والنفاق ، والأطباء وغيرهم . وأخيراً يطل علينا من عل شيخ الساخرين
الاجتماعيين « شو » الذى نصب نفسه لهدم أكثر التقاليد البالية ، فكانت
اسخريته غاية هى إصلاح المجتمع .

وعرفنا تماماً سبق أيضاً بعض صور السخرية التى يتبعها الساخرون
كمحاكاة الأمور الجدية بطريقة هازلة لإحالتها إلى صور مضحكة عابثة ،
وكالشعر الجامى الساخر Mock Heroic والتعريض . ورسم الصور للمضحك
والمبالغة فيها أو فى عضو ما من أعضاء الجسم .

وكانت السخرية إما منظومة وإما في قالب مقالات أو قالب قصص أو مسرحيات أو قصصا خيالية مبتدعة كما رأينا عند «لوشيان» الذي تخيل وصف رحلة إلى القمر، وتصور قتالا بين أهل الشمس وأهل القمر، أو كما تخيل «بوالو» معركة تنشأ بين رجلين حول شيء تافه : «منصة الخطابة» ، وكما حذا حذوه «بوب» في «اغتنصاب الخصلة» ، وأخيرا كما سلك صمويل بتلر في أريون ، أو جوناثان سويت في «رحلات جلغر» ، أو لافونتين في خرافاته . وإلى جانب القصص الخيالية ، تنبض القصص الواقعية التي يحاكي الحياة بأحداثها كما جاء في «كنديد» لفولتير ومسرحيات موليير وبرناردشو .

وقد اتخذ بعض الكتاب من السخرية مادة خفيفة تشيع في كتابته بين الحين والحين كالملاح يصلح القليل منه الطعام ولا يقصد إليها قصدا بل تظهر في ثنايا جملة من غير تعمد ، والبعض الآخر قد ركب شيطانها وطغت عليه حتى كان في أغلب كتابته أو مؤلفاته ساخرا ، وكأنما قد أصبحت مادة أسيلة في دمه وفي عقله الباطن . أما الفريق الأول فمنهم لى ساج .

وأما الفريق الثاني فيتقدمهم رابليه الذي كان يقول إن الفكاهة والسخرية هما وحدهما السبيل إلى نجاة العالم وتخليصه من شوائبه ، ولذلك يطاق على هذا المذهب «المذهب البانتاجريلى» نسبة إلى مؤلفه العظيم ، ومن أئمة فولتير وسويت وشو الذى نظر إلى العالم بأجمعه تلك النظرة الساخرة ففلسفها بقوله : «والدنيا إحدى نكات الله» .

وهكذا يمكن أن نفرق بين نوعين من السخرية من ناحية السك - إذا سمح لنا التعبير الأدبي بذلك - أما من ناحية السكيف : فقد اختلفت درجة السخرية عند الكتاب : فكانت عند بعضهم خفيفة رقيقة هادئة ، وعند بعضهم الآخر قاسية عنيفة لا ترحم ، فمن النوع الأول كان (١) باسكال في

في خطابات الريفية ، وأوستن Jane Austen ١٧٦٥ - ١٨١٧ ، ولي ساج Le Sage ١٦٦٨ - ١٧٤٧ ومن النوع الثاني جوستاف فلوير .

وانستطيع أن نميز أيضا بين سخرية ضاحكة مستبشرة متفائلة يحيطها الكاتب بسياج من الفكاهة وهي الصفة الغالبة على أكثر الكتاب الأمر بكتيبن الساخرين مثل واشنطن أرفنج ومارك توين ، وهناك مثل آخر من الأدب الألماني هو جوزيف فكتور فون سيفل ١٨٢٦ - ١٨٨٦ مؤلف Ekhird . ومن الأدب الفرنسي بروسيير مريمى ١٨٠٣ - ١٨٧٠ والسخرية الأخرى التي تقابل ذلك هي السخرية الجادة الرزينة المتشائمة كما ظهرت عند سويغت .

وانستطيع أن نميز بين السخرية السطحية التي يدركها القارئ العادي في عجلة ودون حاجة إلى إعمال الفكر وبين السخرية العميقة التي تعمق فطنة القارئ العابر وأغلب الكتب ينظمهم النوع الأول وهم فريق يعملون على اجتذاب القراء إلى استساغة سخريتهم وإلى الوصول إلى غايتهم ومأربهم من أقرب سبيل .

أما النوع الثاني فيشتهر من بينهم صمويل بتلر ، ولذلك قال عنه النقاد « ولذلك لم يظهر بأعجاب عامة القراء ولم يعجب به إلا الخاصة المثقفة » . ومع ذلك فلا نستطيع في كثير من الأحيان أن نعثر على كاتب يتخصص في نوع واحد من الأنواع السابقة أو تغلب على سخريته صفة واحدة ، بل لأن الكاتب ربما استخدم هذا النوع أو ذاك وفقا للوضوع الذي يكشف فيه ، أو وفق الحالة النفسية التي تسيطر عليه في أثناء كتابته . وعلى كل فافتي . كثير من الكتاب ينغم أدهم بأكثر هذه الأنواع ، وما هي إلا درجات مختلفة متفاوتة لا يميز بينها إلا خط دقيق ليس من السهل على اللغة أن تصوره .

وقد تأثر كثير من الكتّاب الآخرين بظروف حياتهم أو تكوينهم الخلقى أو الخلق والنفسى فصبغ حياتهم بصبغة السخرية ، وصبغ سخرتهم بصبغة ما : فالكتّاب الرومانى جوفينال كان مورتورا ، عانى فى نشأته الأولى كثيرا من الاستخفاف والاحتقار ، حين اضطره فقره إلى الاعتماد على بعض السادة من الأغنياء يفتىء إلى ظل حمايتهم ، وينال عطاءهم لقاء شعره ، وتد علم أن له من المواهب والذكاء ما يفضل به هؤلاء السادة الذين يتفضلون عليه بما يقيم أوده ، فترك ذلك فى نفسه مرارة لا ذعة .

وكذلك كان جونسون سقيما فى طفولته ، طالما عانى من الأمراض الرمدية أما جسمه فقد اصطلحت عليه الأمراض العصبية والتشنجية ، وكان يوب سقيما وكانت حياته - كما ينعته - مرضا طويلا : فقد كان عاجزا عن أن يرتدى ملابسه بغير مساعدة ، وكان شديد الحساسية بالبرودة إلى حد أنه كان مضطرا إلى أن يلبس نوعا مزدوجا من الفراء تحت قميصه السميك وكان أحد جنبيه متقلصا ، وانحول ساقيه كان يضطر إلى لبس ثلاثة أزواج من الجوارب لا يستطيع ارتداؤها إلا بمساعدة ، وكان ينتابه مع ذلك صداع منهك يحطم ما بقى من قواه ، وقضى بعد وفاة أمه حياة مقفرة لأنه لم يتزوج . أما جى دوموياسان الكتّاب الفرنسى الكبير فكان متشابها سرى المزاج ينظر إلى الحياة بمنظار أسود ، وقد مات مصابا بالشلل وهو لم يزل فى مهجة الشباب (١٨٥٠ - ١٨٩٣) . وكان هاينى متشابها النظرة ، وقد خاب فى حبه وكان - على حد تعبير أحد النقاد - فى شعره بمثابة من يترك مع الحياة اعتراكا : وبما كان مصدره مرض أعصابه الذى انتهى به آخر الأمر إلى شلل ألزمه الفراش ، وقد أطلق على فراشه إذ ذاك « قبرا من حشايا » ، وكذلك كان صوره الألمانى جوزيف فكتور فون شيفيل قلق النفس ناقصا متشابها . وكان فواتير - الذى يصنع أئمة الساخرين فى العالم أجمع - ضعيف الجسم ، وكلت له

من هزال جسمه ما أكسبه مزاجا حادا عنيفا. وعله لا تنقطع أسبابها حتى نيف على الثمانين وهو يشكر شكوى متصلة من ضعفه الذى يشرف به على الهلاك.

وكذلك كانت حياة سويقت فقدا نشأ يتيم وضاق ذرعا بالحياة فى كنف عمه ومن كان يعمل تحت إمرة ، ولم ينل مأربه أو ما يكافئه نبوغه وقضى الأعوام السبعة عشرة الأخيرة من عمره فى وحشة ويأس من الحياة شديد .

ونستطيع أن نعدد أمثلة أخرى فنضرب المثل ببرناردشو ومارك توين ، أى أن الألم هو المنبع الأصيل - فى أغلب الأحيان - للسخرية .

وعرفنا مما سبق أيضاً أن بعض الساخرين كانوا يهاجمون - بسخريتهم أشخاصا معينين خصوما لهم أو أعداء كما سلك جون دريدن مع الذين حقدوا عليه بسبب تنصيبه أميراً للشعراء .

وهناك آخرون كانوا يحاولون مهاجمة عيوب المجتمع ويحاولون إصلاحها ، وأهل زعيمهم فى ذلك مريير وبرناردشو . وأخيراً أدركنا فائدة للسخرية وأثرها فى المجتمع الأوروبى وإلى أى حد طغى تأثيرها كما فعل سيرفانتيز فى أسبانيا بل فى أوربا كلها ، وشارل ديكنز فى إنجلترا ، بل ليس بخاف علينا ما فعله كتاب المسرحية إبان احتلال الألمان فرنسا فى الحرب العالمية الثانية وكيف بثوا بهاروح المقاومة وأشعلوا الوطنية الصامدة .

• • •

٣ - فى الأدب الجاهلى :

وإذا حاولنا دراسة السخرية ، فى الأدب العربى فيحسن بنا أن نلتزم المنهج التاريخى فنبدأ بالبحث عنها فى الأدب الجاهلى : نبحث عن الألفاظ التى تدل على السخرية ، وعن الشواهد التى تبين سخرية الجاهليين .

أما الألفاظ التي تدل على معنى السخرية فقد نثرت في الأدب الجاهلي، وأوردتها معاجم اللغاة دون العناية بإيراد الشواهد التي تجلو دلالاتها، وقد قرأت أغلب المصادر ووثقت منها موقف الشحيح ضاع في الترب خاتمه على أهتدى إلى مقدار كاف من الشواهد ، فلم أعتز إلا على هذا الأمثلة :

قال عبيد بن الأبرص: (١)

وساخرة منى ، ولو أن عيناها رأت ما رأت عيني من الهول جنت
أبيت بسعلاة وغول بقفرة إذا الليل وارى اللحن فيه أرنت

وقال عبد المسيح بن عسلة العبدى (٢) :

فأما أخو قرط - ولست بساخر - فقولاً له : يا اسلم بكرة سالما
وقال الراعى النخري (وهو الذى عاش فى بيئة شديدة القرب من البيئة
الجاهلية : (٣)

تغير قومي ولا أسخر وماحم من قدر يقدر
وبلفظ : تهكم ، قال عامر المحاربى : (٤)

يغنى حصين بالحجاز بناته وأعبي عليه الفخر إلا تهكما
وقال حسان يحرش بنى أبي البراء على عامر بن الطفيل (٥)

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ / ٧١

(٢) المفضلية رقم ٨٣ ص ٦٠٧

(٣) اللسان ، وأساس البلاغة مادة سخر : وكذلك شرح ديوان زهير ص ٩٧

(٤) المفضلية ٩١ ص ٦٢٩

(٥) الطبرى ٢ : ٢٢١ - وادع سنة ٤ هـ

بنى أم البنين لم يرعكم وأنتم من ذوائب أهل نجد
تمكم عامر بابي براء لينخفزه ، وما خطأ كعمد

وذكر الزمخشري هذا الشاهد في أساس البلاغة : (١)

تمكم عمرو على جارنا وألقى عايه له كلكلا

وبلفظ. الهزء قال عبد الله بن سلمة الغامدي (٢)

على ما أنها هزئت وقالت هنون ، أجن ؟ منشأ ذا قريب

وبلفظ الضحك ، قال عبد يغوث (٣)

وتضحك مني كهلة عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا

* * *

أما الأمثلة التي قدل على سخرية الجاهليين ، فهي قليلة عثرت منها على
هذه الأبيات :

فن ناحية الاستخفاف ، قال امرؤ القيس - لما فرقت بنو نهان عليه
فرقا من معزى يحلبها أنشأ يقول تنديدا واستخفافا : (٤)

إذا ما لم تكن إبل فعزى كأن قرون جلتها العصي

إذا ما قام حالها أريت كأن القوم صبحهم نعي

(١) أساس البلاغة ٢ - ٥٥٠ هـ - كم

(٢) الفضليات ١٠٣

(٣) النقاوض ص ١٥٢ - ١٥٣

(٤) ديوان امرئ القيس طبعة السندوبي ص ١٨

وقال قريظ بن أنيف المزني يتهكم بقومه : (١)
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السرور إحسانا
كأن ربك لم يخلق الخشب - سواهم من جميع الناس إنسانا
وقال الجميع : (٢)

فدى لسلي ثوباي إذ دنس الب قوم وإذ يدسمون ما دسموا
قال ابن الأنباري : وتفديته أمهم استهزاء بها وبهم .
تسجد بالدرع والخمار فلا تخرج من جوف بدنها الرحم
وقال زهير :

فتغل لكم مالا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم
قال يعقوب : هذا تهكم وهزل . وقال (٣) الأصمعي : وهذا تهكم منه أي
استهزاء (٤)

ولا يمكن الاستدلال من هذه الأمثلة القليلة على الألوان أو أساليب
السخرية التي امتثرت في الأدب الجاهلي ، وكذلك لا يمكن القطع بأن السخرية
كانت لديهم قليلة أو ضعيفة ، ولكنها ضاعت مع هذا الشعر وهذا التثر الذي
ضاع ولم يصلنا منه إلا القليل ؛ كما قال عبد الصمد بن المفضل الرقاشي :
ما تكلمت به العرب من جيد المنشور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون :
فلم يحفظ من المنشور عشرة ، ولا ضاع من الموزون عشرة . (٥)

(١) الحماسة ص ٤ ، ٥

(٢) المفضليات ص ٤١

(٣) المعلقات العشر للتبريزي دمعقة زهير ،

(٤) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٦١

(٥) البيان والتبيين ٢ / ١٥٨

٤ - السخرية في عصر النبوة :

أما في عصر الرسول : وفي أثناء المعركة الهائلة التي نشبت بين الإسلام والوثنيين المشركين ، فقد استخدمت السخرية غالبا من جانب المشركين لأنهم المنهزمون عقليا وروحيا ، فاستخدموا هذا السلاح مع ما استخدموا من أسلحة أخرى - ضد الرسول ، ولا شك أنه لو عني أحد بتدوينها لوصلنا منها الكثير .

فيروى ابن هشام صاحب السيرة : أن الإراشي لما طالب من بعض القرشيين أن يعينوه على رد إله ، أشاروا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يزأرون به ، لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة ، وقالوا : اذهب إليه فإنه يؤدبك عليه ^(١) ، وكان الرسول (ص) إذا جلس في المسجد فجلس إليه المستضعفون من أصحابه : خباب وعمار وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية ، وصهيب وأشباهم من المسلمين ، هزئت بهم قريش ، وقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟؟ لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصهم الله به دوننا ^(٢) .
وذكر الرسول (ص) بالوليد بن المغيرة وأمية بن خلف ، وأبي جهل بن هشام فهمزوه واستهزؤوا به فغاضه ذلك فأنزل الله تعالى عايه في ذلك من أمرهم : ولقد استهزى برسلك من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ^(٣) . ولما تمادى المستهزئون في الشر ، وأكثروا بالرسول

(١) السيرة - لابن هشام ٢ / ١٥٠

(٢) المرجع السابق ٢ / ٣٣

(٣) السيرة لابن هشام ٢ / ٣٦ والآية العاشرة من سورة الأنعام

الاستهزاء ، أنزل الله دفاصدا بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ، إنا كفيئناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر فسوف يعلمون ^(١) .

وكان المنافقون يحضرون المسجد فيسمعون أحاديث المسلمين ويستخرون ويستهنئون بدينهم ^(٢) وتروى قصة في كتب التفسير عن عبد الله بن أبي وأصحابه ، تدل على هذا الاستهزاء . أولها : خرجوا ذات يوم ، فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله (ص) فقال عبد الله بن أبي : انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم : فأخذ بيد أبي بكر فقال : مرحبا بالصديق سيد بني تيم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في المغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ، ثم أخذ بيد عمر ثم علي وأخذ يمدحهم تماجنا وسخرية بهم كما فعل مع أبي بكر ، ولذلك نزلت الآية : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم ، قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون » ^(٣) .

وكان أمية بن خلف قد أجمع التهود ، وكان شيخا جميلا جسيما ، ثقيلا ، فأتاه عقبة بن أبي معيط ، وهو جالس في المسجد بين ظهراي قومه ، بمجرة يحملها ، فيها نار وبجر ، حتى وضعها بين يديه ثم قال له : يا أبا علي ، استجمر فإنما أنت من النساء ، قال : قبحك الله وقبح ما جئت به . قال : ثم تجهز فخرج مع الناس ^(٤) .

وبينما كان المسلمون متوجهين لبدن ، لقوا رجلا من الأعراب ، فلما قيل

(١) المرجع السابق ٢ / ٥٠ والآية ٩٥ من سورة الحجر .

(٢) المرجع السابق ٢ / ٢٦٥ .

(٣) تفسير الكشاف ١ / ٢٨ سورة البقرة .

(٤) السيرة النبوية ٢ / ٢٨١ .

له : سلم على رسول الله ، قال للرسول : إن كنت رسول الله فأخبرني عما في بطن ناقتي هذه !

فقال له سلمة بن سلامة بن وقش ، : لا تسأل رسول الله وأقبل على فانا أخبرك عن ذلك : نزوت عليها ، ففني بطنها منك سخلة . فقال له الرسول (ص) ، مه أفحشت على الرجل ^(١) .

* * *

من الأمثلة القليلة التي ذكرنا آنفا ، نستشف أنه كانت هناك سخرية ملغى عصر النبوة ، وانكبتها لم تصل إلينا ، وضاع معظمها ، قال زكي مبارك في أثناء مناقشته فكرة وجود نشر في الجاهلية : « بل إنى لأذهب أبعد من ذلك فأقرر أن الحركة الأدبية والسياسية والاجتماعية في عهد النبوة لم تصور إلى الآن بصورتها الحقيقية ، فهذا رجل غير أمة كاملة في عشرين عاما ، واهتيت دعوته آلاف المصاعب . أفيمكن حقا الاقتناع بأنه لم يقل أكثر من عشر خطب ، وأن أنصاره لم يقرلوا من الخطب والرسائل إلا ما نقله عنهم الطبري وغيره من المؤرخين ؟ وأين إذن آثار المعارضة الشديدة التي قامت في وجهه واضطرته إلى الهجرة ؟ وأين السنة اليهود والعرب والأشراف من قريش ؟ أفيعقل أن تمر دعوة كهذه من دون أن تهب في وجه صاحبها السنة الخطباء وأقلام الكتاب وشياطين الشعراء ؟ وهل يعقل كذلك أن يصبر رجال الوثنية والنصارى واليهود على التهم المختلفة يلقونها عليهم النبي وأصحابه من دون أن يقابلوا الشر ^(٢) بالشر والعدوان بالعدوان فيطيلوا القول في النفع عن دياناتهم ، وللقبح في الديانة الجديدة التي تهاجمهم في عقيدتهم ،

(١) السيرة لابن هشام ٢ - ٢٦٥ .

(٢) زكي مبارك : النشر الفني ١ - ٥٠ .

وخصرهما أن القرآن وصفهم بأنهم أدل فصاحة وجدل وخصومة وعناد^(١) :

ولاشك أن المؤرخين والنيورين ، قد تعمدا طمس هذا الجدل والمناخفة والدفاع من جانب المشركين ، يدل على ذلك قصة عمر مع عيينة الغزاري حين سأله عن عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة إذ كان حكما بينهما في المنافرة : أيهما أفضل ، فأبى تفضيل أحدهما على الآخر أمام عمر قائلا : لو فضلت أحدا على الآخر الآن لقامت الحرب جذعة .^(٢)

وكذلك بما يدل على ضياع تاريخ المشركين والمعادين للإسلام ، أن بعض الشخصيات المناوئة ، قد وصلت إلينا صورتها مشوهة بسبب الكفر ، أو عدم اعتناق الدين الجديد ، كعبد الله بن أبي الذي كنت أتخيله مرائيا ذا شخصية ضعيفة جبانا بعيدا عن العقل والحكمة ، ولما قرأت قول الجاحظ عنه :

« وكان عبد الله بن أبي - قبل نفاقه - نسيج وحده لجودة رأيه وبعد همته ، ونبل شيمته ، وانقياد العشيرة له بالسيادة والسعادة وإذعانهم له بالرياسة ، وما استوجب ذلك إلا بعدما استجمع له ألبه ، وتبين لهم عقله ، واقتدوا منه جملة ، ورأوه لذلك أهلا » ولقد خطب النبي (ص) بالمدينة ، فشكاه إلى الأنصار ، فقالوا : يا رسول الله : لا تله فقد كنا عقدنا له الخرز قبل قدومك لتوجه ،^(٣) لما قرأت ذلك تغيرت نظرتي أو تصوري له وما كنت قد كونته عن شخصيته الحقيقية العامة قبل نفاقه .

ولاشك أن هؤلاء الذين حاولوا تقليد أسلوب القرآن قد سلكوا هذا

(١) زكى مبارك : النثر الفنى ١ / ٥٠

(٢) الآمال ١ / ٥٤

(٣) مجموع رسائل الجاحظ (طبعة الساسي ١٩١٠) ص ١٥

(م ٥ - السخرية)

المسلك أو فعل بعضهم ذلك على الأقل - وهم عارفون بقوته وجلاله -
تماجنا وسخرية من أسلوبه الجديد، وصرفا للناس عنه بمحاولتهم إضحاكهم منه.

إذن لا بد أنه كانت هناك سخرية في الجامعة والإسلام، ولكنها ضاعت
مع ماضع من الآثار الأدبية شعرا ونثرا لأسباب أهمها شيوع الأمية،
وقلة التدوين ومخالفة ذلك النثر للحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام، ودونها
القرآن، ومع ذلك فالغالب أن تلك السخرية لم تكن تسيطر على تعبيرهم الفني
أو تتغلغل فيه كثيرا لسببين هامين :

أولهما أن الساخر - في العادة - غير صريح التعبير، يقول شيئا
ويقصد عكسه، وذلك - غالبا - لخوفه من السخرة كما في أيام الكبت
السياس أو الاجتماعي، كخوف الصبي من هم أكبر منه كالمعلمين، فإذا أدار
له المعلم ظهره سخر منه، ولذلك فهو يعبر عن غضبه بأسلوب من التعبير غير
مباشر أو بطريقة ملتوية، والعرب لا يعرفون إلا الصراحة في التعبير، وعدم
الخوف، لدرجة أن أحدهم قد قال بكل جرأة للنعمان حينما طلب فرسه :

أبيت اللعن إن سكاب علق نقيس لا يعار ولا يباع

وكذلك فقد رفض النعمان تزويج بنته لكسرى ملك فارس حينما أرسل
إليه في ذلك ورد عليه بدون مواربة قائلا : أما في عين السواد ما يغني عن
بنات العرب ؟ أما المرأة فقد ردت على عمر حين أراد تحديد المهور على المنبر
وأختمته بآية قرآنية جعلته يتراجع ويقول : أصابت امرأة وأخطأ عمر .
وقد أراد عمر بن الخطاب منع حسان من إنشاد الشعر، فرد هذا عليه - مع
ما لعمر من هيبة معروفة مشهورة : اسكت فوالله لقد كنت أنشد هذا الشعر
من هو خير منك - يقصد رسول الله ﷺ - فما كان يعترض .

من هذا يتبين ميل العرب -- تلك الأمة الصحراوية التي لا يقيدتها قيد اجتماعى أو سياسى فى الجاهلية -- نقبين ميلهم إلى الصراحة ، ولذلك كانوا أسرع الناس إلى الهجاء بالسب والقذف ، أو بتسديد سهامهم مباشرة من غير خوف أو وجل أو ترث ، وما فعله جساس بكليب وانتقامه منه قاتلا لخالاته البسوس ، ساقطل جملا كبيرا ، ما فعله وما أودعه من حرب ضروس ليس بخاف علينا. ونرى مصداقا لذلك أن أغلب الشعر الجاهلى -- الذى وصلنا -- فى حالة الغيظ والحنق -- لا يعبر عن نفس المغيظ إلا بمثل أبيات عنقرة ، التى يمكن أن تكون النمط الأغلب للشعر الجاهلى :

ناديت عبسا ، فاستجابوا بالقنا وبكل أيض صارم لم ينحل
حتى استباحوا آل عوف عنوة بالمشرقى وبالوشيج الذبل

ولذلك أطلق أبو تمام على مختاراته ديوان الحماسة ، إذ أنها الصفة الغالبة على الشعر الجاهلى .

والسبب الثانى الذى أرجع إليه عدم سيطرة السخرية على الهجاء وتغلغلها فيه هو تأثر العرب السريع ، ولا بد للساخر من أن يكون متحكما فى انفعاله ولو إلى حين ، ولأمر ما حاول النبي (ص) اتزاع هذا الخلق فقال فى ذلك عدة أحاديث منها : « ليس الشديد بالصرعة ، وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » ، وقد قال برجسون مشيرا إلى ذلك « اللامبالاة هى وسط المضحك الطبيعى ، وألده أعدائه الانفعال » .

إذن كانت هناك سخرية فى العصر الجاهلى والإسلامى ، ولم تكن هذه السخرية عميقة ، بل كانت خفيفة بسيطة بساطة نفسية الجاهليين ، سهلة تبعها لحياتهم غير المعقدة ، خفيفة الوقع ، لاتعدو السخرية الفطرية التى تؤثر عن أناس متأخرين يكتبون باللحمة والتعريض دون الإلحاح فى السخرية والتنويع والتفنن فى أساليبها الموجهة .

ونستطيع أن نذكر في ذلك قول الخطيئة لأبي بكر ساخرأ منه في حرب الردة:

أيورثها بكرأ إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
أو استهزاء العرب بأبي بكر ونعتهم إياه « بأبي الفصيل » ، ولذلك رد
حسان عليهم قائلا :

ما البكر إلا كالفصيل وقد ترى أن الفصيل عليه ليس بعار
وقال حسان هازئاً بجذام :

لعمر أبي سمينة ما أبالي أنب التيس أم نطقت جذام
إذا ما شاتهم ولدت تنادوا أجدى تحت شاتك أم غلام ١٩
وأخيراً أذكر تهكم الخطيئة بعتيبة بن النحاس العجلي الذي كان يبخل وقال له
إنه أشعر الشعراء فقال : ما أنا بأشعر العرب. (وذلك لكي يفاجئه بعد ذلك).
فقال عتيبة : فمن أشعر العرب ؟
قال : الذي يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم
فقال له عتيبة : أما إن هذه الكلمة من مقدمات أفاعيك (١) .

وبعد ، فلعل في تلك العجالة السابقة ما يمكن أن نرد به على المستشرق
مرجوليوت والاستاذ محمد خلف أحمد إلى الصواب : إذ زعم الأول أن
الأدب العربي يخلو من الفكاهة والسخرية، وأيده الثاني بعض التأييد (٢). قال:
د . زكي مبارك : « وليس بمعقول أن يكون لتلك الأمم ثرفتي قبل الميلاد بأكثر
من خمسة قرون، ثم لا يكون للعرب ثرفتي بعد الميلاد بخمسة قرون، كأن العرب
انفردوا في التاريخ القديم بالتخلف في ميادين العقل والمنطق والخيال ، (٣) .
وما أسلوب السخرية إلا أحد أساليب النثر الفني الذي تكلم عنه الدكتور زكي مبارك.

(١) ديوان الخطيئة ٣٢٩ .

(٢) دراسات في الأدب الإسلامي : لمحمد خلف الله أحمد (لجنة التأليف

سنة ١٩٤٧) ١٣٨ - ١٤٨ .

(٣) النثر العربي : زكي مبارك ١ / ٥٠ .

السخرية في القرآن الكريم :

إذا أردنا أن نبدأ حقاً بدراسة النثر العربي بعامة ، وما نحن بصده
بخاصة ، فأقدم أثر فني يمكن أن ندرسه فيه هو القرآن الكريم ، وقد استدل
المرحوم الدكتور زكي مبارك بالكتاب الكريم على وجود أثر فني قبل
الإسلام ، فكان لهم - أي للعرب - بذلك وجرد أدبي متين قبل أن
يتصلوا بالفرس واليونان ، (١) .

وقد ظهرت أصداء تلك المعركة التي قامت بين النبي ﷺ والمشركين في
آيات الكتاب الكريم ، ونستطيع أن نلتمس طرفاً مما نحن بصده - أعني
الكلام عن السخرية - فيما جاء به رداً على ما كان يفعله هؤلاء المشركون ،
ولكن في الحدود التي رسمها القرآن الكريم منهاجاً له والأغراض المحضة
التي نزل من أجلها ، وبالأسلوب الذي يتناسب وعظمة الخالق جل وعلا ،
فهو ليس كتاباً فنياً محضاً نزل لغرض فني بحت ، بل غايته دينية أخلاقية ،
فإذا استعان بالألوان الفنية المختلفة من الأسلوب ، فهو استخدام يملأه الوقار
الإلهي الذي ينأى به كل النأي عما يقع فيه البشر من خفة وجهل .

وليس القرآن الكريم أول كتاب ديني وردت فيه معاني السخرية وألفاظها
بل نجد التوراة من قبل تستعمل ألفاظ الضحك والاستهزاء بمعنى السخرية
كما في الجملتين : « الساكن في السموات يضحك » ، « الرب يستهزئ بهم » .
وجميع الشواهد الواردة تنحى على المستهزئين باللائمة ، لأنهم يستكبرون
ولا يصدقون : (٢) .

(١) المرجع السابق ١ / ٤٣ .

(٢) عباس محمود العقاد : مقدمة جحا الضاحك المضحك ، الطبعة الأولى ص ١٠٠ .

وقد وردت « السخرية » في القرآن الكريم بالفاظ : « الهزء » والاستخفاف والضحك والسخرية : الأولى في أكثر من خمسة عشر موضعاً والاستخفاف في الآية (٤٤) من سورة الزخرف ، والضحك بمعنى السخرية في أربعة مواضع ، وبلغظة « السخرية » في أربعة عشر موضعاً ، وكلها تدور حول استهزاء الكفار بالنبي ﷺ ، أو بالأنبياء السابقين ، وإنذارهم بأوخم العواقب وأسوأ العقاب بسبب ذلك : (قل أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزون ،) . (١)

وكان النبي ﷺ يضيق بفعل الكفار ، فيضرب الله الأمثال بمن سبقه من الأنبياء ومسللك الكفار إزاءهم كما يفعلون معه :

« ولقد استهزى به رسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزون ، » (٢) « ذلك جزاؤهم بما كفروا ، واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ، » (٣) « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، » . (٤) « فلما جاءهم بآياتنا ، إذا هم يضحكون ، » . (٥) « وينكر سخريتهم بالصلاة : « وإذا ناديتهم إلى الصلاة ، اتخذوها هزوا ولعبا ، » . (٦)

ولاشك أنهم كانوا يحاولون تقليد الصلاة بحركات مختلفة مسخرية بالمؤمنين ، وضحكاً منهم :

(١) التوبة آية ٦٥ .

(٢) الأنعام آية ١٠ .

(٣) الكهف آية ١٠٦ .

(٤) هود آية ٣٨ .

(٥) الزخرف آية ٤٧ .

(٦) المائدة آية ٥٨ .

« فيقولون من يعيدنا ؟ قل : الذى فطركم أول مرة ، فسينخضون إليك رؤوسهم ، ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريباً ، (١) »
 « وإذا ما أنزلت سورة : فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيماناً ، (٢) »
 ولكن الله تعالى يؤكد لرسوله - لفرط شعوره بالضيق والغضب - أنه تعالى أقوى منهم ، ولا بد أنه منتقم أشد انتقام : « إنا كفيناك المستهزين ، (٣) »
 ثم يذكر سبحانه وتعالى علاج سخريتهم بأخرى مثلها :
 « فيسخرون منهم ، سخر الله منهم ، ولهم عذاب أليم ، (٤) »
 « الله يستهزئ بهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون ، (٥) »
 « قال : إن تسخروا منا ، فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، (٦) »
 ويصور حال الساخرين في يوم القيامة ، وتحسرهم على فعلهم بالمؤمنين وسخريتهم : « يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله ، وإن كنت لمن الساخرين ، (٧) » ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ، واتخذوا آياتى ورسلى هزواً ، (٨) »
 ويدكر انقلاب فعلهم عليهم ؛ إذ أن المؤمنين سوف يشفون منهم بمعاملتهم بالمثل ، وذلك إراحة للمؤمنين المحنقين بما فعل بهم في الدنيا :

(١) الإسراء آية ٥١ . قال البيضاوى فى تفسيره (طبعة صبيح سنة ١٩٢٦) :
 ينخضون : يعركونها تحرك تعجباً واستهزاء (ص ٤٠٤) .

(٢) التوبة آية ١٠٤ : قال الزمخشري فى الكشاف ١ / ٤١٥ : فمنهم من يقول
 إلخ الآية إنكار واستهزاء بالمؤمنين واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل
 بالوحى والعمل به .

(٣) الحجر آية ٩٥ .

(٤) الآية ٧٩ من سورة البقرة .

(٥) الآية ١٥ من سورة البقرة .

(٦) الآية ٣٨ من سورة هود ، والقول على لسان نوح عليه السلام .

(٧) الآية ٥٦ من سورة الزمر .

(٨) الآية ١٠٦ من سورة الكهف .

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون، »^(١) ، فالיום الذين آمنوا كانوا من الكفار يضحكون، »^(٢)

. . .

وإذا عرفنا مقدار وقع السخرية على الأنفس ، وشدة فتسكها بالإنسان ، أدركنا السر الذي يكمن وراء تهديد الكفار بمثل السلاح الذي آذوا به المؤمنين ، ليكون ردعاً لهم ، ولذلك فليس بمستغرب - في رأينا - نسبة فعل السخرية إلى الله سبحانه وتعالى (حقيقة لا مجازاً) كما ظن بعض المفسرين. ومحاوتهم تأويل آية البقرة : « الله يستهزئهم ويمدحهم في طغيانياتهم يعمهون »^(٣) بأن المعنى عقاب ما ، ثم يحاولون تأويل هذا العقاب ، في حين أن الله سبحانه وتعالى قد هدد فعلاً بالسخرية بهم في الآخرة^(٤) ، كما فعلوا هم في الدنيا ، وهذا أنكى عقاب .

والذي دفعهم إلى هذا شيئان : أولهما تنزيه الله سبحانه وتعالى عن السخرية التي هي في نظرهم مرادفة للعبث واللعب ، وثانيهما آية الحجرات التي نهي الله تعالى فيها عن السخرية بقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم . . . »^(٥)

(١) الآية ٢٩ من سورة المطففين .

(٢) الآية ٢٤ من سورة المطففين ،

(٣) الآية ١٥ من سورة البقرة ، وجاء في تفسير البيضاوي (طبعة صبيح

١٩٢٦ م) ص ١٣ . . وأما في الآخرة فبأن يفتح لهم - وهم في النار - باباً إلى الجنة فيسرعون نحوه ، فإذا صاروا إليه سد عليهم الباب ، وذلك قوله تعالى : فاليرم الذين آمنوا من الكفار يضحكون

(٤) الآية رقم ١١ من سورة الحجرات .

(٥) تفسير الطبري (تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر) ١ / ٣٠٣ .

أما من ناحية التنزيه فقد رد أبو جعفر الطبري بقوله : « أما الذين زعموا أن قول الله تعالى ذكره : « الله يستهزئ بهم » ، إنما هي على وجه الجواب ، وأنه لم يكن من الله استهزاء ولا مكر ولا خديعة ، فنافون عن الله عز وجل ما قد أثبتته عز وجل لنفسه ، وأوجبها لها ، وسواء قال قائل : لم يكن من الله جل ذكره استهزاء ولا مكر ولا خديعة ولا سخرية بمن أخبر أنه يستهزئ ، ويسخر ويمكر به ، أو قال : لم يخسف الله بمن أخبر أنه خسف به من الأمم ، ولم يفرق من أخبر أنه أغرقه منهم ، ويقال لقائل ذلك : أن الله جل ثناؤه أخبرنا أنه مكر بقوم قضوا قبلنا لم نرهم ، وأخبر عن آخرين أنه خسف بهم ، وعن آخرين أنه أغرقهم ، فصدقنا الله تعالى ذكره فيما أخبرنا به من ذلك ، ولم نفرق من شيء منه ، فما برهانك على تفريقك ما فرقت بينه ، بزعمك : أنه قد أغرق وخسف بمن أخبر أنه أغرقه وخسف به ولم يمكر بمن أخبر أنه قد مكر به ؟ ثم انعكس القول عليه في ذلك ، فلن يقول أحدهما شيئاً إلا ألزم في الآخر مثله ، ... »

« ويجب أن يفرق بين معنى اللعب والعبث ، والهزاء والسخرية ، والممكر والخديعة ، ومن الوجه الذي جاز قيل هذا ، ولم يحز قيل هذا ، اختلف معنىهما : فعلم أن لكل واحد منهما معنى غير معنى الآخر ، . »

وهكذا يرد الطبري على المنكرين على الله الاستهزاء بمن سخر بالدين والنبي ، بعد إيراد عدة آراء لغيره في تأويل الاستهزاء والسخرية ، ولو أنه يفسر الاستهزاء بمعناه الأدبي الفني ، قائلًا : « والصواب في ذلك من القول والتأويل عندنا : أن معنى الاستهزاء في كلام العرب : إظهار المستهزئ للمستهزأ به من القول والفعل ما يرضيه ظاهراً وهو بذلك من قبله وقطعه به مودته مساواة باطناً ، وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر ، وهذا رأي

ابن عباس : ، وبنحو ما قلنا فيه ، روى الخبر عن ابن عباس (١) ، قال ابن سيده ردا على من يحاول تأويل الاستهزاء : وهو عندى خطأ ، إنما نهزأ من الهزء الذى هو السخرى ، (٢) .

* * *

وأقول : كان يمكن للمفسرين أن يوفروا على أنفسهم مشقة محاولة التأويل لو عرفوا دوران مادة سخر ، ورأوا أن لها معنى لا يمكن أن تفسر بغيره وهو الاحتقار اللين غير الظاهر الذى فيه إبهام ، وصفة المواربة والاحتقار والإبهام التى تكمن فى المادة هى التى تعطى للكلمة تلك القوة التى لا توجد فى لفظة « احتقار » ، أو فى طريقة الاحتقار الساخرة أو فى غيرها من الكلمات القريبة الإيذاء .

فلا شك أن قول المشركين : « إنما نحن مستهزئون » فيه إيلام (٣) للنبي صلى الله عليه وسلم — وللمسلمين فكانوا جديرين لردهم عن بغيهم بأن يجازوا بجزاء من نوع فعلهم حتى يعرفوا وقعهم فيردعوا ، كما قال تعالى : « ولستم فى القصاص حياة ، يا أولى الألباب ، فالقاتل إذا عرف أنه لا بد مقتول فسبق قدم رجلا ويؤخر أخرى خوفا من القصاص الذى هو من جنس فعله ، كذلك المستهزء الذى سيسخره الآخر منه : سيفكر كثيرا وسيخشى هذه السخرية لأنه عليم بشدة وقعها على غيره ومدى فعلها بغيره ، وإلا لما استخدمها

(١) تفسير الطبرى ١ / ٣٠٥

(٢) وكلام ابن سيده الذى أورده اللسان / هزأ عن هزأ فى بيت رواء أبو عمرو بن العلاء .

(٣) انظر السيرة لابن هشام ٢ / ٣٦ وما ورد فى فقرة « السخرية فى عصر النبوة » التى تقدمت فى هذا البحث .

سلاحا قاسيا ، فهو قين بالآلة يستعملها هو الآخر كما قال تعالى : د ومكروا
ومكر الله والله خير الماكرين ، وكذلك : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فالله
- سبحانه وتعالى - يجازى بجزاء من جنس الفعل والعمل ، وهذا أشد ردعا
للفاعل وأنكى .

أما كيف يستهزئ الله بهم ، فهذا أشد وقعا عليهم ، لأنه فعل مبهم غامض ،
والغامض محير الإنسان بل هو أشد قسوة عليه من الظاهر ، ألا ترى إلى
التهديد دائما بأشياء واضحة وأشياء غامضة ، مثدا يقول الإنسان إذا فعلت
هذا فسترى ما أفعله بك ، وكما قال جرير :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت ما لم أفعل

فكيف إذا كان التهديد بالاستهزاء من جانب الله سبحانه وتعالى ذى
القوة الجبارة التى لا يمكن أن يتصورها بشر ؟ لا شك أن عقلهم الباطن
سوف تختلط به هذه الصور ، وسوف تلح عليه فى التهويل والمباغة فى
التصوير ، حتى تفرغه .



٢ - أما من ناحية خشية المفسرين من لعبة فعل السخرية ، إلى الله
سبحانه وتعالى وتزيمه عنها ، بسبب آية الحجرات ، أو بسبب ما نوحى به الكلمة
من جهالة ومجون ، فإن الرد عليهم فى هذا أن المقصود بالسخرية المحرمة هو
السخرية بالنقص البشرى الطبيعى الذى لا يد فيه لإنسان أن يصلحه أو أن
يرده : كالسخرية من عضو من أعضاء الجسم ، فهذا مما يؤلم ، ويحول مجرد
المزاح إلى شجار لا تؤمن عقباه ، أما السخرية البانية : كالهزء بالأشياء
أو الحائنين أو لثام الأطباء أو المتصنعين غير السالكين السلوك الطبيعى فى
الحياة ، وأما السخرية من المتكبرين أو المتغطرسين أو الحكام المستبدين ،

فهذا - في ظني - مالا يشكره الدين . ونستطيع أن نذكر - مصداقا وبرهانا -
على ما نقول - بعض أمثلة سحر فيها الله سبحانه وتعالى بعض السحرية كنوع
من العقاب أو الزجر أو الإخافة .

فذكر التهديد بلفظ التبشير بقوله : « بشر المنافقين بأن لهم عذابا (١) »
أليماً ، وذكر الإيعاد بلفظ الوعد بقوله تعالى : « وعد الله المنافقين والمنافقات
والكفار نار جهنم (٢) » وقال تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ، »

وهدد متهمكما بقوله : « وجعل الله أندادا ليضل عن سبيله ، قل : تمتع
بكفرك قليلا ، إنك من أصحاب النار ، (٣) » .

وقال تعالى : « ذق إنك أنت العزيز الكريم ، (٤) » .

وقال تعالى عن الكفار : « فما أصبرهم على النار (٥) » .

وذكر تعالى استهزاء إبراهيم واستخفافه بهم حيث يقول (٦) :

« لجعلهم جذا إذا لا كبيرا لهم لعلمهم إليه يرجعون . . . قالوا : من فعل هذا
بأهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا : سمعنا قتيذكرهم يقال له إبراهيم . .
قالوا . . . فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون ، قالوا : أنت فعلت هذا

(١) الآية ١٣٨ من سورة النساء .

(٢) الآية ٦٨ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٨ من سورة الزمر .

(٤) الآية ٤٩ من سورة الدخان .

(٥) الآية ١٧٥ من سورة البقرة .

(٦) سورة الأنبياء .

بألهتنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ،^(١)

قال الزمخشري : « هذا من معارضض الكلام »^(٢) ، وإطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني ، والقول فيه أن قصد إبراهيم ، لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها في أسلوب « تعريضى » ، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيهم ،^(٣) وقد كنت - فى صباى - أحدث نفسى متعجبا من إجابة إبراهيم ، وكنت أهجس فى نفسى أنها كذب ، ولم أدرك مرماها إلا حين وصلت إلى السن التى تسمح لى بفهم مثل هذه السخرية الخفية التى ربما تخفى على بعض من لا يعطى أو يمنح إحساسا دقيقاً أو فطنة ، وهذا النوع من السخرية هو من أرفع أنواعها : وحسب الإنسان - كما قلت سابقا متجددا عن أنواع السخرية - حسبه أن يتخذ مظهرا ما يغيظ به صاحبه أعنف إغاظة مما يكون أقوى أثرا من الكلام أو وقع الشياط ، وقصة بشار مع زوج خليلته الذى سخر منه تدل على ذلك إذ أخرج الزوج وسخر به سخرية أعنف من الضرب أو الإيذاء ، وهذا الضرر النفسى وهو السخرية أطول بقاء وأعنف أثرا^(٤) . ويؤيد ذلك تلك الحادثة التى ارتكبها بعض التلاميذ مع مدرسهم ساخرين به بوضع فاكهة مستطيلة - مشتقا اسمها من اسمه - فى صندوق الحكك ، ولما اتجه إلى الصندوق لياتى بالحكك ووجد هذا الشيء المبهم فى

(١) انظر ما قاله سيدنا إبراهيم فى حديث الشفاعة فى عمدة القارىء شرح صحيح البخارى ١٩ / ٢٦ وفى ١٥ / ٢٤٧ (طبعة المنيرية) .

(٢) المعارضض جمع معراض من التعريض ، وهو التورية بالشئ عن الشئ . وفى المثل - وهو حديث مخرج - إن فى المعارضض لمدوحة عن الكذب (اللسان مادة عرض) .

(٣) تفسير الزمخشري : سورة الانبياء .

(٤) الاغانى (طبعة دار الكتب المصرية) - ٣ ص ٣٣٤ .

يده فجأة ، فهم السخرية ، وابتسم ابتسامة المغيظ المحنق وقد ذكرت قصة رابعة مشابهة حين الكلام عن أنواع السخرية^(١) .

• • •

ونعود ثانية إلى استخدام سيدنا إبراهيم أسلوب السخرية مع قومه فنذكر آية أخرى شبيهة بالأولى ، يهزأ فيها بالآلهة : « فنظر نظرة في النجوم . فقال : إني سقيم . فتولوا عنه مدبرين ، فراغ إلى آلهتهم فقال : ألا تأكلون . ما لكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضرباً باليمين^(٢) » فها هو يسألهم بطريقة تجاهل العارف ، ويستخدم ضمير المخاطبين مع الأصنام كنوع من السخرية ، ويخاطب الأصنام كأنها عاقل : ألا تأكلون . وزاد من تقوية الأسلوب الساخر قصر الجمل عما يجعل الصوت سريعاً في انتقاله من جملة إلى أخرى ، وكذلك المحافظة على الفاصلة من آية إلى أخرى . . . ، وأكثر من هذا بدؤه نعمة السخرية بادعائه أو قوله : إني سقيم ، كما كان يفعل سقراط تماماً في استخدام أسلوب التجاهل أو كما أسميه : التباله . إنه يخيل إلى أخيراً كأنه حول هذه الأصنام الحجرية إلى حيوانات . قد نفخ فيها الروح - وقد أخذ يعيث بها ، ولم يكفه هذا بل جسد الصورة تجسداً وزعم أنه يحاول أن - يضربها لكي تنطق ، وقد ظن فعلاً - كما قد

(١) وأعتقد أنه لا داعي للإطالة في التخرج من جانب المفسرين ، بل إن هذه السخرية - بما تحتوى عليه من صورة لاذعة - أفسى عليهم مما لو كان قد حطم الصنم الأكبر مع بقية الأصنام .

وهناك إضافة من المفسرين إلى تلك الصورة وهي زعمهم أنه علق الفأس في عنق الصنم الأكبر ويرى بعض العلماء ومنهم المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي أنها من الإسرائيليات وأهل مخيلة الإسرائيليين الساخرة من التي دفعتهم إلى تصور هذا الفعل من جانب سيدنا إبراهيم ، وليس في هذا غمناضة من وجهة نظر السخرية .

(٢) الآية ٩١ من سورة الصافات قوله (بل فعله كبيرهم) .

نجح في جعلنا نتخيل ذلك - أن هذه الأصنام التي أمامه من لحم ودم ، وأنه يجب ألا تعي بالجواب ، بل يجب عليها على الأقل أن تجيب مخرجا إياها من حجرتها بل يجب عليها - أو على الذين عبدوها - أن تكون في منزلة وسطى بين الإنسان المفكر وبين الحجر الذي لا يحس ولا ينطق ولا يفكر ، أى تكون هذه الأصنام حيوانا فكأنه يقول لهؤلاء العابدين إني أهزأ بكم وأحتقركم لو كان ما تعبدون حيرانا من صنع الله ، فكيف أهزأ بكم وإلى أى حد أسخر منكم إذا عرفت وانتهيت أخيرا من تساؤلى بأن ما تعبدون ليس إلا حجرا ، من صنع أيديكم ؟

أى سخرية رائعة نحسها ونحن نتلوا هذه الآيات المينة المعبرة ؟

ويسوق - سبحانه وتعالى - قصة أصحاب الجنتين ^(١) ، فلا مملك ونحن نقرؤها إلا أن نسخر بالبخلاء الذين ظنوا في أنفسهم القدرة ودوام الغنى :
« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين ، ولا يستثنون .

فطاف عليها طائف من ربك . . . وهم نائمون . . .
فأصبحت كالصريم .

فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حراثكم إن كنتم صارمين .
فانطلقوا - وهم يتخافون . . . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين .

وغدوا على حرد قادرين !!
فلما رأوها ، قالوا : إنا اضالون

بل نحن محرومون

وهنا لا نملك أنفسنا من السخرية اللاذعة بهؤلاء النفر الذين ورد ذكرهم
في قصة من تلك القصص التي حدثت قديما والتي يمكن أن يطلق عليها سخرية
القدر . .

وقد أضاف إليها القرآن الكريم من ألوان القصة وأصواتها المتباينة
ما يجعلها فريدة رائعة :

فقد بدأها سبحانه وتعالى بإظهار أصحاب الجنة بمظهر الأقوياء الذين
يتكلمون بلهجة تأكيدية بالنعم ، ثم باستعمال لام القسم وفون التأكيد
والفعل يصرم وماله من دلالة قوية عنيفة على (القطع) ، وكذلك مما يدل
على زيادة الثقة بأنفسهم عزهم في صباح اليوم التالي مباشرة . مصبحين ،
وكذلك عزهم على قطعها كلها بغير استثناء - ولا يستثنون - وكلما عرف
الإنسان أو القارىء نهايتهم التي سوف تكون في آخر القصة لا يملك نفسه
من أن يتسم ابتسامة السخرية ، تظهر على شفتيه ، أراد أم لم يرد .

ثم يظهر الجبار سبحانه وتعالى مقدار تفاهتهم بإرسال قرة بسيطة
من لدن العزيز القوى . طاف عليهم طائف من ربك . . . وإذا قرأ القارىء
« وهم نائمون » سوف تقفز إلى ثغره ابتسامة أخرى حينما يتصورهم في
جانب من الأرض الرحبة الطيبة ، يتصورهم نائمين : أى مطمئنين إلى قوتهم
وإلى أنهم سوف يصلون إلى مأربهم بعد ساعات معدودة حينما ينحسر الليل .

ثم يقول تعالى : « فأصبحت كالصريم » وهنا تكمن السخرية في سرعة
قطعها - مع أنهم لم يكونوا يظنون أنها يمكن أن تنتهى بهذه السرعة أو
هذه السهولة . . ، ولم يذكر تعالى كيف قطعت ليعطى ما يريد من التعبير
عن السرعة . ثم يعبر عن نهايتها بكلمة « الصريم » وهي من جنس
الفعل الذي استخدموه أولا : « ليصر منها » فكانه يردد - هازئا - نفس النغمة

الحال : قاذرين ، وأخيراً تبلغ السخرية أوجها حينما ننتهى من الفصل الأخير من القصة ونتخيل نهايتهم وحسرتهم بعد هذا التصوير السريع المتدارك ، ثم نلاحظ ضعفهم بتغير الفاصلة من النصب في (قاذرين) إلى الرفع في (اضالون) وهذا يقوى تصريحهم بالضعف ومن ثم تبلغ نهاية السخرية بهم والتشفي منهم !

* * *

والقصة الثالثة التي سوف نذكرها من قصص القرآن الكريم هي قصة موسى حينما نقرأ فيها عن جبارين يلتقطون طفلاً لا حول له ولا قوة فينتصر عليهم بحول الله في النهاية . فالتقطه آل فرعون ... ليكون لهم عدوا وحزناً . وهنا مفارقة عابثة تنبع من إنقاذ من يكون السبب في هلاك المنقذ !

* * *

وفي سورة المدثر :

إنه فكر وقدر . . . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ويبلغ حنف السخرية من كلبة (قتل) وهي قريبة من قولهم قتله الله ما أشجعهم أو أخزاه الله ما أشعره ! فلفظة قتل تعجب الغرض منه الاستهزاء . وقد كررت مرتين لزيادة السخرية . وذكر بعدها الاستفهام الذي هو من قبيل تجاهل العارف . قال الزمخشري : ثناء عاينه على طريقة الاستهزاء به ، أو هي حكاية لما كرروه من قولهم : قتل كيف قدر . تمكيا بهم وبأعجابهم بتقديره واستعظامهم لقواه .

* * *

وهكذا نرى تلك السخرية الهادفة التي عرضناها في الآيات السابقة ، السخرية من هؤلاء الذين يتجافون عن اتباع العقل ، والفطرة السليمة ، والمسلك السوي ، فهي مخربة بذاة ، وليست سخرية هدامة ، سخرية تصلح وتستل العيوب ، وتأخذ بيد الإنسان إلى الطريق المستقيم .

الباب الثانى

نحاول الآن أن نؤرخ للساخرين فى الأدب العربى وقد شهد الكثيرون منهم ، غير أن بعضهم قد ضاع معظم أدبه الساخر ، ولم يبق منه إلا القليل .

السخرية فى عصر صدر الإسلام والعصر الأموى :

نستشف مما قلناه سابقاً أن السخرية قد مرت فى حس العرب فاستخدموها كغيرهم من الأجناس الأخرى ، ولم يخرجوا عن ذلك الناموس الطبعى الذى يلتقى فيه البشر جميعاً . غير أن للعوامل الحضارية المختلفة تأثيراً كبيراً فى تعبير الإنسان وتطويرة ، وهذا ما يمكن قوله فى السخرية ، ذلك اللون من الأسلوب الذى يتأثر بتطور الإنسان عقلياً وحضارياً تأثراً كبيراً وهو ما حدث لهذا اللون بعد بزوغ شمس الحضارة العربية الأموية الإسلامية العباسية ، تلك الحضارة التى غيرت الإنسان العربى تغييراً كبيراً فصار إنساناً آخر يختلف عن أبيه وجده اللذين عاشا فيما قبل هذا العصر ، ولذلك حق للمستشرق بروكلمان أن يطلق على أدب ما قبل العصر العباسى أدباً عربياً وما بعده أدباً إسلامياً .

وسوف ندرس هنا السخرية فى العصر الأموى وقد كان فارسها المجلى الشاعر الكبير جرير ، الذى يعد بحق رائد السخرية فى الأدب العربى ، وسنقدم له بمقدمة نتناول فيها حسان والخطبة شاعرين ساخرين ظهرا قبله .

- ١ -

حسان والخطبة :

ظهر فى صدر الإسلام شاعران كبيران يعدان أستاذين لشاعرنا جرير إذ يكون معهما مدرسة هجائية ساخرة . وقد كنت أود أن يصلنا من شعرهما

قدر كبير يصلح للدراسة وتبين مذهب كل منهما ، ولكن معظم هذا الشعر
الساخر قد ضاع فيما ضاع من كنوز فنية .

أما أولهما وهو حسان بن ثابت فلم يرو الرواة عن حياته ما يجعله منبعا
فياضا لطائفة كبيرة من شعر السخرية ، غير أننا نعثر له على شعر ساخر
امتد أثره إلى نخيلة جرير فتأثر به . فمن ذلك ما قاله لقبيلة جذام :

لعمرو أبى سمية ما أبالى أنب^(١) التيس أم نطقت جذام
إذا ما شاتهم ولدت تناذوا أجدى تحت شاتك أم غلام

فهذه سخرية لاذعة ، وتصوير لحاطم حينما يولعون بالحيرة أن هذا الولوع
إلى حد أنهم يفرحون كل الفرح لما تلده الشاة ، وكذلك تكمن السخرية
في رميهم بإتيان الشاة وتمككه بهم : إذا قد يظنون أن الشاة قد علقت من
أحدهم بغلام أو تنبع السخرية من الفعل وتنادوا ، الذى يصور فرحتهم
ودعاء بعضهم بعضا ، ثم من الاستفهام فى الشطر الثانى من البيت الثانى :

وقد كثر هذا المذهب من التهم والتصوير الضاحك فى شعر جرير ،
كما سوف نرى حين الكلام عن جرير .

ويصور امرأة من مزينة تصويرا مضحكا فيقول :

رب خالة لك بين قدس وآرة تسقى البشام^(٢) ورفنها لم يغسل
تسمى وترقص حول أير حمارها حتى يكاد يمساها أو يفعل
ويهز أبهم قائلا :

(١) نب التيس : صاج عند الهياج .

(٢) رويت فى ديوانه ص ٢٩٦ تحت البشام ، ولعل الصراب ما سجلناه

والرفع : ما حول الفرج ، وقد يطلق على الفرج .

قوم تواسوا بأكل الجار كلهم فخيرهم رجلاً والتيس مثلاً
لو ينطق التيس ذوا الحصين وسطهم لكان ذا شرف فيهم وذا شأن (١)

وقال فيهم من مقطوعة :

فما منك أعجب يا بن استها ولكننى من أولى أعجب
إذا سمعوا الغى آدوا له تيوس تنب إذا تضرب (٢)
ترى التيس عندهم كالجواد بل التيس وسطهم أنجب
فلا تدعهم لقراع الكماه وناد إلى سوءة يركبوا !!

أما معاصره الخطيئة فقد طار صيته في الهجاء الساخر ، وشهر بيته
اللاذع الذى يخاطب به الزبرقان :

دع المسكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
وقد كان أطول باعاً من حسان فى السخرية التى لم تمكذ تفارقه فى
أغلب هجائه :

ولعل دارس شعره وحياته دراسة دقيقة يفتن إلى عوامل ثلاثة طبعت
شخصيته بطابع الساخر : أولها عدم اهتدائه إلى حقيقة أبيه أو كونه ولد زناً ،
كما كانوا يعبرون ، وقد لازمته تلك العقدة طوال حياته ، وجعلته يحقد على
المجتمع الذى عاش فيه ، سواء أكان مجتمع أسرته وأقاربه الأدينين ، أم
المجتمع الأكبر ، وأعنى به قبيلته التى انتسب إليها ، أو المجتمع العربى كله ،
ولذا سلط سوط هجائه على هذا المجتمع برمته . أما العامل الثانى فهو
حرمانه ميراثه ، وإحساسه بالظلم والفقر ينشب فيه مخالبه حين كان
إخوته الآخرون يستمتعون بالمال الموروث ، وأما العامل الثالث فهو قبح

(١) الديوان طبعة البقوى ٤١٦

(٢) آدوا : قورا . ديوان حسان طبعة الدار القومية سنة ١٩٧٤ ص ٣٧١

منظاره الذى شهد به المؤرخون الذين أرخوا لحياته ، وماقوه قبح المنظر
أو تشوه الجسد عاملا خطيرا من العوامل التى تطبع الشخص بطابع ما
ومحاولة تغطية هذا القبح بالتعالى على المجتمع بالسخرية ، وقد ذكرت عدة
أمثلة تبين ذلك فى مقدمة ديوانه الذى حقهته .

كل هذا إذن قد أذكى فى نفسه تلك المنحة السماوية التى عوضه الله بها عما فقد ،
وعنى بها المقدرة البيانية ، فأخذ يستعين بها على مهاجمة المجتمع ، وكان المجتمع
لا يفتأ يضحك منه ومن مفارقاته ، وحاد عن سبيل كثيرين من الشعراء
السابقين له ، واتخذ سلاحا آخر هو «السخرية» . فجعل كثيرين ممن كرههم هدفا
لسخريته ، ولعل زوج أمه هو أول من سدد إليه سهامه .

لما قاله فيه ولم يضع عبر الزمن :

فنعلم الشيخ أنت لدى المخازى وبش الشيخ أنت لدى المعالى

ونلاحظ أنه هنا فطن إلى «المقابلة» ، وأزها فى السخرية وقد أولع بها
مهرير فيما بعد كثيرا ، وكذلك فى التهم باستخدام ألفاظ المدح فى موضع
والذم ، وعكسها .

ويلجأ إلى الأسلوب الهادى فى السخرية بالتساؤل أو ما يطلق عليه
«تجاهل العارف» كقوله لقداة العبدى :

فخرتم ، ولم تعلم بمحادث مجدكم	فهاى ، هلم بعدها للتفاخر !
ومن أنتم ؟ إنا نسينا من أنتم	وربكم من أى ربح الأعاصر
منى جئتم ؟ إنا رأينا شخوصكم	ضئلا ، فما إن بيننا من تفاكر
وأنتم أولى جئتم مع البقل والدبا	فطار ، وهذا شخصكم خير طائر

ويظهر عابثا بالوليد بن عقبة في حادث شربه الخمر أيام عثمان بن عفان
فيورد القصة بخذا فيرها كأنه مجرد واصف يصف ما أمامه، ثم يترك في
أثناءها ما يشتم منه روح السخرية .

يقدم لقصته بهذا البيت :

شهد الخطيئة يوم يلقى ربه أن الوليد أحق بالعدو
فيوحى بأنه سوف يقف إلى جانب الوالي، وينفي التهمة عنه ؛ ولكنه
يفاجئنا بقوله :

نادى - وقد قضوا صلاتهم أزيدكم ؟ ثملا وما يدري
ليزيدهم خيرا ولو قبلوا لقرنت بين الشفع والوتر
فاتوا أبا وهب ولو فعلوا وصلت صلاتهم إلى العشر

فنهض السخرية تكمن في عبارة « ليزيدهم خيرا » . وفي الشطر الثاني
من البيت الثالث . وهو لا يكتفى بهذا ، بل يعلق هازئا بتصويره جواذا
مندفعا ، ولولا كبحه لاستمر في عدوه :

خلعوا عنائك إذ جريت ولو خلوا عنائك لم تزل تجري

وسخر الخطيئة بعتيبة بن النحاس العجلي زعيم بكر في الكوفة حينما سأله
عن أشعر الشعراء ، فإذا به يفاجئه ليشفى نفسه ويستقم من بخله قائلا :
أشعر الشعراء الذي يقول :

ومن يجعل المعروف من دون هرضه يفره ، ومن لا يتق الله يثتم

فقال له عتيبة - وقد فطن إلى اذع الخطيئة - : « أما إن هذه الكلمة من
مقدمات أفاعيك » (١) .

(١) وهذا هو ما سماه العقاد وغيره من الباحثين عن أسباب الضحك ، بالدغدغة

ولعل روحه الساخرة من كل ما حولها قد ظهرت بوضوح في وحيته التي زعم الرواة أنها حدثت ، وبالفوا فيها ، وقد سيطرت عليه روحه الماجنة^(١) في أيامه الأخيرة كما سيطرت عليه طوال حياته : طلبوا منه أن يوصي بشيء للمساكين ، فسنخر أو تماجن قائلا : أوصيهم بالمسألة ما عاشوا فإنها تجارة لا تبور ، وحينما سألوه أن يعشق عبده قال : تماجنا : اشهدوا أنه عبد ما بقي !

جربير :

هذا الشاعر اليربوعي النيمى قد ولد بين سنين ٣٠ ، ٢٣ هـ وعمر حتى سنة ١١٤ هـ وقضى الجزء الأكبر من حياته في مرابع تميم وبخاصة قرية أئيفية ، إحدى قرى الوشم باليمامة وزار البصرة والكوفة ودمشق عدة مرات وكان نصيب الأولى من زياراته وإقامته أوفر من غيرها .

وقد عملت الوراثة والبيئة عملها في طبع هذا الشاعر بالسخرية^(٢) : ولد

= الفكرية ، في قوله : « وكما أن الدغدغة الجسدية تحدث في المواضع التي لا تعرض كثيرا للمس ، ولا يكون موضع الدغدغة معروفا قبلها ، كذلك تحدث الدغدغة الفكرية من خاطر غير معهود ولا معروف قبل ذلك ، ويبدو أن عنصر الطرب أو المنافة الذي يجرى في سياق التفكير هو العنصر القوي في تكوين المضحكات ، انظر كتاب جماع المضحك المضحك للعقاد ص ٦٣

(١) انظر كتاب الظراف والمتماجنين لابن الجوزي حيث يعرف المجنون بأنه صرف اللفظ عن حقيقة إلى معنى آخر .

(٢) انظر كتابا عن د جربير : حياته وشعره ، ص ١١٩ وما بعدها ، ص ١٧٧ وما بعدها ، ص ٣١٧ ، ص ٣٨٤

لسبعة أشهر فكان لهذا أثره في طبعه بالحساسية (١)، وولد لأبوين يجتمعان في جد واحد فزاد هذا من وراثته ما في الأبوين من عيوب خلقية وخُلُقِيَّة ، تلك العيوب التي يومية إلها من بعيد أوقب حق حاله معرض ، وشح إليه وقصره واشتهاره بأنه كان مضعوفاً ، وفجحه - أي التواء قدميه - كل ذلك قد أصاب جريراً ولا شك بالشعور بالنقص ، ذلك الذي زاده ضعة قبيلته الدنيا دكايب ، التي نعتتها مليكة ابنة الخطيئة بأنها - لفقرها ودنائها - بعرك الكباش ! ولقد زاد من تلك الحساسية وقوف جرير - الذي كان قصيراً دميماً ذا غنة - وقوفه يطاول ويفاخر الفرزدق أكبر شاعر تميمي بل أكبر الشعراء في زمنه ، والذي طالما باهى وفاخر بحسبه وقوة محته : كل تلك العوائل قد تضافرت وامتزجت بكيانه حتى صيرته الشاعر الذي يأتي أن يمتزج بنفسه سواء ذلك الذي يرين على نفسه أو يبدو واضحاً جلياً في خلقه ، بل يتملكه الروح الساخر الذي يفتن إلى متناقضات الحياة حوله ، فيتحول من الضعف والاستكانة إلى فارس يمسك بيديه سلاحاً فتاكاً هو سلاح السخرية !!

وقد ظهر شعوره بالنقص من خلال قوله له في معرض الموازنة بينه وبين الفرزدق بعد أن روى نادرة تدل على حقارة أبيه عطية : « فكيف برجل يريد أن يسامى بني دارم بهذا ؟ » وقد ظهر هذا الشعور أيضاً حينما نأى عن الفخر بكليب قبيلته الدنيا إلى الفخر بيني ورياح قائلاً :

أترعدني وراء بني رياح كذبت لثقصرن يدك دوني !
فقال له بنو كليب - وقد شعروا بذلك - ما هجانا أحد قط بأشد مما هجوتنا به ، حين استوى لك أن تقول : وراء بني كليب فرغبت عن آبائك إلى أعمامك !

إذن شعر جرير بالنقص أمام خصمه المتمتع بالفرزدق ، ذلك الذي

(١) هناك عوالم أخرى فصلتها في كتاب « جرير »

احتقره، ونظر إليه دائماً راعياً حقيراً لا يملك إلا البلى، بل النقاد كغيره من الفقراء :
فيا عجباً ! حتى كليب تسبى وكأنت كليب مدرجاً للمشاتم

فحق جرير على هذا المجتمع المتعالى والأرستقراطى، الذى يمثل الفرزدق
وكان صاحبنا يمثل الديمقراطية الشعبية المتواضعة التى أخذت تحاول إيجاد
مكان لها فى مجتمع تسيطر عليه طبقة المجتمع المتعالية بحسبها ومحتدها، وهى
التي توورت عن الجاهلية، وحاول الإسلام إزالتها بمثل قول النبي (ص) :
لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى . . . سخر جرير من هذا المجتمع المتعالى
فى شخص الفرزدق الذى التحم معه فى معركة هجائية حامية الوطيس لم يشهد
لها الأدب العربي مثيلاً ، تلك المعركة التى استمرت نصف قرن تقريباً
(٦٥ - ١١٤ هـ) .

لعل جرير لم يكن متغلساً بهذا المعنى الكبير ، ولكنه كان البؤرة التى
تتجمع فيها إحساسات الشعب أو المجتمع ، فيعطى القدرة على الكلام أو
التعبير فيتكلم ، ويترجم عما أحسه مجتمعه ، وما ينوء به من آلام وعلل ،
ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن شاعرنا قد ورث الإحساس بالظلم الاجتماعى
عن أجداده منذ القدم : هؤلاء الذين تسلسل فيهم هذا الشعور بالظلم
الاجتماعى ، فأخذ ينتقل من أب إلى ابن إلى حفيد ، حتى تركز فى مثل هذا
الشاعر الذى منحه الله جهازاً عصيباً حساساً شحناً بالآلام منذ قديم الزمان ، ثم
انعكست عليه آلام مجتمعه البدوى ثم الحضري الذى عاش فيه ، فكانت أخيراً
عود الثقاب الذى أشعله بالسخرية ، يحاول بها تكبير عيوب هذه الطبقة التى
تزعم لنفسها الكمال والعظمة والمجد وتدوس بأقدامها بقية مجتمعهما الضعيف
المهضوم ، معتمدة على أن ما تمتلئ به من عيوب قد غطاء ستار المجد
الزائف الكثيف .

ولست العيوب التى سدد إليها جرير سهامه عيوباً شخصية فى الفرزدق
أو الأحظل أو غيرهما ، بل هى عيوب اجتماعية تتمثل وتظهر فى المجتمع

الخاص أو الأمرة التي ينتمون إليها ، وهناك عناصر مشتركة في هجائه الأشخاص المختلفين : كالعنصر النسائي الذي استند إليه استنادا كبيرا بحق وبغير حق ، وهناك عناصر غير مشتركة كالنصرانية التي تميز بها الأخطل ، والفسوق والفجور اللذين اشتهر بهما الفرزدق ، ودقة الأصل ولؤمه وهما ما عرف بهما بنو التميم ، والعور الذي عير به الأعور النبهاني .

وأما الفرزدق : فقد مى جدته قفيرة بالزنا وقفيرة هذه أم لجدته صمصعة ، وكان لصمصعة عيود قيون منهم جبير ووقبان وديسم ، فلذلك جعلت مجاشع قيونا واتخذ جرير من هذا مادة لسخرية ، كما في قوله ذاكرا غالبا أباه :

وجدنا جبيرا أباً غالب بعيد القرابة من معبد

ويتحدث عن بني مجاشع دائماً بالقيون ، كأنه قد أصبح اسمهم حقاً ، وأنه لا يذكره منكر . ولما وصف غالب أهر الفرزدق بأنه مثل دحوق الحمار ، وأنه كان يقبب كالبعير كلما تكلم ، التفت هذه التسمية ، ونعت الفرزدق بها ، ضاربا صفحا عن اسمه الحقيقي ، فسكأنه لا يعرف إلا بدحوق الحمار :

وإذا نخرت بأمهات مجاشع فأخرد بقبب ، واذكر النخوارا

• • •

وكان جرير كثيراً ما يستعمل الألفاظ التي تدل على الاستخفاف ، لإبهامها ، ولموسيقاها مثل جوخي^(١) ، ونخبنج^(٢) ، والنخوار^(٣) ،

(١) اسم للإمام .

(٢) النخبجة : سرعة الإناخة والجماع ، ولها معان أخرى .

(٣) أى الجبان

والجيثلوط (١) ، وخضاف أو خيضف (٢) ، وقدام (٣) ، ووقبان (٤) ، وضوطر (٥) ، ورغوان وشعرة ، وزبد استها ، والجلوبق (٦) ، وهذه أمثلة لما قلت ، ونلاحظ ما تشعه الألفاظ بموسيقاها ورينها من إحساس بالهزة :

لقد كان يا أولاد خجنج فيكم محول رحل للزبير ومانع
فإن مجاشعا - فتينوهم - بنو جوحى وخجنج والقدام

ولعل إحياء الألفاظ السابقة لا يكون بالقوة التي كان بها في عصر جرير ، ولكننا إذا تصفحنا المعاجم استطعنا أن نستشعر إحياءها ، بالإضافة إلى موسيقاها ، فعلى الرغم من أنها تشتمل على الحروف التي تنفر منها الأذن ولا تحبها كثيرا كالحاء وبخاصة إذا اجتمعت مع الجيم في مثل جوحى وخجنج ، أو إذا ما تكررت في كلمة واحدة ، وكذلك حرف الاء والطاء في جيثلوط ، والضاد والطاء في ضوطر ، والجيم والقاف في هذه اللفظة المستطيلة جلوبق :

رجوتم يابنى وقبان موى وأرجو أن تطول لكم حياتى
إذا لاقى بنو وقبان غما شددت على أنوفهم العصابة
وقوله :

تلقى بنات أبى الجلوبق نزعا نحر القيون ، وما بهن نفا
وهكذا يتخذ جرير من غرابة الألفاظ ووقعها مادة للهزة حتى يبالغ في ذلك فيستعمل ألفاظا ربما لم يعرف معناها كلفظة الجيثلوط ، التي تشع

(١) شتم اخترعه للذاء وكان معناه : الكذابة السلاحة ، مركب من جلط ، جشط ، ثلط (القاموس)

(٢) الخضف : الضرط

(٣) هى التى تلتطخ الجعر

(٤) من الوقب وهو دخول الأبر

(٥) الضخم اللثيم العظيم الاست

(٦) الرجل ذو الجلبة والضجة .

إشعاعا غريبا كأنها ترمى . حقا - في البيت - إلى أن الذي يتحدث عنه مجهول النسب أو المكاة أو كليهما ، لأن معنى اللفظة ورنيها المرسقى منفر بطولها من جهة ، وبانهاها بحرف الطاء ، أو بالمقطع الأخير (لوط) من جهة أخرى ، وربما كان ساخرا في ذلك كالمعري حينما أطلق على الجنى ، الذي زعم أنه التقى به في الجنة اسما يكاد يكون مضحكا بتركيبه وإبهامه : الخيتور أحد بنى الشصبان ، ويبالغ في السخرية بكنية ساخرة طويلة في حروفها ، غريبة في وقعها على الأذن ، أبو هدرش ، كما نعت مجاشعا ، بأبى الجلوبق ، وإنما هذا يحدث في كل زمن ، وربما في كل لغة ، فقد سمعت أحد العامة يلقب الآخر ضاحكا ساخرا : لا يقصد السباب بل السخرية « يا ابن مكه زغل ، وليس بالطبع لهذه التسمية أو اللفظة معنى يفهمه الناعت أو المنعوت بها ، ولكن إبهام معناها هو الذي ينبع منه السخرية بطوله أو بشكله أو بهيئته .

وإذا تصفحنا المعاجم ، وجدنا كثيرا من هذه الألفاظ التي تطن في الأذن طنيننا خاصا ربما عرف الإنسان مدلولها من وقعها في أذنه مثل « العفنجج » (وهو الضخم الأحق) والعشوزن (وهو العسر الملتوى من كل شيء ، والشديد الخلق) وربما اخترعت هذه الألفاظ في عصور اللغة الأولى حيث لم تشتق من مواد كانت واضحة المدلول في أذهانهم ، ونحتوا منها ألفاظا مقاربة لما في أذهانهم في المعنى ، بل مثل هذه الألفاظ الطويلة المقاطع من اشتقاق شخص من الأشخاص هدته إلى ذلك حاسته السمعية التي تدرك بالفطرة الحروف وصفاتها ومخارجها ومدى دلالتها .

وقد لحظ الدكتور محمد محمد حسين هذه الخاصية وهي مهارته في استعمال بعض الألفاظ ذات الرنين الساخر فقال : ومن الهجائين من يرزق إلى جانب هذه الموهبة عبقرية في الحس اللفظي تلتئم فيها الألفاظ - من حيث هي حروف تتوالى - بالصورة التثاما عجيبا ، ولا نكاد نعرف هجاء عربيا يعدل جريرا في هذه الناحية : فهجاؤه يستفز القارئ للضحك ، قبل أن يروى في معناه ويحققه ^(١) .

ولم يسخر جرير بالفرزدق وآله عن طريق الألفاظ ذات الرنين الساخر
فحسب ، بل سخر أيضا عن طريق الصور المركبة أيضا : فقد عير الفرزدق
بأدوات القيون التي يستعملونها ، فذكره بها كثيرا - ونسبها إليه ونسبه إليها -
كما ينسب الابن إلى أبيه ، في تركيب ضاحك ساخر : يستعمل أسلوب الامر
التمكهي مرة ، وأسلوب التفتيح التمكني مرة أخرى ، والمقابلة
مرة ثالثة :

ألا إنما مجد فرزدق : كيره وذخر له في الجنيتين تعاقع
كبرك يا أخبت قين عرقا !
هلا حميت الكبر أن يخرقا ؟

وهكذا يذكر دائما - ويلج في هذا إلحاحا - أنه قد ورث عن أبيه
وأجداده أدوات القين ، كأنما يثبت أنهم حقا أولاد العبيد القيون - جبر
وديسم - الذين ادعى أنهم نزوا على جدته فقيرة :

وأورثك القين العلاء ومرجلا

وإصلاح أخرات^(١) الفؤوس الكرازم

إذا عدت مكارمها تميم فخرت بمرجل وبعقر ناب
وسيف أبي الفرزدق - قد علمتم قدوم غير ثابتة النصاب
ويخاطب قوم حدراء - بنى زيق من شيبان - ساخرا بالفرزدق :

فأمثل مافي صهركم أن صهركم مجيد لكم لي الكتيشف وشاعب
أيفخر بالمحمم قين ليلى وبالكبر المرقع والعلاء

(١) أخرات جمع خرت وهو الثقب في الفأس ، الكرازم : فأس مفلولة الحد
والعلاء : السندان .

وفاز الفرزدق بالكلبتين وعدل من اللحم الأسود
فرقع لجمدك أكباره وأصلح متاعك لا يفسد
وأذن العلاء وأذن القدم ووسع لكبرك في المقعد
وأوصى جبير إلى غالب وصية ذى الرحم المجهد
فقال أرفقن بلى الكتيف وحك المشاعب والمهرد

وكثيرا ما يذكر هازنا الرقيق بالكبير وغيره :

ترفقت بالكيرين قين مجاشع وأنت بهز المشرفية أعنف
وهكذا نجد جريرا يسخر في صورة حية ، كأنها حدثت في الواقع ،
حينما يتخيل حواراً كأنه وقع حقا بين غالب - أبى الفرزدق - وبين جبير
الذى ينسب إليه ، فينصحه ، بماذا ؟ بأعز شيء عنده ! وكأنها الوصية التى
يريد أن يهيم بها فى أذنه قبل الوداع الأخير .. هذه الوصاة هى : أن يرفق
بلى الكتيف !

ويضحك جرير ضحكا عاليا حينما يزعم أن جدم القين قد دلف ، ومعه
أعز شيء يملكه ، ألا وهو أدواته التى يعتز بها ... ومن يبكى صدهاء ؟ إنسان ؟
كلا ! بل هو شيء حى ، وما زال حيا فى نفس الميت . ألا وهو الرجل ،
الذى كان ذا صوت مدو فى الدنيا :

وجد الكتيف ذخيرة فى قبره والكلبتان جعن والميدشار

ولعل السخرية نابعة من لفظة « ذخيرة » ، حالة كونها ذخيرة له وذخرا
فى قبره .

يبكى صدهاء - إذا تهزم - مرجل أو إن تثلم برمة أعشار^(١)
لأنه قد شخص المرجل - لأنه عزيز عليه - فجعله شخصا مخلصا يبكى

(١) البرمة : قدر من حجارة .

شيدته حين لم يجد مخلصاً من بنى قرابته يبكي صداه ، وياخذ بثأره كاء قاذ الجاهليين ، حتى تقول الهامة اسقوني ، ثم يتصور اكان يحدث في الحياة من اهتزاز الأرض لكثرة طرق الحديد فيتصور هازناً ، المقر ، الذى دفن فيه غالب أبو الفرزدق والذى افتخر به الفرزدق كثيراً ، يتصوره كأنه رجف :

رجف (المقر) وصاح فى شرقيه قين عليه دواخن وشرار ا

ويصور جرير الفرزدق قينا حقاً ، فيسبغ عليه من سمات القيين ما جعله حذراء ، خطيبته تتبين فيه هذه الصفة ، وتنكره أيما إنكار ، وتأتى أن يكون لها قريناً ، ثم يدير حواراً - كأنه حدث حقيقة - وذلك لكي يزيد من واقعية الصورة ، فيجعل الحوار بين حذراء والفرزدق - مع أنهما لم يلتقيا - كأنه قد تزوجها حقاً :

حذراء أنكرت القيون ويريمهم	والحر يمنع ضيمه الإنكار
لما رأت صدا الحديد بجاده	فاللون أورق والبنان قصار
قال الفرزدق رقى أكيارنا	قالت وكيف ترقع الأكيار ؟
رقع متاعك إن جدى خالده	والقين جدك لم يملك نزار ا

واعلمنا نلاحظ هنا مهارته فى تصوير سلاطة لسان الزوجة فى بعض الأحيان حينما تخاطب زوجها ، فتعيره بأبيه وجده ، إذ تفخر هى بحسبها ونسبها ، ثم تزيد فى سلاطتها وحدثها ، حتى تنفيه عن العرب !

ثم زاد جرير فى التهمك ، فتخيل أنها دعت ربها ، الصور ، الذى صور الفرزدق بهذه الصورة ، دعتة مستغيثة ضارعة :

دعت المصور دعوة مسموعة	ومع الدعاء تضرع وجوار ا
عادت بربك أن يكون قرينها	قينا أحم لفسوه إعصارا

إن البيتين مشحونان بالسخرية في كل لفظة ، فهي مع دعائها قد تضرعت ووقفت منه - تعالى - موقف الضراعة لأمر عظيم ، وخطاب جسم نزل بها - أو كاد - وتريد جاهدة أن تتخلص منه . ثم يهزأ به بأن يصفه بكلمة «أحم» ، وفيها من الاستهغار والهزم ما لا يبيل لوصفه أو لتصويره ، بل تحسه الأذن فيبتسم الشجر ، ثم يكبر صورة فسائه فوجعله إصصا ١١ أرايت إلى أي حد يهزأ به ويقسو عليه ؟ ثم ينتهي بالحوار الساخر فتقول له حدراء :

ليست لقومي بالكثيف تجارة لكن قومي بالطمان تمار ١

وبذلك ترد عليه رداً غنياً مفحماً نجعله ينقصر ، ولا يحاول أن يلح في طلب يدها . وإذا أضفنا مدى ما يشمر به الرجل من إهانة وخيبة أمل إذا ما تقدم إلى امرأة خاطبا ، فيرد عنها خائبا ، فيزيد جرير من هذه الخيبة بأن يشيع هذا بين الناس ويذيعه بهذا التهمك المرير ، وبهذه الواقعية التي يرضونها السامع أنها حدثت حقيقة ، إذا عرفنا هذا أدركنا وقع هذا على الفرزدق ومقدار جبنه وخوفه من جرير ، وهناك قصة يرويها أبو الفرج الأصفهاني : وهي أن ماجنا كان يسبح مع الفرزدق وغيره في بركة ماء ، وجعل هذا الماجن ينفلت إلى الفرزدق ويقول : دعني أنكحه حتى لا يهجونا أبداً ١٢ فجعل الفرزدق يستغيث ويقول : ويلكم ، لا يمس جلده جلدي فيبلغ ذلك جريرا فيوجب على أنه قد كان منه الذي يقول ^{١٣} وتدل هذه القصة على مدى خوف الفرزدق من تشنيع جرير بحق وبغير حق .

ولا يكتفي جرير بوصف خصمه بلونه الأورق وبنائه القصير ، بل يصف الشرار المتطاير حوله ، والدخان المتصاعد من النار : دقن عليه دواخن وشرار ، فيقول :

أقن يا قنم يعيب قيساً يطير على لهازمه الشرار ١٩
 فيجسد الصورة تجسيدا : فهذه لهازمه ، وهذا هو الشرار المتطاير حوله
 كأنها مائلة أمام أعيننا الآن بحركتها الواقعية .

ثم يكفى عن القين الذى اتهمت به أمه وجدته بالكبتين والكبير ، لأنها
 من أخص لوازمه ، وبذلك رمى أمه وجدته بالزنا فى صورة مظلمة متوارية
 مضحكة :

ولقد نهيتك أن تسب مخرقا وفراش أمك كلبتان وكير
 وبما سلكه فى السخرية طريقة المقابلة ، فيقابل كثيرا صورة صنع
 الفرزدق - الذى هو أحد القيون - السيوف بينا جرير وقومه يستخدمونها
 بعد ذلك فى ميدان الشرف والفخار :

كان العنان على أريك محرما والكبير كان عليه غير حرام
 إذا صقلوا سيفاً ضربنا بنصله وعاد إلينا جفنه وحمائله
 فأورثك العلاء وأورثونا رباط الخيل أفنية القباب
 تصف السيوف وغيركم يعصى بها
 يا بن القيون ، وذاك فعل الصيقل
 وتذكر هز المشرفى يمينه
 ويعرف كفيه الإناء المكثف

وهنا يمزج بين حادثة « نبال السيف » فى أيام سليمان بن عبد الملك ،
 حينما أعطاه بنو عبس سيفاً كايلاً ، فلم يستطع أن يضرب به رقبة الأسير ،
 بينما نجح جرير فى ذلك ، ومن ثم عيره كثيراً بهذه الحادثة ، فهو يقابل
 ويجمع بين هذه الحادثة التى خزي بها وضحك منه سليمان والحاضرون ، وبين
 كونهم « قيونا » أو رميهم بذلك :

وسيف أبي الفرزدق - قد علمتم - قدوم غير ثابتة النصاب
وأخيرا فهو يضع هذه الأدوات بالقرب من أعضاء خفية من جسمه
فيجعلها داخل إطار ساخر :

هو القين يدنى الكبير من صدأ استه
ويعرف من الكلبتين أنامله !
أتجعل يا بن القين أوسا وحائما كذى مرجل عند استه وقدوم
إذا مالوى بالكلبتين كتيفة رآين وراء الكبير أيرا عهما !
ويقابل مقابلة لطيفة هازئا مصورا حبههم للكبير وترفقهم به ، لأنه عزيز
عليهم !

ترفقت بالكبيرين قين مجاشع وأنت بهز المشرفية أعنف !

التعبير بالحبوة ، ومقتل الزبير وأكل الخزير (١) :

لما قال الفرزدق مفتخرا : « بيتا زرارة محتب بفنائيه ، سخر جرير سخرية
لاذعة من صورة المحتبى التي كانت تعد في أيامهم علامة الشرف والعزة والمنعة
وقرن هذه الصورة « الصامته » ، التي تمنع صاحبها من التحرك ، قرنها بعدم
تحركهم لإيقاظ الزبير بن العوام ، الذي قتل بعد أن استجار بهم ولم يجبروه !
وارتسمت كذلك في مخيلته - بمناسبة الحبوة ومقتل الزبير - تلك الصورة
التي نقلتها الأسطورة ، وهي أكلهم الخزير سراعا ، متلهفين لما دعوا إلى ذلك ،
فكرر هذا المعنى كثيرا - وهو أنهم قوم لا يستطيعون إلا عقد الحبي ، والقعود
عن إجارة المستجير وأكل الخزير بنهم :

ودعا الزبير - فما تحركت الحبي ! لو سمتم جحف (٢) الخزير لاروا
والمقابلة بين دعوة الزبير ، وعدم تحرك الحبي هي منبع السخرية هنا ،

(١) الخزيرة : شبه عسيدة بلحم وبلا لحم عسيدة أو ورقة من بلالة النخالة.

(٢) الجحفة : اليسير من الشريد في الإناء لا يملأه والغرفة من الطعام أو ملء اليد.

وكذلك استعماله جمع د حبة ، : حبي ، ثم يكمل البيت بأنهم : لو سامهم أحد
« الخزير ، اتحر كرا ، بل : لثاروا ، فيجعل غضبهم بمن يطلب الخزير ثورة ،
أما إذا دعاهم أحد واستجار بهم ، فهم هامدون محتبون !

أتفخر بالحبي وخزيت فيها وقبل اليوم ما فضحت حبا كا
قتل الزير وأنت عاقد حبة قبعا لحبوتك التي لم تحلل !
وتم يشبههم تشبيها مضحكا ، فكانهم ضباع تبكى ، لاهل القتل ، بل
« كرها ، !

مثل الضباع تغنيهن نائمة تبكى على كمر القتل بصفين !
وقد كان في يوم الحوارى جاركم أحاديث صمت من نثاها المسامع
وبتم تشبون الخزير كأنكم مطلقة حيناً وحيناً تراجع
إذا طرب الحمام - حمام نجد - نعى جار الأقارع والحتمات
إذا ما الليل هاج صدى حزينا بكى جزعا عليه إلى الممات !

والسخرية نابعة من إضافة « جار ، إلى الأقارع والحتمات ، ليزيد في
تفخيمهم ، ثم يضيف إليه ذلك العار :

ولا نحتبى عند عقد الجوار بغير النجاد ولا نرتدى
شدد تم حباكم على غدره بحبهان والسيف لم يغمد

وكثيرا ما يشبه مجاشعا - ساخرا - بالضباع ، التي يقال عنها إنها تقترب
من القتل ، وقد انتفخت بطونهم ، وانعظت أيورهم ، تبغى من وراء ذلك
غرضا من ميت لا يفيد :

تراغيتم يوم الزير كأنكم ضباع بنى قارمنى الأمانيا

والسخرية نابعة من هنا من كلمة « الأمانى ، لجعل الأمانة الواحدة -
أمانى كثيرة - فهو قد صور حب الضباع لما تتميناه بأنها كثيرة . فهو لم يكتف

بسخرته منها بتسميتها أمنية ، حتى عدّها أماناً . والمعروف أن الأمنية شيء بعيد التحقيق بمعنى المرء حصوله ، فكذلك هي تمنى الضراب (الجماع) الحقيقي وهو شيء بعيد الحصول من ميت .

ويصفهم جرير .. بعد قتل الزبير .. كأنهم تعشوا الخزير ، وامتلات به بطونهم فثقلت لذلك أجفانهم ، فناموا من البشم ، ولم يستطيعوا إيجارته :

باتوا .. وقد قتل الزبير .. كأنهم خور صوادر عن فجيل قراقر
ودعا الزبير مجاشعاً فترمزت للغدر الّام أنف وسبال^(١)

وهو هنا يعبر تعبيراً قوياً عن غدرهم بلفظة (ترمزت) وفيها من القوة والدلالة الصوتية ما يدل على أنه وصل إلى غرضه بتعبيره عن غدرهم وتهميمهم له وتهيشهم تهيئاً شديداً قبل القيام به ، وهو بهذا يرسم صورة كاريكاتورية لهذه الأنوف التي اضطربت ، وهذه السبال التي تحركت ، علامة على الغدر .

ثم يقابل بين الخزير - كطعام - وارتضاع الفيشل في حادثة أبي سواج فقال :

ما كان ينكر في ندى مجاشع أكل الخزير ولا ارتفاع الفيشل

فهو منتهز فرصة هذا التقرير أو الإقرار الذي ينسب إليه : وهو أكل الخزير .. فيمزج به في الخفاء وفي دهاء .. شيئاً آخر قبيحاً أشد القبح ، أي لونه السخرية بهم ويزيد التهمك والهزم بهم فيقول : ارتضاع الفيشل كشراب ، نتيجة منطقية بعد الطعام !

شهد الممهل أن جيش مجاشع رضعوا الأيور على الخزير فخاروا

(١) واستعمل جرير (الترمز) في عدة مواضع أخرى ، فيما قال :

إذا سار في الركب البعيت عرقم ترمز حمراء العجان على الرجل
أضحى يرمز حاجبيه كأنه ذبح له بقصيرتين وجار

ويضا حكمهم ساخرا فيقول :

لا تغلبن على ارتضاع أيوركم أوصى بذلك أبوكم المهمار
ويربط كذلك بين تخمة بطونهم التي أصيبوا بها من أكل الخزير - وبين
انتفاخ خصاهم الذي يمكن أن يكون قد نتج عن انتفاخ البطون :

تقرقر يافرزدق إذ فرعتم خزير آ بات في أدر ثقال
ومثله ما قال للأخطل (واستخدم لفظ قرقر بما فيها من دلالة صوتية)
مسخ العباء وريح نسوة تغلب عدس يقرقر في البطون وفول
وفي القرقرة دلالة على الترجيع وإخراج الصوت ، فكان لهضم الطعام
(الخزير) في بطونهم صوت يشبه القرقرة ، ولعل مثله قوله :

يغدون .. قد نفخ الخزير بطونهم رعدا ، وضيغ بني عقال بمخضع
مباشيم عن غب الخزير كأنما تصرت في أعفاجهن الضفادع

التعبير بعقر الناب بصورة ، وحادثة نبو السيف

وغير جرير الفرزدق وسخر منهم .. أي من مجاشع .. بشيئين : أحدهما
لفظ الفرزدق بعقر الناب بصورة ، وهي المعاقرة التي حدثت بين أبيه غالب
وسحيم بن وثيل الرياحي في أيام عثمان بن عفان .

وكذلك سخر منهم ثانيا بشيء آخر ، وهو (نبو السيف) لما أراد أن
يضرب به عنق الأسير أمام سليمان ، وكذلك سخر منهم كثيرا برميهم بارتضاع
الفيشل في مقابل سخريته الفرزدق - كليب حينما غيرهم بحادث (صرد
الربوعى) الذي شرب مني عبد أبي سواج ، كما فصل ذلك أبو عبيدة في
النقيضة رقم ٢٩ ص ٢٠٦ من النقائض .

وكان جرير - يمزج كل هذه العيوب بعضها ببعض ، فيركب من عقر

الناب والكبر صورة ساخرة ضاحكة : فيقول - مقابلا بين إيراد يرثع الخيل للحرب وإيراد مجاشع الإبل حاملة الكبر :

فنورد يوم الروع خيلا مغيرة وتورد نابا تحمل الكبر صورا
سبقت بأيام الفعّال فلم تجد لقومك إلا عقر نابك مفخرا
لقيت القروم الخاطرات فلم يكن بكيرك إلا أن تكش وتعر

وقال أيضا في عقر الناب :

لقد سرتني ألا تعد مجاشع من الفخر إلا عقر ناب بصور
ويمزج بين نبو السيف عن رقة الأسير أيام سليمان ، وعدم نبوه حين عقر الناب :

ضربت به عرقوب ناب بصور ولا تضربون البيض تحت الغمام
دعوا المجدل لأن تسوقوا كزومكم وقينا عراقيا وقينا يمانيا
ويسخر عايشا بارتضاع الأير :
تلك المكارم لم تجد أيامها لمجاشع ، فقفوا ثعالة فارضوا
لا تظماون وفي نعيم عمكم مروى ، وعند بني سويد مشبع
رضعتم ، ثم سال على الحاكم ثعالة حين لم تجدوا شرابا

نسوة مجاشع :

وقد قلت قبل لأنه يمزج عناصر السخرية بعضها ببعض ، كما سماه برجسون "تداخل السلاسل" ، فهو لا ينسى الخنزير في هجائه نسوة مجاشع ، والسخرية بهم ، فيقول :

إذا طرقت بنخوبة من مجاشع أتدون رأس الساياء خزيها
وأكثر هجاء نسوة مجاشع يدور حول أعضائهن التناسلية ورميهن

بالفاحشة في تصوير ما جن يميل إلى السخرية أحيانا ، وأكثر من تعرض
لهجائه الموجه ، جمع ، جمع ، أخت الفرزدق . فقد انتهز فرصة تعرض همران بن مرة
المنقري ، لها في الطريق - انتقاما من الفرزدق - فادعى ادعاء بارتكابها
الفاحشة ورمائها بها في جل قصائده الهجائية ونقائضه :

وجعثن حين أسهل ناطقهاها عفرتم نيم جمعثن في التراب
فشدى من صلاك على الردافى ولا تدعى فإنك لن تجبأى
فـ او كاوم جمعثن إن سعدا ذوو عادية ولهى رغب !

ويربط بين جمعثن ، والحبي ، كما تعود دائما أن يربط ويمزج بين
السوءات أو النقائص مقابلا بينها :

نسيتم عفر جمعثن واحتبيتم ألا تبأ لفنورك بالحبات !
وقد همت مواقع ركبتيها من التبراك ليس من الصلاة !
تبيت الليل تسلق اسكناتها كدأب الترك تلعب بالكرات
وحط المنقري بها فقرت على أم القفا ، والليلعات !

فهذا تصوير مجسم للحادثة المزعومة حتى يخيل للناس أنها وقعت حقا ،
ويزيد من واقعتها إجرأ الكلام على لسانها مستغنية فيقول :

تفاوى غالبا وبني هفبال لقد أخزيت قومك في النداء
تدلى بآبن مرة - قد علمتم تدلى ، وهو ينز بالهلالة !

فهو يبالغ في نكاحها حتى يجعل ركبتيها تدمى ، وتسلق اسكناتها فيشبهها
تشبهها ساخرًا بكثرة يتلفها الترك - وهم الذين يكرههم العرب ويسخرون
بهم دائما - ويلعبون بها ، وهذا زيادة في احتقارها ، وهنا يزيد في المبالغة
فيصور الحركة بكلمة دحط ، وتبلغ السخرية مقتهها بإضافة العتو ، لليل ،
كأنه حمل شدة المنقري بها على الليل أيضا ، فهو من قبيل تماوج الاضواء

والألوان وتأثير أحدها في الآخر ، ، فأراد جمعه بهيما شديد السواد فنتعته بالعتو : ومن الغريب أنه لا يذكر الفاعل بعد (تساق) فيستعمل للمبنى المجهول كأنه لا يعرف من الذى فعل بها الفاحشة ، فكأنهم كثر لا يستطيع إحصاء عددهم ، فبنى الفعل (تساق) للمجهول ، وهذا زيادة في مجرته بهجائها ، وكذلك فقد صرر حركة رفعها والانخفاض بها تصويرا واقعيا لا بكلمة (حط) لحسب ، بل بالفعل (ينهز) من (نهز الدلو) ، فهو دائما أبدا مدلى أنا مصعد به أنا آخر في حركة دائبة .

وكذلك يسخر سخرية لاذعة حينما يشبهه (جس ابن مرة فرجها) بحس الطبيب ، فهو يترفق بها كأنما يعالجها ، مع اختلاف العلاج في كلا الحالين ، فالأولى يعالج فيها من داء خارجى ماضى ، والآخرى من داء داخلى ألا وهو الشهوة .

غمز ابن مرة يافرزدق كينها غمز الطبيب نه انغ المعذور
ولعل في استعماله للفعل (غمز) خبثا ودهاء يدلان على براعة في استعمال الألفاظ ، وكذلك نداؤه الفرزدق في وسط العبارة فيه تنبيه وغمز وسخرية هنيئة ، وهذه أمثلة أخرى لا تحفى فيها السخرية من الكلمات (حط) و (تشاب) :

وجعثن حط بها المنقرى كرجع يد الفالج الأحره
تشاب من طول ما أبركت تشاوب ذى الرقية الأدره

ويسخر منه لما تغزل ، فيلومه أن لم يثأر بينت العظماء : (بنت القيون) :

فها ثارت بينت القيون وتترك شوقا إلى (مهدد)
وهلا ثارت بحل النطاق ودق الخلاخل والمعضد ١٩

ويضحك ساخرًا حينما يشبه النكاح ، بالطعن ، ثم يبالغ ، فيزعم أنها
جرحت ودعا لها الطيب ، ولكن بعد فوات الوقت :

طعنت بأير مقاعسى مخلج فأصيب عرق عجانها النعار
باتت .. تكلف ما علمت ، ولم تكن عون تكلفه ولا أباكرا

دعى الطيب - طيب جمع - بعدما

عصت للعروق وأدبر المسبار

شبهت شعرتها إذا ما أبركت أذن أذب يفره السمسار

أما السخرية العنيفة في تشبيه شعرتها في البيت الأخير يحسها بعناية كما
يفعل السمسار الذي يدقق النظر واللمس ، ويطيل ويبالغ في الفحص ،
فهى في غنى عن التعليق .

ويطعن الفرزدق طعنة نجلاء حين يتباله ، فيتخيل ويزعم أن ثمة حوارا
دار بينه وبين أخته يسألها - إمعانا في الواقعية - من الذى أصابها ؟ أبى مرة
أم صحار ؟ ثم يرد هو قائلا : ليس لها أن تتكلم ، لأن عجانها فاطق وشاهد
بأن كليهما في الحقيقة هما اللذان تداولاها :

قال الفرزدق هل أصابك فى السرى

عمرو بن مرة أو لقيت صحارا

وسألت جمع من أصابك منهم وعجان جمع يخبز الأخبارا

ثم يتهكم بغالب ، ويزعم أن الحسرة أخذت منه كل ما أخذ :

رأى غالب آثار فيشل منقر فما زال منها غالب بعد مهترا

بكى غالب لما رأى نطقا بها من الذل إذ ألقى على النار أبصرا

ولما استغاثت جمع - ولم نجد مغيثا - دافعهم . . . باستها

وهذا أنكى وأمر

نبئت جمعهن دافعتهم باستها إذ لم تجد لمجاشع من يدفع
قال الفرزدق - وابن مرة جامع -

كيف الحياة ؟ وفيك هذا أجمع ؟

والسخرية تنبع من كلمة « وفيك هذا أجمع » كما قال :

لم تلق جمعهن حاميا يحمي استها وبخلجم زبد المشافر تنقي
وقال :

وجدوا الجمعهن - حين قبقت استها - مثل الوجار أوى إليه الأضلع
هدموا وجارك بعد ما خبرتهم ألا تكاد تجوز فيه الإصبع
يبكى الفرزدق - والدعاء على استها - قبحا لتلك غروب عين تدمع
وينطقها أيضا فتقول :

وتقول جمعهن - وابن مرة جامع - خلجا ، رويدا ، قد نزع طحالي
وقد كرر « جامع » كثيرا ولهذه اللفظة دلالتها العنيفة المضحكة .
وأخيرا ... يتمكم بالفرزدق جامعا بين عنفقه واسكتيها :

ترى برصا بأسفل اسكتيها كعنفة الفرزدق حين شابا
ويتهكم عابثا « بسكينة » عمه الفرزدق :

ودت سكينة أن مسجد قومها كانت سواريه أيرور بغال
ويجمع بين « سبال » الفرزدق ، وشرار القين ، ولوع أمه بالقين :
يظل القين - بعد نكاح ليلى - يطير على سبالكم الشرارا
ليلى التي زفرت وقالت حبذا عرق القيامة من خبير يتبع
قفيرة أم القين يثمر بظرها مرارا ، إذ ما عرفج الصيف أثمرا
تسوف صنان القين - من ربه به - ليكمل في ثقب المحالة محورا

هجاء جرير الفرزدق نفسه وسخريته به :

زاه كثيرا ما يستخدم المقابلة الغريبة :

وجد الفرزدق في مساعى دارم قصرا - إذا افتخروا - وطول أيور
ويطعنه في أخلاقه ، فيصور قلة دينه وفجوره حتى يقول هازئا :

فإنك لو تعطى الفرزق درهما على دين نصرانية لتنصرا
منحت الجار أيرك - وهو أعمى - وبئس منيحة الزمن المحمل
تدليت تزنى من ثمانين قامة وقصرت عن باع العلى والمسكرم

وكما قلنا - من قبل - إنه يربط بين المخازى أو السوءات التى يعير بها ،
فهو هنا أيضا يربط حادثة ، نبو السيف ، وولوجه الماخور ، عادلا عن خطته
الأولى من تقييد نفسه لحفظ القرآن الكريم في مطلع شبابه :

لحى الله من ينبر الحسام بكفه ومن يلج الماخور فى الحجل يرسف
وقائلة ما للفرزدق لا يرى على السن يستغنى ولا يتعفف
وما أطفه حينما يتهم به ، فيجمع بين ربطه نفسه بالحجل وعدم ربطه
(حذراء) بالأغلال ، ففرت بذلك منه :

وقد بات مغترا بمدرام قينكم ونام ، ولم يجعل على قيدها قفلا
ومن ناحية هجائه الخلقى ، فإن الفرزدق - لكونه قصيرا قبيح الوجه -
فقد شبهه كثيرا بالقرد :

وهل كان الفرزدق غير قرد أصابته الصواعق فاستدارا؟
وبما يتصل بهذا الهجاء الخلقى الذى يصور الشخص تصويرا كاريكاتوريا
مضحكا سخرية جرير - بالحمة طان - وكان أسود ، وقد رآه جرير يوم عيد
في قميص أبيض :

كما أنه - لما بدا للناس -
أير حمار لف في قرطاس^(١)

وكذلك هجا جرير الأخطل ساخرا ، وأكثر ما استغله في سخريته
 « نصرانيتها » ذات السمات الغربية عن الدين الإسلامى ، فزجها بعضها ببعض
 بالناحية الأنسانية التي يغيظ خصمه ذكرها ، والتي يبرع في تناولها البراعة كلها.
 وأول عنصر نلاحظه في سخريته : « التصغير » ، فيخاطبه دائما بالأخيطل
 ويتحدث عن نسوته « نسية تغلب » والعنصر الثانى هو سمات الدين النصرانى
 التى منها إباحة الخنزير لهم فيقول مثلا :

الضاحكين إلى الخنزير شهوته يا قبحت تلك أفواها إذا اكتشروا
 ويقول :

أتزعم ذا المناخر كان سبطا يهوديا ، ونزعمه أباكا ؟
 ويقرن « الصليب » بأعضاء نسايم في سخرية أليمة مجسمة ، فيقول :
 قالتغلية - والصليب على استها - رجس موقعة العجان ذلول
 ويربط بين نسايم وبين « القس » ، والخنزير والهاب في عبث مضحك
 فيقول :

إذا ما القس نادهم يوما على الخنزير، وإن كشف القدم (١)
 بدان شواءهن بخصيته وهن إلى جمحافله قرام !
 ويقابل - كعادته - بين شىء داخلى يقبح ذكره ، وبين شىء خارجى ،
 فيقول :

والتغلية فى ثنى عبايتها بظر طويل ، وفى باع ابنها قصر
 كما قال للفرزدق من قبل :

وجد الفرزدق فى مساعى دارم قصرا إذا افتخروا ، وطول أيور
 وللأعور النبهانى :

أست لنهانى طال بظرها وباع ابنها عند الفخار قصير
 وأعور من نهان أما نهاره فأعمى ، وأما ليله فبصير !

(١) القدم : شىء تشده المعجم والمجوس على أفوايحها عند السقى ، والمصفاة
 فوق الإبريق .

ويجمع جرير بين القس ، والدير ، والخنزير ، والصليب ، والعباءة ، في
سخرية وعيب لا ذعنين :

قل الأخيطل لم تبلغ موازتي فاجعل لأمك أير القس ميزانا
يا خزر تغلب ما بال نسوتكم لا يستفقدن إلى الديرين تحنانا
ويصفهن ضاحكا وقد سكرن :
لما روين على الخنزير من سكر نادين : يا أعظم القسين جردانا
هل تتركن إلى القسين حججكم ومسحكم صلبهم رحمان قربانا ؟
ويستخدم التشبيه أيضا في سخرية صارخة فجأة :

تلقى بنى تغلب زبا مناخرهم كأن أنافهم بالموصل الكمر
وقال :

هم جردوا للتغليبين نسوة كأن معراهن أفواه أكلاب
ويصور الفم :

تفتت عن قرد المنابت لطلط (١) مثل العجان ، وضرسها كالحافر
ويقول :

شبهت أرآد لحبيها إذا سكرت خصي حمار مذك عند بيطار
وأخيرا نذكر له قوله :

تسوف التغلبية وهى سكرى قفا الخنزير نحسبه غزالا
وقوله :

إذا شربت بالليل قسطين أصبحت شبيها بمجردان الحمار وريدها
وهكذا نرى جريرا قد شق لنفسه طريقا معلنيا في عالم الهجاء الساخر ، ذلك
الأسلوب الرفيع الذى يشفى المتنفس أو الفنان مما به من غيظ مكبوت بلذع
أشبه بالسم القاتل الذى يسرى فى جسم الفريسة من غير ماضجة ولا ضوضاء
وقد ساعده على التفوق فى السخرية خيال خصب ، استطاع أن يكونه من

(١) القرد : السكشير القردان ، جمع قرد : وهى دويبة . والطلط : الغليظ

أربعة عيرب - تلك التي فطن إليها ابن الأثير في المثل السائر - استطاع بعد مزجها بعضها ببعض أن يكون منها الصور العديدة المضحكة ، وبهذا فطن إلى إحدى صور السخرية ذات الأثر الرائع وهي التي أسماها برجسون «تداخل السلاسل» ، وما زالت أقف أمام خيال جرير متعجبا من اقتناص شوارده ، ذلك الخيال الذي يملئ عليه مثل هذا البيت :

ودت سكينه أن مسجد قومها كانت سواريه أيور بغال

أو تشبيهه «الحمه قطان» ، هذا التشبيه المضحك :

كانه لما بدا للناس
أير حمار لف في قرطاس

ولقد فطن جرير إلى مقدرته على السخرية ، فيروى أنه كان يقول :
إذا هجوت فاضحك^(١) . ولقد طارت شهرته حتى قال أبو الشبل في قبعة هددته
بالهجاء تسمى خنساء :

خنساء ، قد أفرطت علينا وليس منها لنا مجير
تاهت بأشعارها علينا كأنما ... جرير^(٢)

وأخيرا فإن سخرية جرير قد شابها أحيانا العنف الصارخ والانتجام إلى الصور الجنسية مما يقف حائلا أمام أدبه إذا أردنا عرضه وتحليله لاستمتاع الناس به ، وما زلت أقول صادقا إن جريرا من أكبر الساخرين في الأدب العربي بل في الآداب العالمية ، ولولا ما شابهه سخريته من صور وألفاظ جنسية لترجمت إلى كثير من لغات العالم .

(١) العقد للفريد (طبعة ١٩١٣ م) ٣ / ٣٩٨ .

(٢) نهاية الأرب ٤ / ٨١ .

السخرية في العصر العباسي:

كان للحنظرة الأجنبية من فارسية وهندية وسريانية وغيرها أثر كبير في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في هذا العصر ، وكان للأدب - مرآة الحياة في شتى وجوهها - نصيب كبير من التطور : فسرى فيه تيار جديد شمل الأسلوب والموضوعات ، وكان لرقى العقلية العربية وازدياد نموها الثقافي واحتكاكها الاجتماعي أثر أى أثر في تطور السخرية وشيوعها ، وبخاصة في ذلك المجتمع الذي انتشر فيه الترف ورغد العيش وشاعت فيه الفكاهة والظرف ، فلا غرابة أن يظهر العديد من الشعراء والكتاب الذين يقسم أدهم بالسخرية : كبشار بن برد ، وأبي نواس ، وحamad عجرد ، وعبد الصمد بن المعذل ، ومنصور الأصفهاني ، والعقبي ، والحدوني وابن الرومي وابن سكرة وغيرهم كثيرون .

أما الكتاب فكان منهم الجاحظ وأبو العيناء وبيدع الزمان الهمداني وأبو العلاء المعري وغيرهم . وكان هناك أيضا الشعراء المجان الذين خاطوا سخريتهم بالمجون إذ كان غالبا عليهم ومنهم أبو العبر ، وأبو غلالة الخنزومي الذي اشتهر برثاء حمارة طياب ، وأبو حكيمة الذي اشتهر برثاء متاعه ، ووهب الذي شهر بضرطته .

وقد مالت السخرية في هذا العصر إلى الأسلوب البعيد عن الجزالة والرصانة ، أسلوب قريب مما يلتهج به الناس في أحاديثهم ، ولذلك يمكن أن نطلق عليه « الأسلوب الشعبي البسيط » سواء في المعاني أو الألفاظ أو الصياغة ، كقول دعبل يسخر من إبراهيم بن المهدي حينما يبيع بالخلافة أيام الفتنة بين الأمين والمأمون :

يامعشر الأعراب لا تقنظوا	خذوا عظامكم ولا تسخطوا
فسوف يعطيكم حنينية	بليتها الأمر والاشمط

والمعبديات اقوادكم لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يرزق أصحابه خائفة مصحفه البربط ١

وشملت سخرية الشعراء التنفيد والهزء بمن تدور حوله الشكوك في
أصله العربي كقول بشار في أبي عمرو بن العلاء :

أرفق بعمرو إذا حركت نسبته فإنه عربي من قواير ١١
وقول أبي نواس في الهيثم بن عدي :

الحمد لله هذا أعجب العجب الهيثم بن عدي صار في العرب
كأنني بك فوق الجسر منتصباً على جواد قريب منك في الحسب

وتشمل السخرية أيضاً ملامح الوجه وغيرها من أعضاء الجسم ، كقول
منصور الأصفهاني :

وجه المغيرة كاه أنف موف عليه كأنه سقف (١)
رجل كوجه البغل تبصره من أجل ذاك أمامه خلف ١
حصن له من كل ناحية وعلى بنيه بعده وقف ١

وقال بشار في ثعلب :

ربما يشغل الجليس وإن كان خفيفاً في كفة الميزان
كيف لا تحمل الأمانة أرض حملت فوقها أبا سفيان

ويتهكم حماد عجرد بعمى بشار ، فيقول في أسلوب قصصى ساخر (٢) :

إن ابن برد رأى رؤيا فأولها بلا مشورة إنسان ولا أثر
رأى العمى نعمة لله سابغة عليه إذ كان مكفوفاً عن الفطر

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٤٩ .

(٢) الحيوان للجاحظ ٢٤١/١

وقال : لو لم أكن أعمى لكنت كما
أكد نفسي بالتطمين مجتهدا
أو كنت إن أنا لم أقنع بفعل أبي
كإخوتي دائبا أشقى شقاءهم
فقد كفاني العمى عن كل مكسبة
قد كان دبري، أبي في الضيق والعسر
إما أجيرا وإما غير مؤتجر
فصاحب شاء شقى الجد أو بقر
في الحر والبرد والإدلاج والبكر
والرزق يأتي بأسباب من القدر

وشملت السخرية الظواهر الاجتماعية ومنها التطفيل، فن أصداء ذلك
قصيدة عبد الصمد بن المعذل في رثاء طفيلي مات وقد غص بلقمة ساخنة
من فالودج (١) :

أحزان نفسي عليه غير منصرمه
على صديق ومولى لي فجعت به
كم جفنة مثل جوف الحوض مترعة
قد كالتها شحوم من قليتها
غيبت عنها فلم تعرف لها خبرا
ولو تكون لها حياء لما بعدت
قد كنت أعلم أن الأكل يقتله
وأدمعي من جفوني الدهر منسجمه
ما إن له في جميع الصالحين له
كوما جاد بها طباخها رذمه
ومن سنام جزور عبطة سنمه
أهني عليك ووبلى يا أبا سله
يوما عليك ولو في جاحم طعمه
لكنني كنت أخشى ذاك من تخمه

وسوف أتناول بالدراسة بعض الساخرين الذين اكتملت شخصيتهم
الساخرة، ووصلنا من أدبهم ما نستطيع أن نلقى به ضوئا على تراثهم الساخر،
وقد وددت أن أضيف إلى عقد دراستي ساخرا من أكبر الساخرين، ألا وهو
ابن الرومي، واسكن ديوانه لما يكتمل تحقيقه بعد، ولذلك أرجأت الانتهاء
من دراسته إلى طبعة أخرى إن شاء الله.

٣ - ابن المقفع :

وما هي شخصية من الشخصيات المتارة الساخرة : تطالعا في أوائل العصر العباسي، وكان للبيئة من جهة، ولما امتازت به من خصال شخصية مميزة فذة من جهة أخرى، أكبر الأثر في طبيعتها بطابع فريد نستطيع أن نلمحه بوضوح في قضاياتها .

إنها شخصية ابن المقفع الذي كان يسمى - كما يقول ابن النديم (١) - روزبه ومعناه المبارك ولم تعرف السنة التي ولد فيها ، ولم يتفق المؤرخون على السنة التي قتل فيها ، إذ يحصرونها بين سنتي ١٤٢ ، ١٤٥ هـ ، ويحدد الدكتور عبد اللطيف حمزة مولده بين سنتي ١٠٦ ، ١٠٧ هـ وقد عاش بفارس ، حيث لأمته يئسها التي كان يميل إليها بطبعه وجرهه كل الميل ، وتشبع بالروح الفارسي والثقافة الفارسية . لذلك فن الطبيعي أن ينتحل نحلة المجوس .

ولم يعرف المؤرخون الكثير عن حياته الأولى ، بل معظمها غامض ، غير أنهم يقولون إنه انتقل إلى البصرة التي كانت في ذلك الوقت إحدى العواصم الكبرى التي كان يفر إليها من تسمو أنفسهم إلى المعالي ، وهناك عاش مولى لآل الأهم ، فأخذ عنهم الفصاحة ، واستطاع عن طريقهم أن يتصل بأمراء العرب والأعراب ، وكان كثيرا ما يستمع إليهم ، ويأخذ عنهم العربية الصحيحة .

ولم يلبث قليلا حتى عرف ذكاؤه وقوة قلبه ، وحسن كتابته ، فاتجه إليه الولاة والأمراء يطالبون إليه أن يكتب لهم في دواوينهم ، ويتقلد عندهم بعض الوظائف التي كان يشغلها أمثاله من الموالي في ذلك الوقت ، وقد ذكر د. حمزة أن يزيد بن عمر بن هبيرة (١٢٧ - ١٢٢ هـ) ربما كان من الأمراء الذين كتب لهم ابن المقفع ، وبذلك يمكن أن يكون هذا الوالي وصلة لابن المقفع لأن يطلع على كثير من أمرار الدولة الأموية الزائلة التي كان نجمها إذ ذاك آخذا في الانقراض .

وبعد موت يزيد ، قيل : إن ابن المقفع كان يكتب لأبيه داود بن عمر ابن هبيرة . وقال الجهمشيارى إنه كتب أيضاً للمسيح الخويلى والى سابور قبل سفيان بن معاوية ، وقد يكون المسيح الخويلى هو الذى سلب ابن المقفع على سفيان بن معاوية ، حتى استطاع المسيح فى نهاية الامر أن يهزم سفيان بعد أن أوغر صدره من ابن المقفع^(١) .

انضمامه إلى العباسيين وإسلامه :

ولما انقضت الدولة الأموية ، وجاءت على أثرها الدولة العباسية ، أخذ يبتغى الوسيلة للاتصال برؤوسها ، حتى تمكن أخيراً من الكتابة لأعمام المنصور : فكتب ابيى بن على والى الأهواز ، ولزم بعض بنى أخيه إسماعيل ، يؤدبهم ويشغلى بتعليمهم وتهذيبهم ، ثم اشتغل كاتباً لأخيهما سليمان . ولما سمع صبياً يقرأ القرآن ، أخذته روعته ، فذهب إلى هبسى بن على ليسلم فأسلم .

موقفه السياسى :

كان الموالى من الفرس يقصدون بدعوتهم العلويين ، فلما لم ينجحوا فى إيصال الخلافة إليهم ، وكانت من نصيب العباسيين ، أحبوا أن يصلحوا خطاهم ، ويظهروا الميل إلى العباسيين ، ولكن هؤلاء لم يخف عليهم أمر الموالى ولا أمر زعيمهم أبى سلمة الخلال بنوع خاص ، وفكروا لذلك فى القضاء عليه وعلى الرجل الآخر وهو أبو مسلم الخراسانى ، فأغروا كلا من الرجلين بالآخر حتى قضيا . ولذلك لم يكن الموالى من الفرس يميلون إلى العباسيين ، ولم يكن ابن المقفع عباسى الهوى أو كان هربى الميل ، ولكنه كان علوى السياسة فارسى النزعة ، فهو على الأقل كان لا يحب العباسيين ، ولا يشعر قلبه مودة خالصة لهم ولا لخلفائهم .

إذن كان ابن المقفع من أعداء الدولة العباسية ، ومن المتظاهرين فى

الوقت نفسه بطداقتها ، وربما أنه اكتسب الخلق السياسي الأخير من دراسته
لتاريخ الفرس^(١) . ويظهر أن الخليفة المنصور كان يفهم ذلك عنه ، فلم
يستخدمه للكتابة له ، بل كان له يد طويلة في قتله كما كانت له في قتل غيره من
علاء الفرس كآبي سلة الخلال وآبي مسلم الخراساني أو الزعماء المناوئين له
مصرعه : ~~من العلويين .~~

يذكر المؤرخون في مصرعه عدة أسباب ، ~~بعضها~~ مباشر ، فما يذكر في ذلك : حقد المنصور عليه ، لأنه هو الذي كتب
« الأمان » ، الذي كلفه بكتابته أعمام الخليفة المنصور لأخيهما الثائر عليه
عبد الله بن علي ، ويقال إن ابن المقفع كتب الأمان وبالغ في احترامه من
كل تأويل يقع عليه فيه ، بل أمرف في تركيد الأمان ، فلم يتها لآبي جعفر لإيقاع
حيلة فيه لفرط احتياط ابن المقفع ، فامتلا قلب الخليفة غيظاً وخفيظة على
كاتب الأمان فقال : « فما أحد يكفيني ؟ »

أما السبب الآخر المباشر في قتل ابن المقفع فهو شدة نقمة سفيان المهلبى
عليه لأشياء كثيرة : منها قصة المسيح الخويلدى الذى قيل إن ابن المقفع كان
يكتب له قبل مجىء سفيان بن معاوية ، وهو الذى أوغر صدره على ابن المقفع
حين أخذ هذا جانب المسيح ضده ، ومن أسباب غضب هذا الوالى أيضاً :
احتقار ابن المقفع له ، ذلك الاحتقار الذى يظهر فى سخريته به سخرية قاتلة ،
أرثت العداوة فى قلبه حتى جعلته يودى به . وقد قتل ابن المقفع غيلة وغدراً ،
وتذكر فى ذلك روايات أشبه بالأساطير ، والعجبه عظيم فى رواية مقتل
عبد الله بن علي حين أقدمه أخواه - بعد أن أمته الخليفة - وبين الرواية التى
تروى فى مصرع ابن المقفع ، ومن الأسباب التى تعزى فى مقتل ابن المقفع

(١) ابن المقفع لعبد الطيف حمزة ص ٦٤ .

رميه بالزندقة، وشهرته بهذه الصفة، ويمكن أن تكون السبب الأقوى الذى تذرع به الخليفة فى قتله كما قتل غيره بها فى عهد العباسيين وبخاصة المهدي .
ولعل من أسباب قتله أيضا : أنه رجل فارسى ، يعمد - لحنقه وغيظه - إلى السخرية من العرب ، وهو فى الوقت نفسه لا يفتنى أن يذيع فى الناس شيئا من أخبار أجداده الفرس وديانتهم ، وهو لهذه الأسباب كان رجلا من كثير الأعداء ، ولا بد لهؤلاء جميعا أن يكون سبب الذى قتلت الرجل :
الذى يلصق بها بهمة - رتد برنامج ثورة ، موجهة إلى المنصور ، وهى مستحابة ، وفيها تشريع جديد من عمل الكاتب يقترحه على الخليفة ليعمل به فى أمور شتى ، كان أهمها أمر القضاء الذى كثرت فيه الأقوال ، وأصبحت بسببه الدماء مباحة مرة وكان من حقها أن تحقن . ومحرمة أخرى وقد كان من حقها أن تهدر ... إلى غير ذلك من المقترحات المطيرة التى تتصل بحاشية المنصور وعماله المقربين إليه الذين طعن فيهم من طريق غير مباشر ، فكانت تلك المقترحات بمثابة ثورة عظيمة قام بها الكاتب ضد النظم القائمة ، ووجه فيها الكلام إلى هذا الخليفة الطاغية .

وأخيرا ، يضيف الدكتور حمزة - إلى كل ماسبق من أسباب فى قتله -
ثروته كائلة ودمنة ، وما أخنى فى ثناياه من تعريض بالمنصور ، وبما اشتهر عنه من جور وحب سفك الدماء .

ابن المقفع المفكر :

كان ابن المقفع صاحب عقاية كبيرة ، أبت إلا التفكير المستمر ، وتسلط
أضواء الفكر على كل ما حوله من نظم سياسية واجتماعية وغيرها ، فوجدها
أمام منظاره المكبر مليئة بالأخطاء ، فحاول نقدها ، ورسم الطريق الصحيح
الذى يجب أن يسير فيه المصلحون أو من يدعون أنهم يحبون الإصلاح

كالخليفة والولاء، ولم يفتأ يذيع آراءه مجاهرة مرة، وبينه وبين من يظن فيهم الولاء له مرة أخرى، وتليها مرة ثالثة، وتعرضا مرة أخرى وهكذا...، وليس من السهل أن تقبل الطبيعة البشرية النقد بسهولة أو بصد رحب، فما بالك بالخليفة، ذلك العربي القمح الذي تعود السيطرة وعدم الإذعان لمن هو أقل منه، وبخاصة إذا كان هذا الناقد يشتهر بقلة الدين أو الزندقة، وأنه فارسي ينتمي إلى العنصر الذي نأوا العرب منذ القدم، والذي يحاول أن يحول دفة الحكم من العباسيين إلى العلويين، أو بالأحرى من العرب إلى الفرس... كل هذا وذاك كان السبب في عظمة الكاتب من جهة، وكان السبب في مصرعه من جهة أخرى.

أخلاقه :

إذا كانت الشخصية الإنسانية تتأثر كل التأثر بمأمل البيت والوراثة فقد تأثر ابن المقفع بتلك الصفات الخاصة المميزة للشعب الفارسي من ناحية الجنس، أما من ناحية الآباء والأجداد، فلم يذكر المؤرخون عنهم شيئا حتى نستطيع أن نقرن بين أخلاقه وما أثر عنهم، ونمزج بين هذه وتلك، فستمكن من استنباط شيء من صفاته يميزه بعض التميز أو كل التميز في ناحية أو أكثر من نواحي حياته أو شخصيته.

أما من ناحية عصره، فقد كان عصر انتقال من الدولة الأموية العربية إلى الدولة العباسية الفارسية، وتمتاز عصور الانتقال عادة بأنها عصور الترد والمجاعة والشك، وبأنها عصور النشاط والحركة وحرية الفكر وتناول كل شيء بالنقد^(١) ولذلك طبع ابن المقفع بطابع عصره، من ميل إلى إنفاذ فكره في كل ماحوله، وحرية تجعله يبدي رأيه في كل ماتهع عليه عيناه،

(١) ابن المقفع للدكتور حمزة ١١٢.

إلى عين نافذة لا تكاد ترى عيباً إلا تنهت له ، ومن ثم أرادت أن تنجر به وتقتلعه . ومما ساعد ابن المقفع على ذلك طبيعة عقله التي تنزع أبداً إلى المثل الأعلى وأصدق مثال على ذلك كتابه « الأدب الكبير » وطبعه عصره بطابع الحذر والأخذ بالتقية ، الكثرة ما سفك في أيامه من دماء على يد ابن مسلم من جهة ، والخليفة العاني من جهة أخرى .

وأدى به عقله الشاك وعصره المضطرب إلى الحيرة التي كانت تقهر عليه في كثير من الأحيان ، حتى اضطرب بين عدة ديانات هي المزدكية والإسلام والمناوية . وقد انتشرت في الأقاليم التي تقل بينها وذاعت في العصر الذي عاش فيه ، وكان كثير الشكوك الدينية ، وقد ظهر أثر ذلك فيما كان يفلسف من حديث كان يدور بينه وبين أصدقائه ونظرائه من كان يختلف إليهم بالبصرة ويختلفون إليه بها : كطبيع بن إلياس ، ووالبة بن الحباب ، وحماد عجرد ، وبشار بن برد ، وأبان اللاحقي وغيرهم ، ومما يدل على شكه ما ختم به باب « بعثة برزويه » الذي كتبه في أول كاية ودمنة ، إذ قال : « فصار أمرى إلى الرضا بحال وإصلاح ما استطعت من عمل لمعادي ، لعل أصادف فيما أمامي زماناً فيه دليل على هداي ، وسلطان على نفسي ، وأعوان على أمرى » .

وقد ظهرت تلك الحيرة وذلك الشك في ذلك الباب الذي صدر به « كاية ودمنة » ، وحاول به إخفاء شكوكه الدينية بعبارات إسلامية يرضى بها الرأي العام ، إذ قال على لسان برزويه : « فلما ذهبت ألقت العذر لنفسى في لزوم دين الآباء والأجداد ، لم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقة ، بل وجدتها تريد أن تتفرغ للبحث عن الأديان والمسألة عنها ، والنظر فيها » . ثم أخذ الكاتب بعد ذلك يسوق الأمثلة الكثيرة لكل حالة من حالات العقل عندما يكون واقفاً تحت تأثير هذه الشكوك الدينية المجهدة ، ومما يؤيد هذه الشكوك نفسها ذلك الكتاب الذي نسب إليه ، ورد عليه . فيما بعد -

القاسم بن إبراهيم بكتاب غوائه ، الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه
لعنة الله آمين ، وذكر في أوله : « حكم فيه لنفسه بكل زور وبهتان ، فقال
من عيب المرسلين ، واقتري الكذب على رب العالمين » .

ويقول بعض الكتاب إنه كان إلى جاب ذلك يتسم بشيء من الظرف
والمحانة تجمله يجلس ويصادق بعضا من ظرفاء عصره ، في مجلس الشراب ،
وكان مرييا سخيا يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه ، وكان يميل
- بطبيعته الفارسية - إلى المجون واللهو إذ ذكره أبو الفرج الاصفهاني ضمن
جماعة يجتمعون على الشراب وقول الشعر ، ولا يكادون يفترون ، ويهجو
بعضهم بعضا هزلا وعمدا وكلهم متهم في دينه^(١) .

(١) غ ١٣ / ١٣٢ : ولاني لأعجب من صاحب هذه الشخصية التي تبدو في
ما أثر عنها من مؤلفات حكيمة مفعنة في الحكمة ، متعذرة تكاد تكون قاسية في
انها ، ثم يروى عنه أنه كان يجلس في بعض الأحيان بجالس لا يجلسها إلا
المجان الذين تختلف أحاديثهم ومجالسهم عن الحكماء الفلاسفة أمثال ابن المقفع :
وقد يرد على ذلك بأنه لا غضاضة في أن يروح الفيلسوف عن نفسه بعض
الترويح بالجلوس إلى أهل الظرف والمحانة ، فإن لم يظرق معهم جميع الأبواب
التي يظرقونها ، فلا أقل من أن ينعم بالانس إلى جانبهم وبخاصة أنهم كانوا
يشاركون معه في ناحية عقلية واحدة هي الشك في الإسلام أو الأخذ بمذاهب
الزنادقة وغيرهم ممن كانوا على أديان الفرس المترارثة . ولكن مهما يكن من أمره
فإن شخصية ابن المقفع في مهتزة مخيلتي لدرجة أنني لا أستطيع - بمواصلته ومناقضته
عنه - أن أحيط بصورته إحاطة تامة كما ينبغي ، أو أن أرسم له صورة أطمئن إليها
كل الملاحظين ، ولعل مجرد ذلك إلى عدم اجترأ أهل عصره - سياسيا أو دينيا -
أو كليهما - على الكتابة عنه بشيء من الحرية اللازمة ، أو عدم وصول أخبار
كاملة عنه نستطيع بها أن نكون ما نريد من إطار قوى واضح .

ويصل جمال المؤرخين به وعدم اجترأهم على الكلام عنه إلى حد أن كتابا
واحدا من كتب التاريخ التي اهتمت بتدوين الحوادث على حسب السنين لم تذكر
حتى سنة وفاته ، مع ماله من جليل القدر والميزة في الكتابة وذلك بمرارته بين هم
أقل منه شألا والذين ذكرت سنة وفاتهم .

وكان يميزه شيء من خفة الروح . واليل إلى المرح والدعابة ، ولكن المؤرخين لم يرووا الكثير عن هذا الجانب من حياته : إما لأنه كان يترفع عن التبذل أمام الناس ، وإما لأنه لم يعيش طويلا ، ولم يجرؤ أحد من عصره على كتابة أخباره لما ذاع عنه من زندقته .

على أن أظهر خصلة بلورت أخلاقه كلها وطهاهه هي روح السخرية التي سببها إحساسه وشعوره بالكرامية للعرب الذين أدالوا دولة الفرس وسيطروا على بلاده تمام السيطرة ، ومعاملتهم إياهم موالى فلا يفتأون يشعرون بالذلة والهمانة وبخاصة في الدولة الأموية . وقد روى ابن عبدربه . وابن برد كثير من الأخبار التي تدل على عظيم احتقار العرب للفرس ، هذا إلى جانب شعوره بالميزات العقلية والفنية التي وهبه الله إياها ، وإلى أنه لم ينل ما كانت تصبو إليه نفسه ويطمح إليه من مناصب عالية في الدولة الجديدة التي انتزعت عن كانوا أحق بها في نظره ألا وهم العلويون هؤلاء الذين كان من المحتمل أن يرفعوه إلى المقام الذي كان يأمل أن يصل إليه لو نجح الثائرون الذين كتب لهم من قبل - وهم أعمام المنصور - في إدالة دولة العباسيين والظفر بالحكم .

كل هذا - ولا شك - ولد السخرية في نفسه ، تلك السخرية التي كانت تختفي أحيانا في أعماقه ، وتطل برأسها في كتابته ، وكانت أحيانا أخرى تظهر على لسانه حينما كان يعبك ببعض الناس . ولعل أكبر هدف سدد إليه سهامه اثنان : أحد الحسكام في عصره وهو سفيان بن معاوية ، والهدف الثاني الذي استهدف لسخريته تلك الأمة التي كان يتعالى عليها ويحتقرها في قرارة نفسه ، وبخاصة كلما قارن بين ماضيها وماضى أمته .

أما سفيان بن معاوية بن يزيد المهلبى : فلم يورد المؤرخون عنه الكثير ، وكل ما نستطيع أن نورده هنا : هو أنه قد حقد على ابن المقفع ، لاتصاله بعده وسلفه المسيح الخويلدى الذي كتب له ابن المقفع قبل أن يخلفه معاوية على ولاية سابور ، فانضم ابن المقفع إلى المسيح . وكان هذا الذي أوجر

صدره على ابن المقفع ، وبما أغضبه أيضا سخرية الكاتب به . فلهذا :
ابن المقفع كان يسأل سفيان عن يومئذ لسفيان : ما تقول في شخص مات
أخطأت بمخزوبة ؟ أراد بذلك أن يسخر منه على مسمع من الناس
ومرأى . وقال سفيان يوما : ما ندمت على مكوت قط - وكان ابن المقفع
جالسا - فقال : الخرس زين لك ، فكيف نندم عليه ؟

وبما أوجع سفيان سخرية ابن المقفع بأنفه - وكان كبيرا - فيروى أنه
كان إذا دخل عليه قال : السلام عليكما ! يعني بذلك سفيان وأنفه : وإن هذه
السخرية من عضو مادي طبيعي باق بقاء صاحبه ، لموجة مؤلمة ، لأن أثرها
لا يفتأ يعتمل في النفس البشرية ما دامت على قيد الحياة ، إذ أنه ليس
عيباً يمكن استئصاله فيمنع بذلك الساخر من اتخاذ هدفه لسخريته ،

وقد سخر ابن المقفع أيضا من العرب ، كما سخر بهم الموالي جميعا شعراء
وكتابا كبشار وأبي نواس وغيرهما ، وكان ذلك رد فعل لمعاملتهم كموالي
وتحوصا في العصر الأموي . ويذكرون في معرض التدليل على ذلك أنه
التقى ببعض أصحابه في المريد ، فسألهم : أي الأمم أعقل ؟ فأخذوا يسردون
عليه أسماء الأمم الواحدة تلو الأخرى ، فبدأوا بفارس ، فقال : إنهم ملكوا
كثيرا من الأرض ووجدوا عظماء من الملك ... فاستنبطوا شيئا يعقو لهم ،
ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم !

قالوا : الروم أقال : أصحاب صنعة !

وهكذا أخذوا يعددون أمامه الأمم كلها : الروم ، والصين ،
والهند ، والسودان ، والترك ، والخزر ... ثم قالوا له ، فقل . قال : العرب (١)

(١) وهو في ذلك يشبه سقراط في ادعائه الجهل وسؤاله الحاضرين وهو

عندهم . . . ثم تفوقهم أخيراً على سائر الأمم ، فأخذ يمدح العرب ، ويذكر أصلهم وجملهم وهو فيها يتعلق العرب من حيث يحقد عليهم ويحسد لهم حيث يستخف بهم ، جلساؤه أولاً حين قال : إن العرب أعقل الأمم ، ومن أجل ذلك ألح هو في مدحهم ؛ لينخفي ما يمتثل في نفسه ولا يمكن لاشك أن جلساءه كانوا يفتنون إلى ما بأعماقه جيداً ، وكانوا يدركون أنه يريد أن يقول لهم : إن العرب قوم لا حظ لهم من الحضارة أو الرقي ، وهم جوع لا يجدون ما يأكلون ، ومع ذلك فقد فتحوا الفتوح ، وملكوا الأمصار وهم لا يستحقون من هذا كله شيئاً .

مؤلفات ابن المقفع (١) :

يذكر لابن المقفع كثير من المؤلفات ، وصل إلينا بعضها ، وضاع بعضها الآخر ، وما وصل إلينا ينقسم قسمين :

أحدهما يبيح في الأخلاق والاجتماع : كالأدب الكبير والأدب الصغير ، ورسالة الصحابة : أما الأولان فكان فيهما نافلة أكثر منه مبتكراً ، وكان حريصاً على أن يكثر فيهما من إيراد حكم الفرس وأمثالهم ، حتى يملأ أذهان الناس بهذه الحكم والأمثال . وأما رسالة الصحابة ، فكان فيها مؤلفاً نافلاً نعى فيها على الصحابة - وهم رجال البلاط أو بطانة الخليفة - لجورهم وظلمهم ، وعن ذكرهم ابن المقفع أيضاً : القضاة والجند وعمال الخراج . وأما ما لم يصل إلينا ، فيذكر منها : كتاب قنبر ، والفتح ابنه ، والابن نافع ، وهي كتب تاريخية .

أما ما همنا من كتبه جميعاً ، إذ هو الذي يختص به بحثنا ، فهو كتاب :
« كلية ودمنة » .

كائلة ودمنة :

والكلام كثر حول هذا الكتاب ، تكلم عنه الأقدمون ، وأفاض في الكلام عنه المحدثون ، شكروا في هذا الكتاب : أترجمه ابن المقفع كما زعم في مقدمته ، أم ألفه ؟ قال ابن خلدون : « ويقال إن ابن المقفع هو الذي وضع كتاب كائلة ودمنة ، وقيل : إنه لم يضعه وإنما كان بالفارسية فنقله إلى العربية ، وإن الكلام الذي في أول هذا الكتاب من كلامه ، . وذكر الدينوري في الأخبار الطوال نصا يدل على أن الكتاب قديم قبل ابن المقفع ... أن كسرى بن هرمز سار إلى بهرام ... وانصرف إلى كسرى ، فكان مما أخبر به : أن بهرام إذا نزل المنزل دعا بكتاب كائلة ودمنة ، فلا يزال منكبا عليه طول نهاره ، (١) .

ومما يؤيد الرأي الأخير أن هرقل Hertel عثر على بعض الأصول الهندية المسماة « البانشتانرا » (٢) ، ومعناها « المقالات الخمس » ، ومن ثم لم يعد أحد يشك في أن بعض هذه القصص هندی الأصل ، ولو أن ذلك لا يمنع من أن تذكر هذه القصص نفسها تطورت بعد .

وبهذا يدور بأذهان الباحثين سؤال آخر ، وهو : إذا كان الكتاب قديما ، فهل هو هندي حقا أم فارسي لم ينسب إلى الهند إلا لزيادة قيمته أم هو هندي أصناف إليه الفرس أبرابا ، ثم نسبوه كله إلى الهند ؟ وأخذ الباحثون يبحثون في الكتاب وقصصه من الناحية الموضوعية . فوجدوا أن هذا الكتاب يخلو من أثر للمجوسية وبه بعض الآثار الهندية ، كالكلام عن الدراويش

(١) الأخبار الطوال ص ٨٩ .

(٢) ترجمه الأستاذ الدكتور عبد الحميد بونس عن الإلهامية وطبع في الكويت

والرهبان والنار المطهرة والحيوان المقدس في قصة « الناسك وابن عرس » ،
وفكرة تحريم البوذية أكل اللحم في قصة « اللبؤة الممتنعة عن أكل اللحم » ،
وكذلك اشتقاق الكلمات : « كايلا » ، و « دمنه » ، و « شربة » ، من أصل هندي حرفت
عن « دمنكا » ، « كاراتاكا » ، « شرباكا » .

وانتهى « باحثون من بحثهم إلى : إثبات بعض أبواب جزموا بأنها
فارسية : كباب « بعثة برزويه إلى بلاد الهند » ، « رباب « ملك الجرذان » ، الذي
يرى فولد كنه أنه لا بد أن يكون من إضافة الفرس .

وعلى كل ، فلا شك أن الكتاب مر بأدوار كثيرة وبطبقات وأجناس
مختلفة من الناس ، وتداولته الأيدي والعقول جهلاً بعد جيل منذ أن بدأ
المؤلف الهندي - كائنا ما كان عقله - يجمع قصصه ثم يتلفه المؤلف
الفارسي - كائنا ما كان شعوره وعقله وتفكيره - يترجمه إلى لغته من جهة ،
ويضيف إليه من عبارات وقصص ، ويصبغه بالصبغة الفارسية والروح
الفارسي من جهة أخرى ، ويستقل من مترجم فارسي له أهواؤه ونزعاته إلى
فارسي آخر يختلف عن صنوه نزعات وأهواء ، حتى يصل بعد عدة قرون
من تأليفه ، أو إن شئت الصدق في التعبير ، بعد عدة قرون من تحريفه أو
جمعه جمعاً ما ، حتى يصل إلى ابن المقفع ، الذي لا شك قد قرأه مرة ومرتين
وأكثر ، ثم أمعن فيه فكره المرة بعد المرة حتى تمثله في أعماقه ، فصادف
منه هوى لأن يترجمه ، إعجاباً به من جهة ، ولا تخاذه وسيلة من وسائل التعبير
عما في نفسه من جهة أخرى وربما كان الغرض الأخير هو الغرض الأهم
الذي دفع الفيلسوف الفارسي إلى ترجمة هذا الكتاب ، إذ أن كل كائن حي
لا يستطيع إلا أن يعبر عما يشعر به من فرح أو ترح ، وأن يخرج شعوره
إلى خارج نفسه أو بعبارة أرسطو - « أن يطهر عواطفه » - كما قال في كتابه
Poetica ولا بد أن يسلك ابن المقفع مسلك الإنسان المثقف المتحضر ،
الذي يقاوم هذا الجبروت الذي سله المنصور على أبناء عصره . لذلك كله اتخذ من

الحيوان الأصغر في كآلة ودمته ، لسانا ناطقا لأن يعبر عن حقه وكرهه
آما ، واستخفافه واحتقاره أنا آخر لهذا الجبار الذي خشي الناس في عهده
التعبير عما يحسونه من ظلم ، لدرجة أنهم يقصرون قصصا أشبه بالأساطير
في ذلك ، منها أن سهما عثرا سقط بين يدي المنصور وفيه :

أحسن ظنك بالأيام إذ حسنت
ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسألتك الليالي ، فاغترت بها
وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وانضح أن رجلا من همدان سجنه الوالي ليسلب ضيعته هو الذي فعل
هذا ، وقد ذكر المسعودي قصصا كثيرة في تعذيب العلويين حتى بلغت القسوة
بالمنصور أن قتل أحدهم ، ثم أرسل برأسه إلى أخيه في السجن المظلم ،
ووضعت في حجره وإذا به يلتفت إلى الربيع ويقول - وفي قلبه
مرارة الآسى وفي عينيه ظلمة السجن وعلى لسانه هزة الفاني : دقل اصاحبك
قد مضى من يومنا أيام ، والملتقى القيامة ، ويقال إن المنصور قبل أن يموت
بأيام ، قرأ بيتين على جدار :

أبا جعفر ، حانت وفاتك وانقضت
سنوك ، وأمر الله لأبد نازل
أبا جعفر ، هل كاهن أو منجم
يرد قضاء الله ، أم أنت جاهل

ويقال إنه لم يكن أحد يجرؤ على مجاهرة المنصور بأفعاله ورفض عطاياه

(١) المسعودي : مروج الذهب ٣ / ٢٢٢ وقد اعترف المنصور بأنه جبار
في قصة أ. ردما المسعودي في المرجع السابق ٣ / ٢٢٢

بشتم وإباء وتمنع غير عمرو بن عبيد الذى كان يعظ المنصور حينما يطلبه.
وهكذا نرى إلى أى حد ساد الناس الظلم والعسف والتعذيب أيام المنصور
وقتل من يتصدى للمعارضة ، ولذلك كان على ابن المقفع أن ينقد هذا
الأسلوب الوحشى الدامى فى الحكم ، فاستطاع - ولا شك - أن يصل إلى
مأربه من خلال قصص كليلة ودمنة وعبارات بالانزير فى هذه العبارات ،
بل وصيغ أسلوبها بأسلوبه ، حتى يمكن أن نقول : إنها هيكل عظمى
اكتسب بأسلوب ابن المقفع ، وغذاها بأرائه وأفكاره التى أوجتها فى عبارات
كليلة ودمنة : قال البارون دوساسى وربما كان من العسير علينا أن
نقول : إلى أى حد استطاع ابن المقفع أن يتحلىل من النسخة
البهلوية أو يبعد عنها ؟ ، وقال د. عبد اللطيف حمزة رحمه الله : أثبت
ابن المقفع فى ترجمته العربية أنه كان لا يتقيد كثيرا بالنسخة البهلوية
التي اتصل بها ، كما أثبت أيضا أنه كان يرمى من وراء كتابه إلى
أغراض كثيرة رمز إلى بعضها : منها أنه أراد أن يخاطب فيه عربا سذجا
يظهرهم على آثار أسلافه من الفرس ، ومنها أنه أراد أن يرجع الكلام فيه
إلى خليفة داهية كان - لبطشه وطغيانه - لا يستطيع أحد أن يلفته إلى
أخطائه ومعايبه ، ومنها أنه أراد أن يشكك المسلمين فى دينهم الذى كان
وحده مدعاة إلى فخرهم على غيرهم من الأمم : فكيف كان يتسنى لابن
المقفع إذن إدراك هذه الأغراض جميعها ، إن هو قيد نفسه بالنسخة البهلوية
التي اتصل بها ؟

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنه كان يبلغ به التصرف إلى أنه يحذف
الجملة أو الفقرة بتمامها من النص البهلوى ، وذهبوا إلى أنه كان

يضيف الفصل الكامل إذا احتاج الأمر ، والأمر قد احتاج فعلا إلى أن يضيف الباب الأول وهو مقدمة الكتاب لعلي بن الشاه الفارسي ، والباب الثالث في عرض الكتاب ترجمة عبد الله بن المقفع والباب السادس وهو باب الفحص عن أمر دمنه ، والباب السادس عشر وهو باب الناسك والضيف ، والباب العشرون وهو باب البطة ومالك الحزين ، والحادي والعشرون وهو باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين ، ويميل الدكتور حمزة إلى إضافة باب « برزويه المتطبب » إلى ما وضعه ابن المقفع .

ومما يدل على أن ابن المقفع قد أخضع الكتاب كله إلى أسلوبه ، وتصرف فيه بما يمايه عليه مزاجه وشعوره ، أننا لا نجد اختلافا بين الأبواب التي ثبتت بدليل قاطع أنها هندية ، والأبواب التي ثبتت بدليل قاطع أنها كتبت بأسلوبه ولم يترجمها عن غيره .

ويدل على تصرف ابن المقفع بما يمايه عليه هو أن تلك الإضافات التي نجدها في نسخته ما ، ولا نجدها في نسخة أخرى من النسخ القديمة التي وجد أصلها ، وأعني بها النسخة القديمة التي نشرها الأب لويس اليسوعي سنة ١٩٢٢ ونسخة الأخرى التي نشرها عزام ، وقد قرأتها قراءة فاحصة ثم قارنت بينهما في عدة مواضع أهمها قصة « إبلاد وإبلاد وإيراخت » فوجدت القصة مختلفة في نسخة منها عن الأخرى .

وأخيرا يقول تولدكه : « يجب أن نلاحظ أن ابن المقفع لم يكن مترجما دقيقا في جميع الأحوال ، وإنما كان محررا فحسب . . . » وقد اعترف البيروني أن « كيلة ودمنه » تردد بين الفارسية والهندية ، ثم العربية والفارسية وعلى السنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه كعبد الله بن المقفع في زيادته باب « برزويه » فيه ، فاعسدا تشكيك ضعيفي العقائد في الدين ، وكسرهم (م ٩ - السخرية)

للدعوة إلى مذهب المانوية ، وإذا كان متهما فيما زاد ، لم يخل من مثله فيما نقل^(١) .

من هذا كله نعرف إلى أى حد كان ابن المقفع واسع التصرف في النسخة البهلوية لـ الكتاب كليله ودمنة . وأستطيع أن أقارن هنا بين ابن المقفع الفارسي ، وبين رابليه الكاتب الفرنسي Rebelais مؤلف Pantagruel ذلك الكتاب المليء بالسخرية من طبقات كثيرة ، والذي أثار نقاشا حادا وبمحا مستفيضاً حول ما يقصده المؤلف من هذا الكتاب: وهو يخلط في شخصياته خطأ عجباً متعمداً أن يربك من بعده من الناقدين ، فتارة يذكر أشخاصاً حقيقيين بأسمائهم الصحيحة ، وتارة يستر أشخاص كتابه بقناع خفيف ، يشف عما تحته من أشخاص حقيقيين ، وطوراً ثالثاً يستخدم شخصيات خلقها بخياله ، فاختلف النقد لذلك في تفسير الغرض من هذا الكتاب : فقليل إنه هجاء سياسي شخصي ، وقيل بل هو نقد للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وقيل إنه دفاع عن الفلسفة المادية الأبيقورية التي تنادى بالبحث عن حياة لذينة ممتعة ، وأخيراً ذهب بعض النقاد إلى أنه مخادعة ماكرة من مؤلف ماهر أراد بها أن يضال قراءه، فيوهمهم أن شيئاً مقصوداً يكمن وراء هذه الألفاظ ، وعليهم أن يتعقبوه ليكشفوا عنه ، وكل ما قاله النقاد عن رابليه ، بل كل ما قصده رابليه، نرجح أنه الذي قصده ابن المقفع من غير أن يفصح به في كتابه أو حديثه مع أهل عصره ، ولكن - ككل ساخر متحفظ محتاط - أحاط كتابه بمسحة أجنبية : فارسية هندية من حيث موضوع المقدمة ، وأسماء الأشخاص ، ونسبه المقدمة إلى بهنود بن سحوان الذي يشك بعض الباحثين في نسبتها إلى هذا الشخص الخيالي الذي لم يسمع به في التاريخ ، كل ذلك ليبعد القراء عن الغرض الحقيقي من ترجمه أو تأليف

(١) تحقيق ما للهند من مقولة للبيروني ص ٧٦ .

هذا الكتاب ، وليتخذ من تساؤل القراء عن الغرض من تأليف هذا الكتاب ستاراً يخفى - على الأقل - شخصية المؤلف الحقيقية أو الباعث الحقيقي لتأليف هذا الكتاب إخفاء أدياً أو على الأقل مدة حياة ابن المقفع الذي كان يخشى كل الخشية أن يصاب بأذى إن هو كشف أمره ، وليست صورة مصرع صديقه عبد الحميد الكاتب بعيدة عن ذهنه أو ذاكرته .

وايس أدل على هذا من ذكره في المقدمة التي لا يشك باحث في أمه كتبها بقله ، تلك العبارة بعد أن عدد الأغراض الثلاثة من ترجمة هذا الكتاب :

« والغرض الرابع وهو الأقصى - وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة (١) . (والعجيب أن عنوان الباب في جلّ المراجع يذكر هكذا باب عرض الكتاب لا غرض الكتاب) . وبما نلاحظه أنه أوماً إلى غرضه في إصلاح الملوك تصريحاً ، حينما ذكرهم في الغرضين الثاني والثالث فقال : « والثاني : إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان : ليكون أنسا لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة في تلك الصور . والثالث : أن يكون على هذه الصفة ، فيتخذ الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك اتساعه ، ولا يبطل ، فيخاف على مرور الأيام ، ولينتفع بذلك الصور والناسخ أدياً . فنلاحظ أنه لا يلح - بعد ذكره الملوك - في النصيح لهم ، والإبانة عن غرضه إبانة ظاهرة مباشرة ، بل يعقب على ذلك بذكر : « السوق و انتفاع الصور والناسخ به أدياً . »

إذن لا يمكن أن يكون كائلة ودمنة قد ترجم ترجمة حرفية لم تتدخل فيها

(١) والعبارة في نسخة بيروت ص ٥٩ (والغرض الرابع وهو الأقصى ؛

وذلك يخص الفيلسوف خاصة ، أعني الوقوف على أسرار معاني الكتاب الباطنة)

روح ابن المقفع وأغراضه ، ولا يمكن أن يكون إلا معبرا عن نقد ابن المقفع الملوك ، والدليل على ذلك شيخان : أولهما أن الأديب الساخر الذي يخشى بطش الملوك يستحيل عليه أن ينقد نقدا صريحا ، بل لابد له أن يعتمد إلى المواربة والأسلوب غير المباشر في النقد كما فعل صامويل بتلر القصصى الإنجليزى وغيره . وإلا لو أظهر نفسه على حقيقتها لتمرص لما يخشى مغبته كما فعل الشافعى حينما سأله المأمون عن خلق القرآن ففسخر به قائلا - بعد تعداد القرآن وغيره على أصابعه : كل هؤلاء مخلوقون (يشير إلى أصابعه ، لا إلى القرآن الذى أراد المأمون على الاعتراف بخلقه) ، وبذلك نجما من هلاك محقق ، ومثله حجر المدرى الذى أمره محمد بن يوسف أن يلعن عليا ، فقال - زاعما أنه ينفذ أمره - إن الأمير محمد بن يوسف أمرنى أن ألعن عليا ، فالعنوه - لعنه الله - فعاها على أهل المسجد ، فما فطن لها إلا رجل واحد^(١) .

ثانيهما : أن ابن المقفع قد حث على معرفة ظاهر الكتاب وباطنه ، فقال : وكذلك من يقرأ هذا الكتاب ، ولم يعلم غرضه ظاهرا وباطنا ، لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه ، كما لو قدموا الرجل جوزا صحيحا لم ينتفع به إلا أن يكسره وينتفع بما فيه . يريد من قارئه الذى تفهمه وفطن لما فيه أن يعمل بما به ، قال : ثم إن العاقل - إذا فهم هذا الكتاب وتفهمه وبلغ نهايته وعلم ما فيه ، ينبغي له أن يعمل بما عليه منه ، لينتفع به ، ويجعله مثلا لا يحيد عنه ، فإذا لم يفعل ذلك كان مثله مثل الرجل . . . إلخ^(٢) .

ونراه يلح في ذلك حتى يقول في آخر الباب : فمن قرأ هذا الكتاب فليعرف السبب الذى وضع عليه كتاب كلىة ودمنة ، وحول من أرض الهند إلى أرض فارس . . . وهكذا يلح في قراءته ، وكذلك في معرفة سبب تأليفه وكذا في نسبة الكتاب إلى الهند وفارس .

(١) أخبار الطراف والمتاجنين لابن الجوزى ص ٢٣

(٢) ص ٥٢ طبعة بيروت لكليلة ودمنة .

ثالثا : أن ابن المقفع كثيرا ما يذكر القصص التي يقدمها أمثلة وبرهانا على صدق نصيحته ودعواه ، يذكرها وفيها طابع السخرية ، كمثل الرجل الذي علم العلم ، ولم يعمل به : كالذي أعطى صحيفة صفراء ، وجعل عالما يكتب له فيها علم الحرية ، فكتب له في الصحيفة ما أراد ، فانطلق الرجل إلى منزله ، وجعل يقرأها ولا يدري ما معناها ... وظن أنه قد أحكم ما في الصحيفة ... وأنه تسكلم في بعض المجالس - وفيه جماعة من أهل الأدب والفصاحة - فقال له بعضهم : لخت ا فقال - وهنا موضع السخرية - ألحن ، والصحيفة الصفراء في منزلي ؟!

وكذلك قصة السارق الذي خدعه صاحب البيت بأنه ظفر بمناعه عن طريق السرقة بواسطة ارتقاء شعاع ضوء القمر الذي ينفذ من كوة في حجرة من الحجر ، وذلك بواسطة عدة كلمات يقولها اللص في أثناء نزوله على الشعاع ، شولم ، شولم ، (١) ، وكذلك هناك قصة بائع السمسم (٢) . وقصة الغادر ، وسارق البر (٣) .

رابعا : هناك عدة مواضع في الكتاب يذم فيها الملوك وحكمهم بالهوى ونجبرهم ، إذ نقرأ حواراً رائعا بين كليلة ودمنة في ذم صحبة السلطان ينتهي بقول كليلة : أمور ثلاثة لا يجترى عليها إلا الأهوج ، ولا يسلم منها القليل : صحبة السلطان ، واثمان النساء على الأسرار ، وشرب السم للتجربة ، (٤) .

وقد أكترت كتب الحكمة القديمة والأدب من ذكر فصول في ذم صحبة

(١) كليلة ودمنة طبعة دار المعارف ص ٢٢٢

(٢) كليلة ودمنة (دار المعارف) ص ٨

(٣) المرجع السابق ص ٩ ، ١٠

(٤) المرجع السابق ص ٥٠

السلطان ، فالأرجح أن الدافع إلى ترجمة الكتاب أنه صادف هوى في نفس ابن المقفع فترجمه تعريضا بالسلطان ، وصاغ العبارات ، وأضاف إليها لتوافق هواه في ذم السلطان والتعريض به ، وإشعار نفسه بأنه لم يفقد كثيرا حينما لم يتخذ للخليفة كتابا له وهو ما هو عليه من حذق في الكتابة وبراعة فيها كعبد الحميد صديقه ، وتصديقا لذلك قال : أمران لا ينبغي لأحد — وإن كان ملكا — أن يجعل شيئا منهما في غير مكانه وأن ينزله غير منزله : الرجال والحلية^(١) . وفي أول باب كيلة ودمنة ، يذكر عادة ذميمة من عادات الملوك : « وقد قيل في أمور شتى : من كانت فيه لم يستقم أمره له ... ومنها : التصديق لكلى مخبر ، ورب رجل يخبر بالشئ لا يقبله ، ولا يعرف استقامته ، فيصدق به ، لما يرى من تصديق غيره ، فيتمادى به ذلك حتى يكون كما أنه عرفه ، ورجل يصدق به لهواه في الأمر الذى يخبر به ، فالعقل لا يزال للهوى متهما ... فنقرأ هذا الكتاب ، فليقتد بما في هذا الباب ؛ فإننى أرجو أن يزيد بصرا ومعرفة . فإذا عرفه اكتفى واستغنى عن غيره ، وإن لم يعرفه ، لم ينتفع به ، فيكون مثله كمثل الذى رمى بحجر فى ظلمة الليل . فلا يدري أين يقع الحجر ، ولا ماذا صنع !

ومن نحامله على الملوك ، أو تصويره إيادهم بمظهر المصدق للشايات الغادر بالصدق ماضر به مثلا لذلك بقصة الأسد والثور ، وهى أطول قصة فى الكتاب ، ولعله قد زاد فيها من الزيادات ما يشقى به غليله ، وإنى لأعدها أكبر قصة صورت ما يحدث بين الملك وأقرب المقربين إليه ، وحينما أقرأ شخصية الأسد فى هذه القصة أتمثل شخصية أبى جعفر المنصور بعنفه وقسوته حينما قتل الثور فى الهابة ؛ وليس هناك من فرق فى ذلك بين مصرع الثور

ومصرع من أسسوا دولته كأبي سلة الخلال وأبي مسلم الخراساني وغيرهما
من صرعهم . ويكاد ابن المقفع ينطق بلسانه مخاطباً أبا جعفر في قصة الملك
والطائر فتنة ، قال : دترحا للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء أو بل لمن
ابتلى بصحبة الملوك الذين لا حميم لهم ، ولا رحيم ، ولا يحبون أحداً ، ولا
يكرّم عليهم إلا من يطعمون عنده في غناء ، أو يحتاجون إليه ، فيقرّبونه
عند ذلك ، ويكرمونه فإذا قضوا منه حاجتهم ، فلا ود ولا إخوان ولا إبلاء
الحسن مجازى عندهم ، ولا الذنب مغفور ، وليس أمرهم إلا الفخر والرياء
والسمعة وكان عظيمًا من الذنوب يركبونه ، هو عندهم صغير ، وعليهم
هين ^(١)

ولا شك أننا نلاحظ أسلوباً عفيفاً في هذه العبارة ، ما كان لابن المقفع
أن يستخدمه لو لم يكن واجداً - في نفسه - على من قصد به هذا الكتاب ،
ونلاحظ استطراداً وإطناباً في العبارات ، مما يجعله يشعر براحة كلما زاد في
العبارات والمترادفات وأطنب فيها معدداً مساوياً الملوك الذين هم في ضمير
ابن المقفع : أبو جعفر المنصور ، وليس أحد غيره .

وقال أيضاً : د قال فتنة : إن الأحقاد مخوفة حيثما كانت ، وأخوفها
وأشدّها : ما كان في أنفس الملوك ، وإن الملوك ، يدينون بالانتقام ويرون
الطلب بالوتر مكرمة ونفرا . ^(٢) ثم ينصح الملك بنحو ما نصحه به في
رسالة الصحابة : من الاهتمام باختيار الأعوان : ... ثم على الملك - بعد ذلك -
ألا يترك تعاهد عماله ، والتفقد لهم والأمور ، حتى لا يخفى عليه إحسان
محسن ، ولا إساءة مسيء . ثم عليهم - بعد ذلك - ألا يتركوا محسناً بغير جزاء ،
ولا يقرّوا مسيئاً ولا عاجزاً على العجز والإساءة ، فإنهم إن صنعوا ذلك ،

(١) كلية ودمنة (طبعة دار المعارف ص ٢٣٨) وطبعة شيخو ص ٢٤٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥١ (طبعة دار المعارف) .

ثم اوان المحسن ، واجترأ المسىء ، ففسد الأمر ، وضاع العمل ... (١) ، ومن يدري لعله قصد نفسه بتذكير الملك أو الخليفة بالإحسان إلى المحسن ، حتى لا يتهاون المحسن ! واعمري إن هذه الفقرة السابقة من الفقرات التي جث الملك على قراءتها وتفهمها ثم العمل بها كما نصح في أول الكتاب : « وكذلك من يقرأ هذا الكتاب ولم يعلم غرضه ظاهراً وباطناً ، لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه ، وهو لاشك يقصد الخليفة ومن حوله لا السوق ، لأن السوق ليس في يدهم شيء من زمام الملك أو تصرف أمور الناس ولا يتحكمون في صغير أو كبير من أرزاق الناس وما يصلح لمعاشهم ، أما الحكام فهم الذين عليهم المعول ، وبالتالي هم الذين يوجه إليهم ابن المقفع أمثال هذا الكتاب للعمل بما فيه ، فينفعونه وينفعون أنفسهم .

وأعتقد أنه ليس من المستبعد أن يكون قد مر بذهنه في قصة « الأسد والأرنب التي تخلصت منه ، و « الذئب والغراب وابن آوى يهلكون الجمل ، أنهما مثلاً لا انتصار الضعيف على القوى - مهما أوتى من قوة - وسخريته بهذا القوى الذي يشقى غليله منه .

وبذلك تكون السخرية من النوع الذي يطلق عليه الأوروبيون « سخرية الجوادث Lony fo events أو ما يسمى سخرية القدر التي تجعل الإنسان يبتسم من مغارقات القدر حينما يتجبر شخص ما وإذا به يغلب براسطة شيء ضعيف ما كان الإنسان يظن أنه سيغلبه ، وحينذاك يبتسم المرء ابتسامة السخرية ، وهذا شائع في حياتنا الدنيا . وما يستوقفني في نهاية باب الفحص عن أمر دمنة ، تلك العبارة : « ثم قال الفيلسوف الملك : « فليتنظر أهل الفكر في الأمور هذا وأشباهه ، وليعلموا أنه من يلتبس منفعة نفسه بهلاك غيره ظالمه بخديعة أو مكر ، أو خلافة ، فإنه غير ناج من وبال ذلك عليه وعاقبته

ومغبته ، وإنه مكافأ به ، ومجزى بما عمل ، عاجلا وأجلا ، وصائرا إلى البوار على كل حال ، ، (١) .

وهناك حديث طويل لنقد الأشحاء اللثام وذمهم يمكن أن يكون تعريضا بالمنصور ، لفرط ما عرف عنه من شح شهر به (٢) . ولا شك أن ابن المقفع قد اتبع في أسلوبه ، ما جاء في عبارات الكتاب عن التعريض حتى ربما أغضبه بعيبه - وهو لا يغضبه - إنما يضرب له الأمثال ويحدثه عن عيب غيره ، فيعرف به عيبه ، ولا يجد للغضب عليه سبيلا . ، ، (٣) . وقد عرض ابن المقفع بمرعة غضب الملك على لسان إبلاد - لما طلب منه الملك أن يذكر حاجته بعد إصلاح شأنه - ليست بي حاجة فيما قبلك إلا الثاني عند الغضب ، والروية عند الفكر ، ، (٤) .

وقد عرض ابن المقفع بنهاية الظالم في قوله : فلم يزل هذا البلاء بأهل البلد ، فوثب من بقي منهم ومن به رمق ، وتجمعوا إلى باب الملك ، فقتلوه ووزيره وأهله ، ولم يبق منهم أحد . ، ، (٥)

* * *

وقد تجلّت سخرية ابن المقفع الحقّة التي هي أقرب إلى التصريح منها إلى

(١) كلیلة ودمنة ص ٢٤ .

(٢) جاء في مروج الذهب للذهبي ٣ / ٢٣٢ د وكان مع هذا يضن بالله ، وينظر فيما لا ينظر فيه العوام ، وواقى صاحب مطبخه على أن له الرؤوس والآكارع والخلود ، وعليه الحطب والترايل . ، ، وانظر كلیلة ودمنة (طبعة دار المعارف) ص ١٣٨ .

(٣) كلیلة ودمنة ص ٢١٤ .

(٤) المرجع السابق ص ١٣٤ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

الإيهام ، في ذلك الحوار الرائع الذي عقده في نهاية قصة إبلاد وإيراخت وشادرم ، وتتلخص هذه القصة في أن ملكا من الملوك يدعى « شادرم » غضب على زوجته ، لأنها هفت معه هفوة صغيرة ، رأى أنها تستحق العقاب فقمسا عليها إلى حد أنه أمر وزيره « إبلاد » بقتلها . فأخذها الوزير بعيدا عن القصر ، وكل بها من يعنى بأمورها ، ثم رجع إبلاد إلى الملك . وقد خضب سيفه بالدم - زاعما أنه قد قتلها ، منفذا بذلك أمر الملك .

أما الملك فحينما سكن غضبه على « إيراخت » الملكة ، وتذكر « جالها » ورأيها وعظم عنايتها ، وجسم منفعتها اشتد حزنه ، وجعل يقوى نفسه ويتجلد ، وفطن إبلاد إلى ذلك ، فأخذ يعزى الملك ، ويضرب له الأمثال ، ويقص عليه القصص في السلوى والعزاء ، وأن لديه النساء الكثيرات ، وأن لاداعى للحزن على إيراخت ، فلما سمع الملك ذلك ، خشى أن تكون إيراخت قد هلكت .

فقال لإبلاد : أفى سقطة واحدة كانت منى فعلت ما أمرتك به من ساعتك وتعلقت بكلمة واحدة ، ولم تثبت في الأمر ؟

قال إبلاد : إن الذى قوله واحد ، لا يختلف كلامه عندى ، واحد .

قال الملك : ومن ذلك ؟

قال الله عز وجل : الذى لا يبدل كلامه ولا يختلف قرأه !

وهكذا يبدأ حوار رائع بين إبلاد الوزير والملك شادرم ، يأخذ الوزير فيه بالعبث بالك ساخرا منه تسرعه في الحكم ، وأول شيء يبصره به هو أنه ضعيف بجانب الملك الأكبر خالق كل شيء . وطريقة الوزير في هذه السخرية : هى محاولة الإجابة عن عبارة الملك أو تساؤله (خبرا كان أو استفهاما) بواسطة التفريع أو وضع حالة الملك - التى نسبها لنفسه

أو نسب نفسه إليها - بين عدة حالات ، ثم يثبت له أن حالته هذه التي نسبها لنفسه ليست من بين هذه الحالات التي تنكاد تكون الحالات الصحيحة الحقيقية التي اتفق عليها الفلاسفة - بكون إبلاد فيلسوفا مثلهم - ويمكن أن يطلق على طريقته طريقة التصامم ، أو ادعاء الصمم ، أو التخابث أو التباله ، فهي أشبه بطريقة سقراط التي كان يدعى فيها عدم العلم أو الجهل ، فهو أيضا يدعى أنه لم يفهم أو أنه فهم ولكن قول الملك لا يعول عليه لأنه ليس صحيحا كما يظن ، ولأنه ليس واحدا من هؤلاء الذين يذكرونهم له : فأجاباته فيها تعزية ممزوجة بالخيرية . ونستطيع أن نذكر هذا المثل تبيانا لذلك . يقول الملك : اشتد حزني لقتل إيراخت .

يرد عليه إبلاد ساخرا ، متصنعا الجد - وهو جد الفلاسفة - اثنان ينبغي لهما أن يشتد حزنها :

الذي يعمل الإثم
والذي لم يعمل برا قط
لأن فرحهما في الدنيا قليل .

فهو كأنه يقول له : إنك إما أن تكون واحداً من هذين اللذين ذكرت أنفا ، فحينذاك تكون من يعمل الإثم أو من لم يعمل برا قط ، وإلا ، فلا يحق لك الحزن ، وهذا شيء كبير بالنسبة للملك ، لأنه لا يحتمل أن ينسب إلى أحد هذين الأمرين اللذين ذكرهما الوزير ، ولا يحتمل أيضا أن لا يحزن لهذه الفجوة الكبرى - فجوة أمره بقتل إيراخت ، ولا يحتمل ثالثا أن يخرج الوزير من هذا الأمر الذي هو ظاهر للعيان أنه يستحق الحزن ، إلى أمرين بعيدين كل البعد عن ذهن الملك - في حالة الحزن الذي يسد المنافذ على الشخص ، فلا يجعله يفكر أو يتأثر بشيء غير الذي هو فيه .

وهكذا يستمر في العبث بالملك بطريقة السخرية أو الهجاء غير المباشر حتى إنه لما قال الملك : ما أنا بنّاظر إلى إيراخت سوى ما نظرت ابرد عليه إبلاّد - الفيلسوف - قائلاً : اثنان لا ينظران أبداً :

الأعمى ، والذي لا عقل له ، فإنه كما أن الأعمى لا يبصر السماء ولا النجوم ولا الأرض ، ولا يبصر القريب ولا البعيد ولا أمامه ولا خلفه وكذلك الذي لا عقل له ، لا يبصر منفعته من مضرته ، ولا يعرف العاقل من الجاهل ، ولا الحسن من القبيح ولا المحسن من المسيء .

وهو بهذا يقول له - بطريق غير مباشر - إنك : إما أعمى وإما لا عقل لك : فيسب الملك ، وبذلك يزيده حزناً - من غير أن يمنحه الفرصة لأن يغضب ولأن ينتقم منه هو الآخر، وهكذا يتشنى بالملك أعظم تشف حتى يظن الملك إلى هذا بعد أن يضيق به ذرعاً فيقول له :

إنى لحقير في عينك يا إبلاّد ابرد عليه إبلاّد هازناً - كأنه لا يعنيه من أمر الملك شيء بل يعنيه مجرد السخرية به أو أن يظل سادراً في غي حكمته وثلاثة يحقرون أنفسهم : الذي يهذى بالكلام ، ويتحدث بما لا يسأل عنه... والمملوك الغنى وسيد فقير فلا يعطى سيده شيئاً من ماله ، ولا يعتد به ، والعبد الذي يغاظ. سيده في القول ويستعيل عليه أو نلاحظ. أنه حتى اعتراف الملك بأنه حقير في عيني إبلاّد ، لا يريد إبلاّد أن يوافق الملك عليه أى على هذا الاعتراف - أو الاعتراف به ، ولذلك يظن الملك إلى ذلك فيقول - وقد لاحظ عليه سمات الانكسار التي تدعو إلى الإشفاق عليه والثناء لحاله : إنك لتسخر بي يا إبلاّد ، أى إننى قد هنت عليك إلى حد أنك لم تكثف بتركي وحزنى ، بل أخذت في السخرية بي (ونلاحظ. أن عبارة الملك هي العبارة الثامنة عشر من هذا الحوار ، أى قبلت تلك العبارة بعد سبع عشرة عبارة سالفة - ويستمر الفيلسوف في لدعه فيرد على عبارته السابقة بقوله :

ثلاثة ينبغي أن يسخر منهم ... ، وهكذا يحير الملك هذه الحيرة العنيفة فيأبى حتى مجرد الاعتراف بأنه يسخر منه !

وهكذا نرى إبلاد (أو ابن المقفع) يسخر سخرية لازعة تمتد حتى تصل إلى حوالى أربع وأربعين عبارة في عدة صفحات ، وإنى لأعدها بل أعتبرها أكرم مكان أو مناسبة سمحت لابن المقفع بأن يشقى ظميله من الملك أعنف شفاء .

وقد أظهر ابن المقفع في هذه القصة ضعف الملوك وهم يتصنعون القوة ، أمام حوادث تافهة نسيا : كفقد زوجة من الزوجات ، وأظهرهم أيضا بمظهر الحق والضبط الذى هم عليه ، والنقص كغيرهم من البشر بتسرعهم فى إصدار الأحكام ، ثم محاولة الندم على ذلك حيث لا ينفع الندم ! وإن هذه الحالة لا تذكر بعقدة ألف ليلة وليلة حيث تحاول شهرزاد إنقاذ بنات جنسها من ملك طاغية يريد أن يقتل بسبب وبغير سبب ، ولا ينبغي من وراء ذلك إلا إظهار قوته المجنونة أو ضعفه أمام نزواته وشهواته !

ويحاول ابن المقفع أن يطنب أو يتوسع فى إظهار ضعف الملك بإظهاره بمظهر الحزين ، العميق الحزن ، فى مواضع كثيرة حتى إنه يأخذ فى تكرار ذلك على لسان الملك بعبارات مختلفة تدور حول معنى واحد هو الندم على خطأ لا يمكن إصلاحه ، مثل : اشتد حزنى لقتل إيراخت (٢) لأن رأيت إيراخت حية لا أحزن أبداً (٣) ما أنا بناظر إلى إيراخت سوى ما نظرت () - لأن رأيت إيراخت ليشتد فرحى () ما شبعتم من رؤية إيراخت قط () صرت من إيراخت صفرا () لقد ازدادت حزنا بتعزيتك يا إبلاد - هلكت إيراخت ضيعة فى غير شيء ! () ليتنى قد رأيت إيراخت يا إبلاد ! () لقد أوجعت قلبى يا إيراخت ! () أنا الذى شققت على نفسى ! () لن تطيب نفسى بقتل إيراخت يا إبلاد ! أفست على العيش يا إبلاد ! ()

ثم يظهر الكاتب الملك بمظهر الضعيف حتى إنه يبدأ في تعنيف إبلاد ، ثم يبدأ في تهديده وسبه : إنه لينبغى لنا أن نتباعد عنك يا إبلاد فإنك بذلك جدير (٧) لك لأهل أن تعذب أشد العذاب (٢) إنه لينبغى لك أن تسفه يا إبلاد (٢) كان ينبغى لك أن تسكت حتى يبدأ غضبي يا إبلاد (١٤) قد تصدم ما بيني وبينك يا إبلاد (٢١) ما ينبغى لي أن أكلمك يا إبلاد ! والغريب أن الفيلسوف - برغم هذه التهديدات - لا يتورع عن الرد على الملك بتفريع الإجابة كما تعرد بطريقة الخاصة .

ويبلغ ابن المقفع منتهى السخرية بالملك حتى إنه ينطقه بهذه العبارات أمام وزيره إبلاد : إني لحقير في عينك يا إبلاد : (١٧) إنك لتسخر بي يا إبلاد (١٨) إنك لتجبر يا إبلاد ! (١٩) إني لخائف منك يا إبلاد ! (٢٧) أما لك رحمة فترحمني يا إبلاد ؟

ثم يظهر الملك بمنتهى الضعف الذي يستحق الاستهزاء والرائاء حينما ينطق ، بمثل قوله : لم يصبنى قط وجع أشد على عما وصل إلى من لإراخت لحلها وعقلها () لا أرى لإراخت في النساء شبيها () ليس بأننى النوم على حزني لإيزاخت () حسبك يا إبلاد فقد تركتني في شك من رأى (١٤) !

وهكذا يعيث إبلاد بالملك أشد العيث ، حتى إذا مارآه قد هوى وأصبح في شدة القنوط (كما تدل عليه العبارة الأخيرة) فاجأه بإظهار لإراخت مرة ثانية ، وإنما لعمري خاتمة ساخرة بالملك حتى لو أنه كان قد قتلها حقاً ، لكان أهون على مركز الملك وأحفظ لكرامته من أن يعنفه بكل هذه الأجوبة الطويلة السامة - إن سمح لي التعبير بذلك - ثم ينتهى أخيراً إلى إظهارها مرة ثانية : كأنه الطفل الغرير الذي عيث به بإخفاء أمه - مصدر حياته - ثم

عاد فأظهرها ، وكأنه يقول له مر بتا على كتفه لاتبك ، هاهى أمك قد عادت إليك أيها الطفل الصغير ا

* * *

وقد اختلف عدد عبارات الملك ووزيره في هذا الحوار باختلاف النسخ، فبلغت في كتاب « نتائج الفطنة في نظم كايمة ودمنة » ثلاثين عبارة للملك ومثلها للوزير في الرد عليه . أما في نسخة دى ماس والنسخ المصرية (التي طبعتها وزارة المعارف ومكتبة الهلال) فهي مختصرة جدا لا تزيد على ثمانى عبارات الملك ومثلها للوزير ، أما أطولها فهي ما ذكر في النسخة السريانية الحديثة^(١) ونسخة شيخو إذ بلغت سبعا وثلاثين عبارة ونسخة عزام فتبلغ ستا وأربعين عبارة ، وبذلك فهي أكثر النسخ إطنابا في هذا الحوار . وإنى لأحار في سبب الاختلاف في عدد العبارات بين النسخ إلى هذا الحد ، وقد يكون لسقوط بعض العبارات في النسخ الناقصة اضياع بعض الأوراق منها أو الزاما للاختصار كما يسلمك بعض الناسخين الذين لا يراعون الأمانة والدقة في النقل ، أو بسبب تزيد بعض الكتاب المتأخرين والنسج على منوال ابن المقفع في هذا الصدد حبا في هذا النوع من الإنشاء وفي هذا النوع من الحوار في هذا الموقف بين الملك ووزيره الذي ربما قد استهواهم وحل من تقوسهم محلا جعلهم يقلدون ويتزيدون ، ومهما يكن من أمر ، فإن النسخ المطولة : وهي نسخة ابن الهبارية وشيخو وعزام تحتوى على عبارات تتفق عليها النسخ كل الاتفاق أو في كثير من الألفاظ : والنسخ تتفق كلها في كيفية بدء الحوار ولا تختلف إلا في بعض الألفاظ التي لاتخير من المعنى في شيء : ففي نسخة وزارة المعارف المصرية يبدأ الحوار هكذا :

(١) مقدمة كايمة ودمنة (طبعة دار المعارف سنة ١٩٤٢) بقلم عبدالوهاب

- لم لا تأنيث وتثبث ، بل أمرعت عند سماع كلمة واحدة ، فتعلقت بها .
وفعلت ما أمرتك به من ساعتك !

فقال إبلاد : إن الذى قوله واحد ، لا يختلف : هو الله الذى لا تبدل
لكلماته ولا اختلاف أقوله .

أما ابن الهبارية ، فيذكرها هكذا :

فقال يا بهلار هل من كلمة ؟	قتلتها ، لقد جنيت ، مؤلمه
هلا تثبت ولم تستعجل	فالخير فى الرفق وفى التمهل
قال له : إن الذى لا يختلف	منه الكلام واحد إذ تعترف
فقال : من ذاك ؟ فقال الله	لغيره الاضداد والاشباه

أما فى نسخة شيخو فقد بدأها كما ذكرنا فى أول هذا الفصل (منذ يضع
صفحات) وكانت نسختا عزام وشيخو أكثر النسخ اتفاقا ، حتى كأنهما
من مصدر واحد ، ولا يختلفان إلا فى بعض الكلمات ، ونمثل لذلك بمقارنة
الفقرة رقم ٢٦ لدى شيخو بالفقرة رقم ٤٢ عند عزام :

قال الملك : لقد غبنتنى وغبنت نفسك يا إبلاد .

فتذكر فى نسخة الدكتور عزام محرفة هكذا :

قد عنيت نفسك يا إبلاد وإياى معك (فحرفت غبن إلى عنى) .

ثم يقول فى نسخة شيخو : ثماية يغبنون أنفسهم وغيرهم .

فتذكر فى نسخة عزام : تسمة نفر يعنون أنفسهم وغيرهم .

وفى نسخة شيخو : د والبذى الفجور الأشر العادى طوره المستغنى برأيه
عن مشاورة الأخلاء .

فتذكر فى نسخة عزام مختصة هكذا د والبذى الفاجر العادى طوره .

وفي نسخة شيخو : « ومطالب العلم الذي يخاصم فيه من هو أعلم به منه ، ولا يقبل منه ما عليه . »

وتذكر في نسخة عزام : « وطالب العلم بخصوصية من هو أنبل منه . »

وهكذا نرى الاختلاف بين النسختين في بعض الأحيان هيئنا لا يتعدى الاختلاف في ترتيب العبارات ، وفي بعض الأحيان كبيرا إلى حد حذف بعض العبارات الموجودة في نسخة دون غيرها أو وجود عبارات جديدة ذات معنى مختلف عن مثيلاتها في النسخة الأخيرة ، أو حذف بعض فقر برمتها كالعبارة رقم ٢٩ في نسخة شيخو وهي غير موجودة في نسخة عزام وهي :

« قال الملك : إن ذوى الكرم من الناس لا ينبغي لهم أن يضاحكوا ولا يلاعبوا ، أى لا يجوز المزاح معهم . »

قال إبلاد : « أربعة لا ينبغي لهم أن يضاحكوا ولا يلاعبوا ، ^(١) . »

وكذلك الفقرة التالية لها برقم ٣١ ، رقم ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ فإذا اتخذنا نسخة عزام أساسا في عدد الفقر وجدنا أن نسخة شيخو تحتوى على هذه الفقر من نسخة عزام : ١ - ٢٦ ، ٢٠ - ٢٢ ، ٣١ ، ٣٥ - ٢٧ .

أما ترتيب ابن الهبارية في منظومته وعدد فقراته فهو كالآتي ^(٢) :

١ - ٢١ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، فقرة مزيده ، ٢٢ ، ٣٥ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٧ ،

١٨ ، ١٢ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٤ - ، فقرتان مزيديتان ، ٤٣ .

(١) كليله ودمنة (طبعة بيروت التي نشرها شيخو) ص ٢٣٦ .

(٢) ص ٢٠٤ - ٢١٤ من طبعة نتائج الفطنة في نظم كليله ودمنة للوزير

الشريف أبى يعلى بن أحمد بن الحسين المعروف بابن الهبارية . هذبه الخورى
نعمة الله الأسمر الماروني اللبناني ، وطبع في المطبعة اللبنانية سنة ١٩٠٠ .

(م ١٠ - السخرية)

أما ترتيب طبعة مكتبته الهلال (وهي الطبعة المصرية المتداولة) فهي كالآتي : ١ - ٩ فقط (١) .

ونلاحظ أن جميع النسخ تتفق في البدء بالفقر التاسع الأولى ثم تختلف بعد ذلك ، ولهذا أرى أن تحقق نسخة شيخو وابن الهبارية (التي أعترف ناشرها اللبناني بأنها مذبذبة) وذلك بالاستعانة بباقي المخطوطات وفي مقدمتها نسخة عزام - التي عني بها عناية كبيرة وحققتها تحقيقاً أميناً - وبذلك نستطيع أن نخرج للعالم العربي نسخة أقرب إلى الدقة ، وإلى الأصل الذي أخرج عليه ابن المقفع نسخته الأولى إلى العالم العربي ، ويمكن الاستعانة بالمجهود القيم الذي بذله المرحوم الدكتور عزام في تحقيق أسماء الكتاب لما لحذفه اللغة الفارسية .



أما تفريع لإبلاد لعبارة الملك فهي في المتوسط أربع حالات ، ولكنها قد تصل إلى عشر حالات كما ذكر في الفقرة الأخيرة من الحوار رقم ٤٤ . أما أجوبة لإبلاد في هذا التفريع فهي أجوبة فلسفية حكيمة ، فيها شيء من الغموض أحياناً . وفي بعض عبارات ابن المقفع تعريض كقوله : « والفتنة الذين يسفكون الدماء - بغير حق - ويرجون أن تكون أرواحهم مع الشهداء الآتية ، فلا شك أن هذا تعريض بأبي جعفر المنصور (٣) » وتبلغ سخريته بالملك إلى حد أن شادرم الملك حينما يوجهه بقوله : إن ذوي الكرم من الناس لا ينبغي لهم أن يضاحكوا ، (٣) أي لا ينبغي أن يمزح معهم حاول الكاتب - كما دته - الهزء به بطريقة الخاصة . وحينما قال له الملك : كأنك

(١) كلية ودمنة طبعة مصر سنة ١٩٢٤ ص ٣١٧ - ٣١٩ .

(٢) كلية ودمنة (طبعة عزام) ص ٢٠٦ .

تريد أن تعلم للناس حتى يمهروا ، وتعلمنى أيضا حتى أكون ماهرا ، ينفلت منه الفيلسوف أيضا ولا يقر بذلك - مع أن قول الملك هو الحقيقة - ويحاول أن يذكر له أمثلة أخرى غير ماذكر الملك وما اعتقد .

ونلاحظ على العناصر التى احتوت عليها أجوبة الفيلسوف أن بعضها مكرر ، وبعضها عناصر من الطبيعة كقوله : أربعة الحققد فيهم ثابت : الذئب والحروف ، والسنور والجرذ ، والبوم والغربان ، والبازى والدراج (١) . أو أربعة يخافون بما لا ينبغي : الطائر الصغير ... والكركى ... والدودة ... والخفاش ... ، وبعضها يتخذ عناصر مما يتكون منه المجتمع الإنسانى ، غير أنه أكثر من المرأة وصفاتها وأخلاقتها وبخاصة ضرب المتل بالمرأة الفاجرة . رقم ٢٧ . صفات المرأة التى هى حقيق أن يحزن عليها ، رقم ٢٥ ، رقم ٢٨ ، رقم ٢٦ ، رقم ١٨ والمرأة التى تذكر أنها عذراء وليست بعفيفة ولا حصان . ومن أفراد المجتمع أيضا بطانة الملك ، والملك - وبخاصة السريع الغضب كما فى رقم ٤٢ - سبعة لا يزالون فى سخط : الملك السريع الغضب الضيق الصدر غير المتشد ، . وفى رقم ٤٤ والملك فى الغضب كيف يكون حله وعلمه ، وفى رقم ١٣ . . . الملك الحقود الهذر فى القول ، وفى رقم ٣٠ . . . والملك الذى يأتى المعروف إلى كل غامط كفور منكر لكل ما يصنع ، وفى رقم ٢٢ والملك يكرم العبد ، وفى رقم ٢٥ والملك الذى يهمل بالامر العظيم ويرتكبه . وتمتلىء أجوبة إبلاد أيضا بحكم رائعة صادقة كما فى رقم ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ . مثلما ذكر فى رقم ٣٠ . أربعة لا يخالط بعضهم بعضا : النهار والليل ، والبر والفاجر ، والظلمة والنور ، والخير والشر ، ا .

وأخيرا فإن عبارة من عبارات الفيلسوف فى هذا الحوار لا تكاد تخلو من الكلام فى الأخلاق وكيف تكون .

وإن طريقة كاتب هذه القصة وكاتب هذا الحوار ، التفريعي ، لنذكر في بطريقة كان يمارسها الأمير الشهابي - الذي كان معاصراً لمحمد علي الكبير - والى مصر - إذ كان إذا سئل السؤال ولم يعجبه أو لم يرد الرد عليه ، تظاهر بأنه لم يسمعه أو لم يفهمه وأجاب - بكل ثبات - على سؤال آخر لا يمت إلى هذا السؤال بصلة وقد اتبع هذه الطريقة مع جميع السياسيين المعاصرين له وبذلك كان يسخر منهم سخرية لازمة من غير أن يحرك ساكناً^(١) .

وليست هذه القصة التي حللتها وعلقت عليها فيما سبق هي القصة الوحيدة الساخرة في كيلة ودمته ، بل هناك الكثير مما يمكن أن يدخل في هذا النوع من السخرية المسمى بسخرية الحوادث Irony of events مثل «باتع السمسم»^(٢) وسارق الثوب والبر^(٣) والسارق راكب الشعاع^(٤) وقصة القدر الذي لا بد أن يصيب الإنسان كالرجل الذي هرب من الذئب في البحر ثم وقع عليه الجدار^(٥) وإن على رأس هذه القصص اثنتين هما قصة القرد والقيلم وسخرية القرد بأنه ترك قلبه فوق الشجرة^(٦) وقصة الخمار الذي زعم الشعب أنه ليس له قلب ولا أذنان^(٧) .

. . .

وبعد ، فإن هناك كلمة أخيرة في سخرية ابن المقفع : هي أنها سخرية جادة حزينة ، ليست بالضحكة ولا بالخفية ، فهي أشبه بأن تكون صارمة ، وبأن يكون منبعها رجل مفكر عظيم التفكير ، ونستطيع أن نطلق عليها السخرية الحكيمة أو الحكمة الساخرة ، وهو لم يسلك في سخريته الأساليب الهازلة المختلفة كأسلوب الأمر أو النهي أو الاستفهام أو غيرها من الأساليب التي

(١) مجلة الاثنين سنة ١٩٤٨ من مقال للاستاذ حبيب جاماتي بعنوان «تاريخ ما أمهله التاريخ» .

(٢) كيلة ودمته ص ٨ (٣) المرجع السابق ص ٩ ، ١٠

(٤) المرجع السابق ص ٣٠-٣٢ . (٥) نفس المرجع ص ٤٥

(٦) نفس المرجع ص ١٧٥ . (٧) نفس المرجع ص ١٨١ من طبعة عزام .

ذكرت سابقا ، وذلك لأنه يخاطب ملوكا غاضبا فلا يستطيع أن يظهر له
هزأه في حالة حزنه ؛ وإلا قتله ، وكذلك فإنه كان يصدد أسلوب فلسفي ساخر
هو من طبيعة الفلاسفة كابن المقفع ، فلا غرو أن استخدمه ليكون في السخرية
والنصح في آن واحد ، كذلك فطبيعة ابن المقفع طبيعة الرجل العاقل المتزن
الرزين الذي تتجافى رذائله عن أساليب السخرية للعبوب الأخرى .

- ٤ -

الجاحظ

وننتقل الآن إلى كاتب يعد أكبر كتاب الدولة العباسية إن لم يكن أكبر
كاتب ظفرت به اللغة العربية ، وأعنى به الجاحظ .

وهو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني ، ولد
في البصرة ، في سنة ١٥٩ أو سنة ١٦٠ هـ وقالوا : كان الجاحظ مولى أبي القلمس
عمرو بن قلع الكناني ، ثم الفقيمي ، ومنهم من أضاف إلى هذا : وهو كناني
قيل : صليبة ، وقيل . مولى . وكان جده أسود يقال له فزارة . وكان جمالا
لعمر بن قلع الكناني .

هذا كل ما يعرف عن نسبه وأصله ، وهذه المعرفة لاتضيء ظلمة ، فإن
ناحية نسبه غامضة ^(١) . ولم يعرف من أقاربه إلا خاله - أو خال أمه كما قيل
في رواية أخرى - يموت بن المزرع ^(٢) الذي توفي سنة ٣٠٤ هـ وكان من
مشايخ العلم والأدب . أما أبوه فقد توفي وهو حديث السن ^(٣) .

حياته :

طلب العلم - وعو صبي - في الكتاب مع أولاد القصابين وغيرهم من

(١) الجاحظ : شفيق جبري ص ٣٥ (٢) أدب الجاحظ للصندوني ص ١١

(٣) الجاحظ : حنا الفاخوري ص ١٥ .

طابقات المجتمع ، ثم راح يتميش بعمل يديه فيبيع الخبز والسّمك بالبصرة ، وهو لا يألو جهداً في طلب العلم ومطالعة الكتب ، وكانت البصرة أكبر حواضر العلم والأدب بعد بغداد ، يجتمع في مسجدّها طائفة من العلماء عرفوا بالمنجدين ، فجالسهم الجاحظ ، وأفاد منهم بفضل ذكائه المتوقّد وحافظته القويّة ، وتلقّى الفصاحة عن خطباء العرب في « المرید » ، ومن العلماء الذين أخذ عنهم علومه : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعي ، وأبو زيد الأنصاري ، وأبو الحسن الأخفش ، وتخرج في علوم الكلام ومذاهب الاعتزال على أبي إسحاق النظام ^(١) . وقد بلغ شغفه بالقراءة أن كان يكثرى حوانيت الوراقين ، ويبيت فيها أحياناً للمطالعة . وبعد أن كان فقيراً تعيره أمه لعدم سعيه وراء رزقه وجريه وراء الكتب ، أصبح يصعد سلم الغنى رويداً رويداً ، حتّى نال الجوائز السنّية من الأمراء ، فأعطاه محمد بن عبد الملك الزيّات خمسة آلاف دينار لما أهداه كتاب الحيوان ، ومنحه أحمد بن أبي دؤاد مثلاًها لما أهداه « البيان والتبيين » ، وأخذ كثيراً من الجوائز غيرها ، حتّى أصبح يمتلك ضيعة بالبصرة ، وكان يقتنى الخدم ، وربما ابتاع من الخدم من كان يخدم أهل الثروة واليسار وأشباه الملوك . ^(٢)

جمع هذا المال الطائس ، وتقلّد جلائل الأعمال ، فقد صدر في ديوان الرسائل أيام المأمون ثلاثة أيام ، ثم إنه استعفى فأعفى . وكان سهل بن هارون يقول : إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أقلّ نجم الكتاب ^(٣) . وكان يتقلّد خلافة إبراهيم بن العباس الصولي على ديوان الرسائل . وبلغ من ارتفاع

(١) أدب الجاحظ للسندوبى ص ٢٨ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ١٧٦ .

(٣) الجاحظ : لشفيق جبرى ٣٩ .

شأنه ، وبجبوحه عيشه أن سأل رجل عن حاله ، فأجاب : سألتني عن الجملة ، فاسمعها مني واحدا واحدا : حالي أن الوزير يتكلم برأيي ، وينفذ أمري ، ويؤثر الخليفة الصلات إلى ، وآكل من لحم الطير أسمتها ، وألبس من الثياب أفخرها ، وأجلس على ألين الطبرى ، وأتسكى على هذا الريش ، ثم أصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج ! فقال له الرجل : الفرج ما أنت فيه ! قال : بل أحب أن تكون الخلافة لي ، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلى ، فهذا هو الفرج ... (١)

وقد اتصل الجاحظ بكثير من عظماء الرجال في عصره ، فاتصل أول ما اتصل بابن الزيات ، وما أن غضب عليه المتوكل وأحرقه ، حتى أراد عدوه أحمد بن أبي دواد أن ينتقم من الجاحظ ، لانضمامه إليه ، فأرسل إليه وأنى به مكبلا ولكن ظرفه كان شفيعا لديه لأن يعفو عنه (٢) قائلا : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ! وعن اتصال بهم ومدحهم : إبراهيم بن رباح ابن شبيب الجوهري الكاتب ، وكان واليا على الأهواز ، وأبو الفرج نجاح ابن سلمة : وكان يكتاب جماعة منهم إبراهيم بن المدير (٣) .

وقد فطن الجاحظ إلى أن الضرب في مناكب الأرض مشحذة للذهن ، مصقلة للخيال ، لما في مشاهد الطبيعة من مختلف الصور ، ومتباين الألوان ، فما يكون مادة لرجال العبثرية ، ولذلك فقد سافر إلى أنطاكية ودمشق ويقال إنه زار مصر أيضا (٤) .

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل للمبرد ٢٤٨ / ٢

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٥٨ / ٦

(٣) الجاحظ : شفيق جبرى ص ٤٩

(٤) الحيوان ٤ / ٥١ ، ٥ / ١١٣

وأخيرا ، فقد أخذ هذا السراج الوهاج ، يخبر رويدا رويدا ، حتى أعيب بالفالج بعد أن بلغ الثمانين من عمره ، وقد قاسى من ذلك كثيرا ، كما روى المبرد وأبو علي القالي : « كيف يكون من نصفه مفلوج لوحز بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه » (١) وتوفي في خلافة المعتز بالله سنة ٢٥٥ هـ بعد أن خبر كل أمر من أمور الدنيا ، خبر خشونة الحياة ونعيمها ، وامتحن ذل السلطان وعزه ، وتقلد جلائل الأعمال وصحب أصاغر الناس وأكابرهم ، وذاق اللذات ، ومد الله في أجله طوال قرن كامل (٢) :

مؤلفاته وكتبه : —

وقضى الجاحظ أغلب حياته قارئا باحثا ، مطلعا على كل ما يصدر في عصره ، وكما كانت سخرية القدر به حينما كانت هذه الكتب التي ملأت جدران بيته السبب في هلاكه !

وكتب الجاحظ في كل موضوع تقريبا ، من الملعين إلى بنى هاشم ، ومن اللصوص إلى الذئاب ، ومن الكلام في صفات الله تعالى إلى القيان ، ومن القضاة والولاة إلى أمهات الأولاد ، ومن الإمامة إلى الحور والعور ، « فإن نحن قلنا إن كتبه دائرة معارف ، زمانه ، غير مرتبة على أحرف الهجاء ، ولا على أى أساس ، كان ذلك صوابا » وهو في تأليفه أنيس محاضر تحرر من قيود كثيرة تقيد بها علماء عصره ، تحرر من التزام الجمل وثقل الغمرض الذي كرهه من أستاذه الاخفش ، فهو دائما يخلط جدا بهزل ، ويسيفك

(١) أمالي القالي ١ / ٥ ، معجم الإديباء ٦ / ٧٩ .

(٢) الجاحظ : لشفيق جبرى ٥٧ ، ٥٨ .

القيمة الجافة بكثير من الحلوى ، ويجد ، حق إذا أعدك للبكاء - رمال
ينادرة تمنع منها في الضحك^(١) قال المسعودي : ولا يعلم أحد من الرواة
وأهل العلم أكثر كتباً منه ... وكتب الجاحظ - مع انحرافه المشهور - تجلو
صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لانه نظمها أحسن نظم ، ورصفها
أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القارئ
وسامة السامع ، خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة
ظريفة ،،^(٢).

ألف في مواضيع المتكلمين مثل كتاب خلق القرآن وكتاب الرد على
المشبهة وكتاب في الرد على النصارى وكتاب الاعتزال ، وكتاب الإمامة .
وكتب في موضوعات سياسية تاريخية : كتاب العرب والموالي ، وكتاب
العرب والعجم ، ورسالة في فضائل الأتراك ، وكتاب السودان والبيضان ،
و ألف في الأخلاق التي كان يشعر بها في عصره وطبقات الناس : فألف كتاب
البخلاء والسلطان وأخلاق أهله وكتاب الجوارى والحاسد والمحسود وألف
في النبات كتاب الزرع والنخل وألف في الحيوان كتاب الأسد والذئب وكتاب
البغال وكتاب الحيوان .

و ألف في الفكاهة والنوادر - علاوة على ما بثه منها في كتبه السابقة - :
كتاب نوادر الحسن ، كتاب الملع والطرف ، كتاب المضحك (ذكره
أبو منصور البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ، كتاب المزاح والجدة ،
كتاب فرط جهل الكندي ، كتاب التريب والتدوير^(٣) .

(١) ضحى الإسلام ١ / ٤١٠ .

(٢) مروج الذهب ٢ / ٣٤٤ .

(٣) انظر أدب الجاحظ للسندوب من ١١٩ - ١٤٤ ومجموعة الروائع عدد ١٩

صفاته :

كان جد الجاحظ عبدا أسود ، فلا بدع أن يرث حفيده شيئا من خلفه ،
فبأنى دميم الهيئة ، بشع المنظر ، قصير القامة ، ناقى العينين ، وعلى هذا دعى
بالجاحظ . والحدق ، فغلب عليه اللقب الأول . وهو فى بعض الأحيان
يذكر بعض أخبار فى قبج صورته على سبيل التفسكة ، فمارواه : ذكرت
المتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رأى استشبع منظرى ، فأمرى لى بعشرة
آلاف درهم ، وصرفنى ، ^(١) وقال أيضا : ما أخجلنى إلا امرأتان : رأيت
إحداهما فى العسكر ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام ، فأردت أن
أمازحها ، فقلت : انزلى كلى معنا ! فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا !
(معرصة بقصره) .

وأما الأخرى ، فإنها أتتني ، وأنا على باب دارى ، فقالت : لى إليك
حاجة ، وأنا أريد أن تمشى معى . فقمتم معها إلى أن أتت بى إلى صائغ هودى
فقالت له : مثل هذا ، وانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها ، فقال : إنها
أتت لى بفص ، وأمرتني أن أنقش عليه صورة شيطان ، فقلت : ياسيتنى .
ما رأيت الشيطان ، فأنت بك ! ^(٢) وقد هجاه بذلك أحد الشعراء فقال :

لو يمسح الخنزير مسخا ثانيا ما كان إلا دون قبج الجاحظ .

وقد عوضه الله خيرا من قبج المنظر سرعة حافظه ، ووفرة ذكاءه ،
والظاهر أن فقره الذى بدأ به حياته ، وقبح منظره وقصر جسده الذى عرف
به قد هياه لأن ينكب على الكتب انكبأبا ، حتى يزيل بتفوقه فى العلم والأدب

(١) أدب الجاحظ للسندوبى ص ٢٧

(٢) المرجع السابق ص ١٦٦ .

ما كسى به من سوء المنظر . وقد طبعته خلقة - كما مثاله من غالية المشوهين - بطابع الظرف والفكاهة ، فهو أشبه في ذلك بإمام العبد الأديب المصرى الذى عاش فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين والشيخ عبدالعزبز البشرى الذى كان دميما ، والممثل الهزلى على الكسار الذى طالما أضحك الملايين وقد ساعده على ذلك سيرة بشرته وخلقه الخاصة .

وكان الجاحظ أميل إلى التفاؤل منهم إلى التشاؤم ، وينظر إلى الأمور كما هى فى واقعها كما ينظر إلى الناس نظر الخبير بطباعهم وأخلافهم ، فيحاسن الكبراء دون إسفاف ، ويحتنب مخاشنتهم ، تفاديا لشهرهم ، ويحلم عن الأشرار طبعاً وتطبعاً ، ويتعد عن الحاسدين للتخلص من شهرهم . وكان يحب اللهو وسماع القيان والمغنين ، لا يأنف إلا بما يضيع الوقت سدى^(١) . وكان فكها يحب النكتة ، ويتطلبها ، حتى فى أقدس المراقف وأوفر المواضع خطراً وأهمية ، وله ولوع شديد بالضحك والإضحاك ، ، فها يدل على اهتمامه بالضحك واستحسانه له قوله : « ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك ، وقبيحاً من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة والحلى والقصر المبنى : كما أنه يضحك ضحكاً ، وقد قال الله جل ذكره : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأه ، هو أمات وأحيى ، فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء ، بحذاء الموت ، وإنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح ، ولا يمن على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ، ومن مصلحة الطباع كبيراً ، وهوشىء فى أصل الطباع ، وفى أساس التركيب ، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي ، وقد تطيب نفسه ، وعليه يذبت شحمه ويكثر دمه ، الذى هو علة سروره ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك

وببسام وبطلق وبطلق ، وقد ضحك النبي ﷺ وفرح ، وضحك الصالحون وفرحوا ، (١) وقد ذكر أيضاً أن من فوائد الضحك أنه يساعد على هضم الطعام (٢) . وما يدل على ميله إلى الفكاهة معايشة المرأة والنعريض بطورها بقوله : انزلى كلّي معنا . وجاءه يوماً بعض الثملاء ، فقال : سمعت أن لك ألف جواب مسكت ، فملنى منها . فقال : نعم : فقال : إذا قال لى شخص : يازوج الفجبة ، يا ثقیل الروح ، أى شيء أقول له ؟

قال : قل له : صدقت ! (٣)

وكان الجاحظ يأكل مع محمد بن عبد الملك الزيات ، فجأوا بفالوذجة ، فتولع محمد بأبي عثمان الجاحظ ، وأسر بأن يجعل من جهته مارق من الجام ، فأسرع فى الأكل فتتظف ما بين يديه ، فقال ابن الزيات : تقشعت سماؤك . قبل سماء الناس ! فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقاً (٤) .

ومن فرط شغف الجاحظ بالفكاهة أنه كان يخاطب أهل الهزل ، ويروى من النوادر ولوعه على نفسه كقوله : دأما الذى أصابنى أنا من الذبان ، فإنى خرجت أمشى فى المبارك (٥) أريد دير الربيع ، ولم أقدر على دابة ، فررت فى عشب أشب ، ونبات ملتف ، كثير الذبان ، فسقط ذباب من تلك الذبان على أنفى ، فطرده ، فلم أقدر ، فتجول إلى عيني فطرده ، فعاد إلى موق عيني ، فزدت فى تحريك يدي ، فتنحى عني بقدر شدة حركتى ، وذبت عن عيني ولذبان السكلا والغياض والرياض وقع ليس لغيرها ، ثم عاد إلى ، فعدت عليه ، ثم عاد إلى ،

(١) كتاب البخل ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٨ .

(٣) أدب الجاحظ للسندوبى ص ١٦٩ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧١ .

(٥) أى مبارك الإبل .

فعدت بأشد من ذلك ، فلما عاد ، استعملت كمي ، فذبيت به عن وجهي ، ثم عاد وأنا في ذلك أحث السير ، أو مل بسرعة انقطاعه عني ، فلما عاد ، نزع طيأسه عني عن عنقي ، فذبيت به عني بدل كمي ، فلما عاود ، ولم أجد له حيلة استعملت العدو ، فعدت منه شوطاً تاماً لم أتكلف مثله منذ كنت صبياً ، فتلقتني الأنداسي ، فقال لي : مالك يا أبا عنبان ؟ هل من حادثة ؟

قلت : نعم ، أكبر الحوادث ، أريد أن أخرج من موضع اللذبان على فيه سلطان ! فضحك حتى جلس ، وانقطع عني ، وما صدقت بانقطاعه عني حتى تباعد جداً ! (ونلاحظ النكتة في استعماله السجع في نهاية نادرته : اللذبان على فيه سلطان) .

الجاحظ السـاخر :

عرفنا شخصية الجاحظ ، ورأينا إلى أي حد كان مشوه الصورة : فجحوظ عينيه ، وسواد بشرته ، وقصر قامته : كان كل ذلك يلفت الأنظار إليه ، كذلك فإن شعوره بالنقص لإحساسه بأصله البسيط ولنشأته الفقيرة كل ذلك قد بث في نفسه الشعور بالنقص ، ومن ثم فقد حاول أن يعلو بنفسه عن ذلك الدرك الأسفل الذي ولد فيه ونشأ . وقد اكتشف في نفسه - منذ الصغر - ميلا إلى الاطلاع والقراءة ، ميلا جعله يصبر على أن يجلس نفسه الزمن الطويل في القراءة ، تلك الوسيلة التي كانت تدفعه دفعاً إلى التفوق ، وكما أنه تنقل بين معارف شتى ، فكذلك أخذ يختلط بأناس كثيرين في عصره : ينتقل من طبقة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر ، زد على ذلك أنه عمر دهرأ طويلاً ، فكان لا يمر عليه يوم إلا ويزداد فيه معلومات ، ويمتلئ فيه بالتجارب ، ويكتشف رويداً رويداً متناقضات الحياة التي يحياها الإنسان : أولها ذلك الحظ الذي لا يسير بين الناس بالمنطق الذي يرضاه العقل الإنساني : فآناً يرفع من لا يستحق رفعه ولا يطمح إليها ، وآناً آخر يربط بمن يريد الارتفاع... كل ذلك

قد ولد في نفسه العجب والدهشة والتفكير الطويل من تلك المتناقضات التي مالبث أن ابتسم لها ، ثم بدأ يوطن نفسه على ألا يهتز لها اعتزازاً عاطفياً أو يفعل بسببها ، بل حسبها منها ، وحسبها منه أن ينظر إليها نظرة السخرية ، وتلك دائماً خاتمة مطاف كبار الفلاسفة والمتأملين . في تلك الحياة العجيبة المتناقضة ، وفي ذلك الزمن المليء بالمفاجآت والغرائب ! ولعله قد ورث الاستعداد للسخرية عن تلك الأم التي سخرت به منذ صغره حينما تعبت في محاولة ثنيه عن القراءة ، والانسكاب على الاطلاع إلى عمل يكسب منه قوته ، فقدمت إليه ساخرة - لما طلب منها طعاماً - طبقاً عليه بعض الكراريس !

وإذا به يرد عليها بنفس الأسلوب ، حينما خرج مغتماً ، وجلس في الجامع ، فمرف قصته موسى بن عمران ، فأعطاه خمسين ديناراً فاشتري الدقيق وغيره ، وحمله الجمالون إلى داره ، فلما أنكرت الأم ذلك وسألته عن مصدره ، قال : من الكراريس التي قدمتها إلى^(١).

وقد بلغت به السخرية حداً جعلته لا يأبه أن يروى عن نفسه استبشاع جارية منظره واصطحابها إياه إلى صانع لكي يرسم لها صورته - صورة عفريت - على خاتمها ! أو أن يعترف برفض المتوكل بحالته ، ومنحه بعض الدنانير ، تطييباً لحامله مع أن هذا الخليفة قد تمنى رؤية أبي العيناء الأعمى ! ومن كانت هذه حالته وتلك طبيعته ، فلا عجب أن يمتزج به المجون والفكاهة امتزاجاً يجعله يعبت بكثير ممن صادفهم في حياته^(٢). ولعله قد اتخذ هذا الأسلوب في الحياة ترويحاً عن نفسه لما شعر به من محاولة التضييق عليه من كانوا يحسونه حسداً جعله آناً ينسب كتبه إلى غيره كما اعترف غير مرة - مع

(١) أحمد بن يحيى بن المرتضى : ذكر المعتزلة طبعة حيدر آباد ص ٣٨ .

(٢) انظر المحوان ٣ / ١١٢ ، ١٠١ .

أن النتائج الفنى كالولد ، يعز على الإنسان نسبته إلى غيره - وأنا آخر يحاول أن يداريهم ويصايعهم ومرة ثالثة يؤلف رسالة عنهم .

ومما يروى عن تماجنه وسخريته أنه قال ما جنا سـاخراً بنفسه :
نسبت كـنيتى .

ولا شك أنه عرف ما يدور حول الوظائف الكبرى من حسد ودس ووشايات - وهو رجل لا قبل له باحتمال ذلك - ولهذا فقد رفض ذلك المنصب الخطير الذى عرضه عليه المأمرون - رئاسة الكتاب - ولم يمكث فيه إلا ثلاثة أيام ، خوفاً من الحاسدين من جهة ، ولحبه للحرية وانطلاقه فى ذلك الجو الذى طبع عليه وخلق له : وهو التحلل من القيود التى يتقيد بها الناس لما تفرضه عليهم طبيعة وظائفهم ، وميله إلى النقد المستمر ، وخصوصاً النقد الساخر الذى طبع عليه ولا قبل له بمفارقتة أو انتزاعه من نفسه ^(١) ومن عبته الساخر - الذى يدل على حبه لهذا الأسلوب دائماً - تلك القصة التى رواها ابن عساكر فى تاريخه وهى : دخل رجل على الجاحظ فقال له : يا أبا عثمان ، كيف حالك ؟ فقال الجاحظ : سألتنى عن الجملة فاسمعها منى واحداً واحداً : حالى أن الوزير يتكلم برأى وينفذ أسمى ويواتر الخليفة الصلات إلى ، وآكل من لحم الطير أسمئها ثم أصبر على هذا حتى يأتى الله بالفرج !

فقال له الرجل : الفرج ما أنت فيه . قال : بل أحب أن تكون الملامة لى ، وعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلى ، فهذا هو الفرج ^(٢) ! فهو يتكلم بهذه العبارات تماجناً كعادته ، مصوراً طموحه الذى لا يستحق منه إلا السخرية . . . ومن الطبيعى أن يقول تلك العبارات وهو

(١) شفيق جبرى : الجاحظ ص ١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢ .

يعرف تمام المعرفة ويعرف الناس معه أنه يقولها على سبيل السخرية ،
والألماس استطاع أن يتفوه بها ، وأن تشيع عنه فيحدث بها في مجالس
الخليفة وابن الزيات ، وإلا لدمرت الأرض من فوقه جزاء هذا
التهور وهو يشبه في سخريته بنفسه الممثل الساخر « نجيب الريحاني ،
حينما سأل الأطباء - وهو على فراش المرض - عن لسانه لكي يطمئن على
صحته - بعد فحصه - فلم يجيبوه خوفاً عليه من التأثير ، وإذا به يقول لهم ساخراً :
« أنا عازف إنه وسخ وطول عمره وسخا ، وما يدل على عبثه - مع أنه
أصبح كبير الكتاب - عبثه بأبي العيناء حينما أسر إلى حاجبه بالأيدى يخرج
ولا يمكنه من الرجوع إليه ، فلما خرج أبو العيناء من بين يديه ، وصار في
الدهليز حظه وضيق عليه . فنادى بأعلى صوته . يا أبا عثمان ، قد أريتنا
قدرتك ، فأرنا عفوك^(٢) . ونما يدل على ذلك قصصه التي رواها عن
نفسه^(٣) .

وقد ابس الجاحظ لباس الساخر حتى في تأليفه الذي لا يتصل بذلك ،
إذ كثيراً ما يؤلف الكتاب مدحاً في قوم أو رأى أو مذهب من المذاهب
ثم يؤلف الآخر في مدح أعداء هؤلاء القوم أو تحييد الرأي أو المذهب
المخالف لما مدح أو أثنى عليه ، وهو في الحقيقة لا يمدح أو ينقض مدحه ،
لأن غايته من وراء هذا وذاك هو العبث بكل تلك الطوائف المتعددة في الحياة
والتي تتناحر على شيء لا يستحق التناحر ، وتتفاخر بأشياء لا تستحق أن
يفتخر بها ، ومن أجل هذا عابه ابن قتيبة - عصبية عليه وكراهية له - إذ قال :

(١) أنظر نراد أبي العيناء للمؤلف .

(٢) أنظر أدب الجاحظ للسندوني ص ١٧٠ ، ١٧١ ورسالة البخلاء ص ٦٠ ،

٦١ ، ٩٤ من نشرة الجاحظ طبعة المعارف سنة ١٩٥٨

وتجده في كتبه يتصد للمضاحيك والعبث^(١) وفطن المسعودي إلى ذلك فقال :
« ولم يصنف الجاحظ هذا الكتاب - وهو كتاب الاحتجاج للراوندية -
ولا استقصى فيه الحجاج للراوندية - وهم شيعة ولد العباس - لأنه لم يكن
مذهبه ، ولا كان يعتقد ، لكن فعل ذلك تماجنا وتطربا^(٢) » ، ويقول أيضا :
« وقد صنف أيضا كتابا استقصى فيه الحجاج عند نفسه ، وأيده بالبراهين ،
وعضده بالأدلة فيما تصور من عقله ، ترجمه بكتاب العثمانية يحل فيه عند نفسه
فضائل علي ومناقبه ، ويحتج فيه لغيره طلبا لإمارة الحق ومضادة أهله ... ثم
لم يرض بهذا الكتاب المترجم بكتاب العثمانية حتى أحرقه بتصنيف آخر في
إمامة المروانية وأقوال شيعتهم^(٣) » .

وهكذا نرى الجاحظ لا يأبه بما يدور حوله من تطاحن الناس فيعبث
بهم ، منحازا أو متظاهرا بأنه ينحاز إلى تلك الطائفة مرة ، ثم إلى ضدها
مرة أخرى ، وإذا عرفنا هذا ، عرفنا السبب في تأليفه الكتاب وعكسه ،
كما نراه يؤاف كتابا في ذم أخلاق الكتاب وآخر في مدحهم ولعل الذي
ساعده على ذلك حبه أو غرامه بالجدل والحجاج الذي اكتسبه من طول
دراسته لعلم الكلام ، وكذلك لطبيعته التي تميل إلى شيء قليل أو كثير من
التحلل من القيود والاستمتاع بملاذ الحياة وأطايبها ، ولم يكن يتورع - زيادة
في الواقعية - أن يذكر ألفاظ العورات والفعل الجنسي أو العملية الجنسية
كقوله : أربعة أشياء مسرخة : أكل الرز البارد : . . . في الماء ، والقبل
على النقاب ، والغناء من وراء الستار^(٤) ولعل كثيرا من أعدائه قد شكوا

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتبية ص ٨٧

(٢) مروج الذهب ١٦٨/٢ (٣) المرجع السابق ١٢٠/٣

(٤) أدب الجاحظ للسندري ص ١٧٥ وانظر رسالته مفاخرة الجوارى والغلمان

في أكثر من موضع .

في عقيدته لمثل هذه العبارات ولعدم تأدية الفرائض ومنها الصلاة ، ولما أخذوه عليه من صفة «الوضع» ، في الحديث وقد اعترف أبو العيناء بأنه وضع هو والجاحظ حديث ذلك^(١) .

والحق أن طبيعة ميله إلى «الوضع» التي سرت في دمه وروحه ليست لها غاية دينية وضيعة - كالشعوبية وغيرهم - بل هي طبيعته الأدبية التي يساعد عليها ويخلقها جموج الخيال وحب الفن الذي يجعله لا يأبه ، ذلك بالحقائق - كما يراها الناس - أحيانا^(٢) . قال الدكتور طه الحاجري : « والجاحظ لم يكن يتخرج - لغاية في نفسه - من أن يكتب الكتاب ، ثم ينسبه إلى غيره ، وما كانت هذه الغاية إلا نوعا من العبث بخصومه ، أو الرغبة في إذاعة ما يكتبه وترويجه ، ومثل هذا لا يبلغ مبلغ ذلك الحافظ الفنى الذى يحفره إلى وضع الأحاديث إرضاء لتلك النزعة الغالبة عليه^(٣) ، وسنتكلم عن وضع الأحاديث وغيرها حين الكلام عن كتاب «البخلاء»^(٤) ،
سخر الجاحظ :

وقد سخر الجاحظ - أول ما سخر - من أصدقائه ، حتى قال السندوبى : « وهو أول من استباح لنفسه التندر بالأصدقاء والإخوان تارة بالتليح وذكر الصفات ، وأخرى بالتصريح وإبانة السمات ، فقيد عليهم أنفاسهم ، وخلد غرائب أطوارهم وعجائب تصرفاتهم ، وشواذ أغراضهم .. وعرض

(١) مقدمة نوادر أبي العيناء الطبعة الأولى ص ١٢

(٢) وجاء عنه في جمع الجواهر للحصرى ص ١٢١ « والجاحظ صنع هذه الأشعار لما وضع هذه الأخبار ، وكان قديرا على الشعر ،

(٣) البخلاء (طبعة المعارف) سنة ١٩٥٨ ص ٢٨

(٤) انظر ص ١٦٥ من هذا المبحث .

لأخدم بأغلاطهم وفلمات ألسنتهم ومساوى أعالهم ، وقد يجابه من شاء منهم بالنقد والذع والتجريح غير عابئ بعثهم ولا معتد بلائهم^(١) .

وإننا نستطيع أن نقسم نقداً لجاهظ وسخرية من ناحية الموضوع إلى تلك الأقسام :

أولاً : نقده الأحاديث الموضوعية ورفضه الخرافات وتفسير بعض آي القرآن بها ، وذلك لأنه عالم معزلى مدق لا يستمع إلا لصوت العقل وحده .

ثانياً : انتقاده العيوب الشائعة في عصره وعلى رأسها التطفيل والبخل واللصوصية .

ثالثاً : انتقاده بعض الطوائف كالقضاة والمعلمين .

أولاً - التفسير والخرافات :

ولتحكيمة العقل ، فقد خرج عما يعتقده الجمهور في تفسير بعض الآيات كمنقده تفسير رؤوس الشياطين بشمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كرية^(٢) أو تفسير « وطلح منضود » أن الطلح هو الموز^(٣) . وتعرض الجاحظ لبعض المفسرين الذين قد يتصورون تصورات غريبة ، فقال : « وزعم بعض المفسرين أن السمور خلق من عطاسة الأسد ، وأن الخنزير خلق من سلحة الفيل ، لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تآذوا بكثرة الفأر ، وشكوا إلى نوح ذلك ، سأل ربه الفرج ، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس ، فلما عطس خرج من منخرية زوج سنابير من ذكر

(١) أدب الجاحظ. للسندوني ص ٢٠٠ . (٢) الحيوان ٦/٦٤ .

(٣) الحيوان ١/١٦٨ .

وأنتى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن ، والأنتى من المنخر الأيسر ؛ فكفاهم مؤونة الجرذان ؛ ولم تأذوا برائحة نجوسهما شكوا ذلك إلى نوح ، وشكا ذلك إلى ربه ، فأمره أن يأمر الفيل فيسلح ، فسلح زوج خنازير ؛ فكفاهم مؤونة الخمر ، وهذا الحديث نافي عن العوام وعند بعض القصاص (١) .

ويظهر تهكم الجاحظ ببعض المفسرين من مجرد ذكره لتفسيرهم ، ومن هذا النوع قوله على لسان كيسان تعليقا على قوله المفسرين السابق : « فينبغى أن يكون ذلك السنور آدم السنابير ؛ وتلك السنورة حواءها » (٢) .

قال شفيق جبرى : « للجاحظ أسلوب في التهكم على بعض أهل التفسير والتأويل بسيط جدا ، وقد بلغ من بساطته أنه لا يكاد يظهر عليه أثر الاستهزاء والسخرية ؛ فهو بدس هذا التهكم دسا دون أن يظهر على بيانه ، فبدلا من أن يتعرض لهذه الطائفة من العلماء تعرضا ، ويجادلهم جدالا ، يكتفى في أكثر الأوقات بالدلالة على آرائهم والإشارة إلى مذاهبهم ولكن هذه الإشارة مهما تكن خفية ، ومهما تكن رمزا ، لا تخلو من روح التهكم ، فبينما الجاحظ مثلا يمدح قوله في باب من أبواب العلم ، ككتاب ما يعترى الإنسان بعد الخصاص وكيف كان قبل الخصاص ، وبينما يفيض في هذا الباب في أمور علمية ، إذ يعرض له رأى من الآراء التي لا يؤيدها العلم ، فيكتفى بالتنبيه عليه (كقصة خلق السنور لتأذى أصحاب نوح بالفأر) ثم يردف هذا القول كلامه على لسان كيسان (الذى ذكرته آنفا (٣)) أن مجرد ذكره لأشياء هذه الآراء في أثناء بحثه عن أمور مبدئية على العلم والعقل كاف للدلالة على سخريته بأصحابها ، فكأنه يغمز بعينيه غمزا ؛ فهو لا يتولى الطعن على هذه الآراء والمذاهب ، وإنما يكفى نفسه مؤونة هذا الطعن بتركه

(١) الحيوان ١٠٦/٥ وانظر ١٤/٦ ، ١٥٣/٥ ، ١٦٢/٦ .

(٢) المرجع السابق ٦٧/١ .

(٣) الجاحظ لشفيق جبرى ص ٢٠٤ ، ص ٢٠٥ .

للقارئ حق الحكم على مثل هذه الآراء ؛ وهذا الأسلوب على نزاهته الظاهرة لا يخلو من مهارة وحذق . فإن الجاحظ لا يتبرأ فيه التشنيع والتهجين ، وإنما يجر القارئ جراً إلى هذا التشنيع وإلى هذا التهجين (١) .

ثانياً : العيوب العامة :

١ - كتاب البخلاء

موضوع الكتاب :

حاولت أن أجيب عن هذا السؤال قبل قراءة الكتاب وبعده : إلى أى حد تتفق الأخبار التي أوردها الجاحظ عن البخلاء مع الواقع ؟

إنه يروى تلك الأخبار في كثير من الأحيان عن بعض من عاصرهم كشاهد عيان أو بطريق رجال آخرين : كما قال في أحد المواضع : « وكنت أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، وقطرب النحوي ، وأبو الفتح مؤدب منصور بن زياد على خوان فلان بن فلان ... الخ » ، ويضرب مثلاً للفرع الآخر من الرواية : « وحدثني صاحب لي قال ... » ، وفي موضع آخر من الصفحة نفسها : « وحدثني عما حب مسلحة باب الكرخ قال ... » ، وفي بعض الأحيان لا يسمى من يحدثه كالمثاليين السابقين ، وفي كثير من الأحيان يسمى من ينقل إليه الخبر كقوله : « حدثني أبو الجهماء النوشرائي قال ... » (٢) ، وهناك كثير من هذه الأسماء حاول محققو البخلاء وآخرهم الدكتور الجاحري معرفة أشخاصها فلم يوفقوا : إما لعدم اهتمام المعاصرين لهم بالكتابة عنهم ، وإما لأنهم أشخاص وهميون

(١) انظر الحيوان ٩٩/٤ (٢) البخلاء (دار المعارف) ص ٥٤

(٣) المراجع السابق ص ٤٤ (٤) المراجع السابق ص ٤٥

اختلفهم الجاحظ. اختلافا كما شك في ذلك الدكتور الحاجري بصدد شخصية
«أبي الفاتك»، و«الشورى»، وغيرهما (١).

ومهما يكن الأمر في مدى صدق الجاحظ في تلك القصص والأخبار
التي ينسبها إلى المعاصرين له والسابقين عليه سواء رآها حقا أو سمعها ممن كان
يجلس إليهم أو نقلها عما قرأ، مهما يكن الأمر في ذلك، فإن هذه الأخبار
أو القصص قد كتبت - ولا شك - بأسلوب الجاحظ، وحتى ما يمكن أن
يكون قد رواه عن أهل عصره بلسانهم حقيقة - فلا شك أنه قد بدل فيه
التبديل الذي يخضعه لأسلوبه أو الذي يجعله طيعا لقلبه، فيصهره ثم يلونه
كما يشتهي: والدليل على ذلك أمران:

أحدهما عدم الاختلاف بين أسلوبه فيما قاله بلسانه ورواه في البخلاء
وغيره من الكتب التي صنفها، وعما رواه ونسبه إلى أحد معاصريه،
كهبل بن هارون في رسالته وكابن التوهم في رده وفي تحامله على البخلاء.

ثانيهما: عندما عرضت الأحاديث النبوية التي استشهد بها الجاحظ -
وهي كثيرة تربو على المائة - وجدته لا يرويها بلفظها غالبا - وأعني بها كما
هوت في كتب الأحاديث الصحيحة - بل يخضعها لقلبه، ومن كان هذا شأنه
في أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأولى به أن يصوغ ما يرويها
حسب هواه، أو بعبارة أخرى تبعا لروحه واستجابة لغرضه في التحديث
هن البخلاء والرواية عنهم.

وللتدليل على ما قلناه عن أسلوبه - الذي يكاد ينساب في كتاب البخلاء
من أوله إلى آخره - أنه يمتاز بمدة ميزات لا يكاد يخلو منها موضع
في الكتاب: وأظهر هذه الميزات التي لا تخفى على فطنة القارئ العادي

ولوعه بتشقيق الكلام أو الخروج من جملة إلى جملة منشقة عنها وتتبعها هكذا
الجل التوالى لها : فهو فى كتاب الحيوان ، يحاول أن يعدد مساوىء الفأرة ،
فبدلاً من ذكرها فى جملة أو اثنتين أو عدة جمل ، فإنه يستفيض فى ذلك
لسعة خياله ومحاولة الإحاطة أو الشمول بذاكرته الغزيرة للموضوع وبذلك
تدقق المعانى عليه فى إطناب غريب فيقول فى معرض التهمك بزرادشت
وفى اعتقاد المجوس بمساوىء الفأر :

« ويزعّم زرادشت - وهو مذهب المجوس - أن الفأرة من
خلق الله ، وأن السنور من خلق الشيطان - وهو إبليس - وهو أهرمن ،
فإذا قيل له : كيف تقول ذلك ، والفأرة مفسدة ، تجذب فتيلة المصباح ،
فتحرق (١) بذلك البيت ، والقبائل الكثيرة ، والمدن العظام ، والأرباض
الواسعة بما فيها من الناس والحيوان والأموال ، وتقرض دقاتر العلم ،
وكتب الله ، ودقائق الحساب والصكاك والشروط ، وتقرض الثياب ، وربما
طلبت القطن لتأكل بذره ، فتدع اللحاف غربالاً ، وتقرض الجرب ،
وأوكية الأسقية ، والأزقاق ، والقرب ، فتخرج جميع ما فيها ، وتقع فى
الآنية وفى البئر ، فتموت فيه ، وتحوج الناس إلى مؤن عظام ، وربما عضت
رجل النائم ، وربما قتلت الإنسان بعضتها ، والفأر بخراسان ربما قطعت
أذن الرجل ، وجرذان أنطاكية تعجز عنها السنانير ، وقد جلا عنها قوم ،
وكرها آخرون لما كان جرذانها ، وهى التى فجرت المسناة ، حتى كان ذلك
سبب الحسر بأرض سبأ ، وهى المضروب بها المثل ، وسيل العرم بما قورخ
بزمانه العرب ، والعرم المسناة ، وإنما كان جرذاً ، وتقتل النخل والفسيل ،
وتخرب الضيعة ، وتأتى على أزمة الركب والخطم ، وغير ذلك من
الأموال . . . الخ (٢) .

(١) هنا يبدأ فى تشقيق الكلام أو فى تعديد النتائج المختلفة المترتبة

(٢) الحيوان ٩٩/٤

على الحريق .

ونجد من هذا الضرب الذى ذكرنا من كتاب الحيوان ، مثله حينما يتحدث عن الضحك وفوائده فى أول البخلاء :

« وإذا كان البكاء - وما دام صاحبه فيه فإنه فى بلاء ، وربما أعمى البصر ، وأفسد الدماغ ، ودل على السخف ، وقضى على صاحبه بالهلع ، وشبه بالآمة اللكماء ، وبالحديث الضرع كذلك . فما ظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه فى غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه ، ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة والحلى والقصر المبني : كأنه يضحك ضحكا . وقد قال الله جل ذكره : « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيى » فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، وإنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح ، ولا يمن على خلقه بالنقص . وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ، ومن مصلحة الطباع كبيرا ، وهو شئ فى أصل الطباع وفى أساس التركيب ؛ لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي وبه تطيب نفسه وعليه يثبت شحمه ، ويكثر دمه الذى هو علة سروره ومادة قوته ، (١) .

وهكذا نرى أسلوب الجاحظ - على السنة البخلاء - يكثر فيه من الاحتجاج المنطقي ، ومن العناية بكثرة إيراد الشواهد عن المتأخرين من حكماء وشعراء أو الأحاديث النبوية الشريفة من غير عناية كبيرة بتحقيقها وتخبر القوى منها والابتعاد عن المشكوك فيه أو المضعف أو الثابت أنه موضوع عقلا أو بمجرد النظر إليه نظرا بسيما (٢) . وكذلك يلاحظ على أسلوبه الذى يستخدم فى الحكاية عن البخلاء أو النطق به على ألسنتهم نلاحظ عليه العناية بأسلوبه الأدبى الرفيع ، حتى ما يحكيه عن أناس لا يظن أنهم

(١) البخلاء (طبعة دار المعارف) ص ٦

(٢) المرجع السابق

في كلامهم ونوادهم الشعبية التي تقال بديهة بعنوان بهذا النوع من الترف اللغظي والتأليف القوي بين الجمل أو الاستطراد في إيراد المعلومات المختلفة من تاريخيه وجغرافية وطبيعية (فيزيكية) وحيوانية وفلسفية وغيرها مما يدل دلالة واضحة على عمق الجاحظ الذي ألفها : ذلك العقل الفلاسفي الممتاز الذي استوعب جل ما كان في عصره من معلومات وعلوم .

وبعد ذلك نحاول أن نسأل أنفسنا : ما السبب في تأليف كتاب البخلاء ؟ يحاول الجاحظ أن يجيب عن هذا السؤال في أكثر من موضع في ثنايا الكتاب : فهو يبدأ كتابه ببيان السبب : وهو أن أحد الناس طلب منه تأليف ذلك الكتاب بعد أن أفاد من كتابه السابق د حيل لصوص النهار ، وحيل سراق الليل ، فحاول أن يذكره نوادر البخلاء ، واحتجاج الأشحاء ، وما يجوز من ذلك في باب الهزل ، وما يجوز منه في باب الجد ، لأجعل الهزل مستراحا ، والراحة جماما ،^(١) ، وأغلب الظن أن هذا السبب قد اختلقه الجاحظ. اختلاقا ليصدر به الكتاب ، لأن البخلاء ليسوا إلى هذا الحد من الخفاء عن أعين الناس أو ضمايرهم أو بصائرهم حتى يحاول الجاحظ أن يكشفهم للناس فيتجنبوهم ويتقوا شرهم ، كذلك فليس البخل شيئا مما يتعلم أو يمكن تجنبه أو اتباعه والتطبع به : إذ أنه غالبا ما يكون طبيعة في بعض النفوس التي تكون ذات استعداد فطري خاص للتطبع به ، ويفتج عن عوامل وراثية يديئة تتصل بالمجتمع الصغير وهو الأسرة وبالمجتمع الكبير الذي يضم آلاف الأسر في الوطن الواحد الذي تتحكم فيه تيارات اقتصادية خاصة : وهكذا نرى أنه ليس من الصعب أن يدرك الإنسان بقلبه السليم وبفطرته أن هذه

المقدمة لا يقصد بها شخص معين يقدم له الكتاب بها ، وإلا فليس من المتعذر ذكر اسمه ، بل هي محاولة إخفاء "غرض من تأليفه إخفاء ما وفي شيء من التماجن ، لئلا يلام الجاحظ اللوم الكبير على محاولة السخرية من البخلاء وكشفهم للعيان ، وقد أوما إلى شيء من ذلك في موضع من الكتاب بقوله : «ولسنا من تسمية الأصحاب المتهتكين ولا غيرهم من المستورين في شيء ، أما الصاحب فإننا لانسميه لحرمة وواجب حقه ، والآخر لانسميه لستر الله عليه ، ولما يجب لمن كان في مثل حاله ، وإنما نسمى من خرج من هاتين الحالين ، ولربما سمينا الصاحب إذا كان بمن يمازح بهذا كثيرا ، ورأيناه يتظرف به ، ويجعل ذلك الظرف سلما إلى منع شينه» (١) .

وبالإضافة إلى ما سبق ، فترى الجاحظ قد أوما إلى أحد أسباب تأليف هذا الكتاب وهو المزول الذي أفاض في الكلام عليه في مقدمة الكتاب ، وهو ما يعبر عنه - كما يفهم من كلامه تلييحاً - التعبير العلوي أو العصري بالسخرية من هؤلاء ، لكي يضحك منهم المجتمع من جهة ، ولكي يحذر من تحدثه نفسه باللائم بهم ، والسير على منهاجهم من جهة أخرى .

وأغلب الظن أن السبب الرئيسي في تأليف هذا الكتاب سبب شخصي : إذ أن الجاحظ يروي ~~كثيراً~~ من نوادر كتابه على أنها قد حدثت أمام سمعه وبصره وقد صدرت عن أصحابها الذين حينها كان يحضر مجالسهم كما حدث بينه وبين محفوظ النقاش حينما يختم ملاحظته على بخله بقوله «فما ضحكك قط كضحكتي تلك الليلة» (٢) . وكذلك ما يحكي عن أبي الهذيل (٣)

(١) البخلاء ص ٥٧ .

(٢) البخلاء ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٣) البخلاء ١٣٥ ، ١٣٦ .

ولذلك قال في أحده واضع الكتاب : هذه ملتقطات أحاديث أصحابنا وأحاديثنا ، وما رأينا بعيوننا ، ^(١) وما يدل على ضيقه بالبخلاء وعلى أنه كان يعاني منهم ما يحكيه قوله : « وهذا وشبهه إنما يطيب جدا إذا رأيت الحكاية بعينك ، لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء » ^(٢) .

وفي أحيان أخرى يضيف هذه النواذر إلى بعض الأشخاص المجهولين ، ويذكرهم أنهم رأوا مارأوا ، وقصروا عليه ذلك كقوله : « ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشيختنا على وجه الدهر » ، « حدثتني امرأة تعرف الأمور ، وبمحاولة البحث عن هؤلاء الأشخاص كأحمد بن خلف ، والباسيانى لانه لم ذكر افيما بين أيدينا من مراجع : فإما أنهم أشخاص غير حقيقين اخترعهم اختراعا كطريقته في وضع الشعر والأخبار والأحاديث ، وإما أن أكثرهم وهميون وبعضهم حقيقيون أهملهم التاريخ ولم يعن بذكرهم » .

ويمكن أن نقول في شيء من الاطمئنان إن السبب المباشر لتأليفه هذا الكتاب هو سخريته من هؤلاء البخلاء الذين حضر موائدهم أو رأى أحوالهم المضحكة فأراد الانتقام منهم لفرط حساسيته من جهة ، ولروح الفكاهة Sesne of Humour من جهة أخرى ، فألف هذا الكتاب لأن الأديب الحق لا بد وأن يكون قوى الحساسية ، وإذا أحس فلا بد له أن يعبر ، وإذا عبر فلا غضاضة من أن يطلق لخياله العنان ، وأن يترك طبيعته على سجيتها ، حتى تنتج له ما يخفف عنه ما يحسن به ، وما يرضى به تلك الطبيعة الفنية الخلاقة التي يسخر بها من البخل والبخلاء بعامة ، ومن بعض البخلاء بخاصة دون التعرض لذكر الأسماء كقوله : « وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها ، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها ، إما بالخوف منهم ، وإما بالإكرام لهم » ^(٣) .

(١) البخلاء ص ١٤٨

(٢) المرجع السابق ص ٥٨

(٣) المرجع السابق ص ٨

أما طريقته في ذلك فهي متعددة الجوانب :

فهو آنا يتحدث عن أهل بلد بعينه اشتهروا بالبخل كأهل مرو (المراورة) والمسجدين من أهل البصرة .

وآنا آخر يتحدث عن بعض البخلاء المشهورين بذلك كزبيدة بن حميد وأحمد بن خلف وسهل بن هارون .

وآنا ثالثا لا يذكر أسماء ، بل يسوق مجرد نواذر أو تشبيهات (كما يسمى الآن) لا يضيفها إلى أحد ، بل حسبه أنها حول البخل والبخلاء . وأكثر بخلاء الجاحظ. من أهل عصره ، ونادرا ما يذكر بخلاء سابقين ، كذلك الذي روى عن ابن المقفع ، وبعض الخلفاء الأمويين كعاوية وهشام ابني عبد الملك .

وأكثر بخلائه ومعظمهم ييخلون بطعامهم ، وهذه هي الناحية الغالبة على البخلاء في جل مواضع الكتاب .

وفي بعض الأحيان لا يخصص الفصل من كتاب لبخل واحد بل يستطرد بذكر نواذر لبخل آخر ، كما قال بعد أن أورد عن ثمامة نادرة في نهاية الحديث عن المراوذة ، « وليس هذا الحديث من حديث المراوذة ولكننا ضممناه إلى ما يشاكله »^(١) ، « وليس هذا الحديث لأهل مرو ، ولكن من شكل الحديث الأول »^(٢) .

وفي بعض الأحيان يوجز في إيراد النادرة : كذلك التشبيعة التي يرويها عن أراوذة ويفتح بها الحديث عنهم^(٣) . وفي بعض الأحيان يطيل حتى تستغرق القصة الصحيفتين .

(١) البخلاء ص ٣٨ .

(٢، ٣، ٤) المرجع السابق ص ١٧

والجاحظ. يحاول في هذا الكتاب أن يظهر بعض أخلاق البخلاء ومن أظهرها : الجبن والرضى بالذل^(١) .

وأخيرا فن أطرف ما جاء في هذا الكتاب أربع رسائل وضعها الجاحظ. وضعا : إما أسلوبا فحسب ، وإما أسلوبا وأفكارا وموضوعا .

• • •

كيفية السخرية في كتاب البخلاء :

وقد ظهرت للسخرية في كتاب البخلاء جليلة واضحة ، ولو أنه حاول أن يخفيها إخفاء ، فتظاهر بأنه إنما يروى نوادر ووقائع حدث وأن دوره في الكتاب هو دور المصنف أو جامع النوادر ، وأن ليس له من هدف إلا مجرد تسلية القارئ ببعض ما يضحك : وقد ظهر عبث الجاحظ بالبخلاء وأنه كان يقصد قصدا إلى الاستهزاء بهم وجرم إلى أن يتكلموا لكي يضحك منهم ملء فمه في عدة مواضع من الكتاب فعبث مرة بالحزamy وأخذ يشيره بقوله ساخرا : أعلمت أن خبز البلدي ينبت عليه شيء شبيه بالطين والتراب والغبار المتراكم ؟ قال : حبذا ذلك من خبز أوليته قد أشبه الأرض بأكثر من هذا المقدار^(٢) وسخر منه مرة ثانية قائلا :

استسلف منه على الأسراري مائة درهم ، فجاءني وهو حزين منكسر . فقلت له : إنما يحزن من لا يجد من أسلاف الصديق ، مخافة ألا يرجع إليه ماله ولا يعد ذلك هبة له . أو رجل يخاف الشكية ، فهو إن لم يسلف كرما ، أسلف خوفا .. إلخ .

قال : اللهم غفرا ! ليس ذاك بي . إنما بي أني قد كنت أظن أن أطماع الناس

(١) ص ٦١ ، ١٤٧ من البخلاء .

(٢) البخلاء ص ٦٠ .

قد صارت بممزل عني وآيسة مني ... إلخ (وهكذا أخذ يصوغ العبارات على لسانه تدل على فرط بخله ^(١)) .

وقال لمحمد بن أبي المؤمل : أراك تطعم الطعام وتتخذ ، وتنفق عليه المال وتجوده . وليس بين قلة الخبز وكثرة كثير ربح . والناس ييخلون من قل عدد خبزهم ، ورأوا أرض خوانه ، وعلى أنى أرى جماجم من يأكل معك أكثر من عدد خبزك ... إلخ .

فرد عليه قائلا :

قال : يا أبا عثمان ، أنت تخطيء ، وخطأ العاقل أبداً يكون عظيماً ، وإن كان في العذر قليلاً ... إلخ ^(٢) .

وللجاحظ طرق في السخرية بالبخلاء بأساوبه على لسانهم :

١ - التصوير المضحك :

فقال على لسان الحارثي يدافع عن كرهه دعوة الناس لتناول الطعام على مائدته :

« هذا على الأسواري ، أكل مع عيسى بن سليمان بن على ، فوضعت قدامهم سمكة عجيبية ، فائقة السمن ، فخلط بطنها جلاطة ، فإذا هو يكتنز شحما وقد كان غص بلقمة - وهو المستسقي - ففرغ من الشراب ، وقد غرف - بطنها كل إنسان منهم بلقمته غرفة . وكان عيسى ينتخب الأكلة ، ويختار منهم كل منهموم فيه أو مفتون به . فلما خاف على الأسواري الإخفاق ، وأشفق من الفوت وكان أقربهم إليه عيسى - استلب من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازي وانكدار العقاب ، من غير أن يكون أكل عنده قبل مرته . فقيل له : ويحك ! استلبت لقمة الأمير من يده ، وقد رفعها إليه ، وشحها لها

فاه ، من غير مؤانسة ولا مـازحة سـالفة . قال : لم يكن الأمر كذلك ، وكذب من قال ذلك . ولكننا أهوينا أيدينا معاً ، فوقعت يدي في مقدم الشحمة ، ووقعت يده في مؤخر الشحمة معاً ، والشحم ملتبس بالأمعاء ، فلما رفعنا أيدينا معاً ، كنت أنا أسرع حركة ، وكانت الأمعاء متصلة غير متباينة ، فتحول كل شيء في لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي ، لاتصال الجنس بالجنس ، والجوهر بالجوهر ،^(١) .

فهذا وصف مضحك مليء بالتهكم الخفي من الجاحظ. إزاء هذا البخيل الذي يصوره الجاحظ. نائراً على هذا الطاعم الجشع الذي أكل مع عيسى ابن سليمان ، ويحاول الجاحظ. أن يصفه - على لسان الحارثي - وصفاً دقيقاً كأنه - أي الحارثي البخيل - كان ينظر طوال تناول الطعام إلى كل لقمة يأكلها على الأسواري ، وإلى كل حركة يقرم بها ، ومن هنا يكمن التهكم وتنبع السخرية ، كذلك حينما يتحدث بلسانه مستخدماً بعض الألفاظ المضحكة والحركات المثيرة مثل : فخلط بطنها جلطة ، كان عيسى ينتخب الأكلة ، كل منهوم فيه ومفتون به ، استلب من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازي (وهذه الجملة تدل وتوميء إلى شدة بحل القاص من جهة وإلى هزء الجاحظ. من جهة أخرى) ، وكـم هو ساخر مضحك حينما يصف في النهاية كيف استلب اللقمة من يد الأمير ، ولكننا أهوينا أيدينا معاً ، فوقعت يدي في مقدم الشحمة ، ووقعت يده في مؤخر الشحمة معاً ، فلما رفعنا أيدينا معاً كنت أنا أسرع حركة فتحول كل شيء كان في لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي

ويصف آكلاً آخر نهما على لسان أبي فاتك قائلاً - ولا يملك الإنسان نفسه من الإغراب في الضحك من البخيل مرة ، ومن الجاحظ. الساخر واضح هذا الكلام مرة أخرى :

وما ظنكم برجل نهش بضعة لحم تعرقا ، فبلع ضرره وهو لا يعلم !
 (وهذا من تشبيعات الجاحظ) فعل ذلك عند إبراهيم بن الخطاب مولى سليم
 وكان إذا أكل ذهب عقله ، وجمحت عينه ، وسكر وسدد وأنهر ، وتربد
 وجهه ، وعصب ولم يسمع ، ولم يبصر ، فلما رأيت ما يعتريه ، وما يعترى
 الطعام منه ، صرت لا آذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والبقاقل . ولم
 يفجأني قط وأنا آكل تمرأ إلا استفه سفا ، وحساه حسوا ، وزدابه زدوا
 ولا وجده كنيزا إلا تناول القطعة كجمجمة الثور ، ثم يأخذ بحضنها ، ويقلمها
 من الأرض ، ثم لا يزال ينهشها طولا وعرضا ورفعاً وخفضاً ، حتى يأتي
 عليها جميعاً ، ثم لا يقع غضبه إلا على الأنصاف والأثلاث . ولم يفصل ثمرة
 قط من ثمرة . وكان صاحب جل ، ولم يكن يرضى بالتفاريق . ولا رعى
 بنواة قط ، ولا نزع قمأ ، ولا نفي عنه قدرا ، ولا فتشه مخافة السوس
 والدود . ثم ما رأيت إلا وكأنه طالب ثار ، وشحشحان صاحب طائلة .
 وكأنه عاشق مغتلم ، أو جائع مقرور !

وهكذا يصور الجاحظ البخيل - بطريق غير مباشر - تصويرا ساخرا
 عن طريق إنطافئه بكل هذه الجمل المضحكة ، معبرة عن مدى غيظه البخيل عن
 يأكل لديه أو على مائدته ، وهو بهذا يصور شدة حساسية البخيل ، ومن ثم
 مبالغته في تصور من يأكل عنده تصورا يدفعه دفعا إلى تصويره بهذه الصور
 المضحكة : إذ هي تضحكننا من هذا النهم ، وتضحكننا من هذا الذي يتصوره
 قد أوتى كل هذا النهم : ولا يالو الجاحظ جهدا في رسم الصورة مستخدما
 كل ما يستطيع من ألوان ومن قوة كامنة في نفسه على السخر .

فن ناحية الألفاظ يستخدم هذه الألفاظ المعبرة العنيفة التعبير مثل :
 نهش ، ما يعترى الطعام منه ، استف الترسفا ، ويستخدم المفعول المطلق
 لتقوية المعنى الذي أراد ، ثم المترادفات : وحساه حسوا ، وزدابه زدوا .
 وهو حينما يصور النهم ، يصل إلى الغاية في ذلك مصورا ليأبه بأنه فقد عقله

حين هم يتناول الطعام ، في حين أن الذي فقد عقله هو هذا البخيل الراوى لتلك القصة .

ويبالغ في ذلك مبالغة مضحكة حتى يقول إنه ابتلع ضرسه ! دسكرو وسدر وانهر ، (لاحظ الجنس القوي اللطيف بين الكلمتين سكر وسدر) وتردد وجهه ، وعصب ولم نسمع ، ولم يسمع ، ولم يبصر ، وبلغ نهاية القوة حينها قال : ما يعتريه وما يعترى الطعام منه !

ثم يستخدم التشبيه المضحك مما يدل على تحسره على طعامه الذي أكل : يتناول القطعة كجذعة الثور ! ثم يعاملها كما يعامل الأسد فريسته : ثم يأخذ بعضها ويقطعها من الأرض . . . ثم لا يزال ينهشها طويلاً وعرضاً ، ويرفعها وخفضاً - وهذه مبالغة في إعطاء الصورة واقعيتهما - ويتفكه فيقول : وكان صاحب جمل ولم يكن يرضى بالتفاريق ! وكأنه طالب ثار ، وشحشحان صاحب طائلة ، وكأنه عاشق مغتلم ، أو جائع مقرور (١) !

ويقول على لسان الثورى فاسبا لإيه هذا المثل المعروف : وكان يقول : كلوا الباقي بتشوره ، فإن الباقي يقول : من أكلني بقشورى فقد أكلنى ، ومن أكلني بنشورى فأنا الذى آكله ! فإنا حاجتكم إلى أن تصيروا طعاماً لطعامكم ، وأكلنا جعل أكلنا لكم (٢) .

ويبلغ الجاحظ نهاية السخرية والإضحاك حينما ينطق البخلاء بحجج على فوائد أشياء تافهة ، لا يصدقها العقل كما أنطق الثورى بقوله مخاطباً أولاده : لا تلقوا نوى النمر والرطب ، وتعودوا ابتلاءه ، وخذوا حلوقكم بتسويغته ؛ فإن النوى يعقد الشحم فى البطن ، ويدفع الحكيمين بذلك الشحم

(١) البخلاء ٧٩ ، ٨٠

(٢) البخلاء ١٠٣

(م - ١٤ السخرية)

فهو هنا يناظر بقوله إن النوى يعقد الشحم في البطن ، ويبنى مغالطة على مغالطة بقوله : يدق الكايتين بذلك الشحم !

ثم يستمر في احتجاجه :

واعتبروا ذلك يبطون الصفايا وجميع ما يعتلف النوى ، وهنا يربط بين الإنسان والحيوان في محاولته - لشدة بخله - تشبيه الأول بالثاني في قوة الاحتمال : « والله لو حملتم أنفسكم على البذر والنوى ، وعلى قضم الشعير واعتلاف القت ، لو جدموها ريمة القبول ، وهنا يبدأ الجاحظ في هزله ومجونه على لسان هذا البخيل : وقد يأكل الناس القت قداحاً ، والشعير فريكاً ، ونوى البسر الأخضر ، ونوى العجوة ! فإنما بقيت الآن عليكم عقبة واحدة (وكأنه وجدتم قد انصاعوا له ووافقوا على ما يقول) لو رغبت في الدفء لالتستم الشحم ؛ كيف لا تطلبون شيئاً يغنيكم عن دخان الوقود ؟ ، وهنا يبدأ في ذكر مبالغته وبنائه مغالطة على مغالطة - وعن شناعة السكر ، وعن ثقل الغرم ، والشحم يفرج القلب ، ويبيض الوجه ، والنار تسود الوجه^(١) .

ويحاول الجاحظ أن يتهكم بتمام بن جعفر ووضع في صورة مضحكة حينما يحاول أن ينسب ألم غريمه الذي يأكل طعامه إلى جشعه فحينما يشكو وجع ضرسه ، يرد عليه رداً مضحكاً مغيظاً قائلاً :

عجبت كيف اشتكيت واحداً ، وكيف لم تشك الجميع ؟ وكيف بقيت إلى اليوم في فيك حاكّة ؟ وأي ضرر يقوى على الضرر والطحن ؟ والله إن الأرحاء السوربة لتكل ، وإن المنحاز الغليظ لبتعبه الدق ، ولقد استبطأت لك هذه العلة . أرفق ، فإن الرفق يمن ، ولا تحرق بنفسك فإن الحرق شؤم !

وهكذا يطلب الجاحظ على لسان هذا البخيل في غناطية هذا النهم الذي يشكو ضرره ، إطناباً لا يحمل مجالا للشك في أن هذه الجمل وهذه المترادفات

هى من أسلوب الجاحظ ومن كلامه ، أطال فيها إطالة وأطنب فيها إطناباً
لكى يستجلب الضحك ، فيصل إلى غرضه من السخرية والتهكم ١

ويستمر الجاحظ فى تهكمه هكذا فى قصة تمام بن جعفر حين يعدد أنواع
الشكاوى التى يشكو بها صاحبه أو نديمه ، أو أنواع المزايا التى يتمتع بها
كفونه على المشى قائلاً : ما فى الأرض أحد أمشى منى ، ولا على ظهرها أقوى
على الحضر منى (١) .

قال : وما يمنعك من ذلك ، وأنت تأكل أكل عشرة ؟ وهل يحمل الرجل
إلا البطن ؟ لا حمد الله من يحمذك ؟ فإن قال - بالعكس - لا والله لا أقدر أن
أمشى ، لأنى أضعف الخلق عنه ، لنى لأنهر من مشى ثلاثين خطوة ؟ قال :
وكيف تمشى ، وقد جعلت فى بطنك ما يحمله عشرون حمالاً ؟ وهل ينطلق
الناس إلا مع خفة الأكل ؟ وأى بطن يقدر على الحركة ؟ وإن كان غليظ -
ايحجز عن الركوع والسجود ، فكيف بالمشى الكثير ؟

وهكذا يستمر الجاحظ فى الكلام على لسان تمام بن جعفر البخیل مبكناً صاحبه
بطريقة مضحكة ساخرة تهملنا لأننا نملك أنفسنا من الضحك من هذا البخیل بهذا
النشئ الذى يثار فى عباراته ، تلك التى يستخدم فيها كثرة المترادفات وإن هذا
الأسلوب ليزكرنا بطريقة ابن المقفع فى سخريته من الملك على لسان الوزير
فى قصة إبلاد وإيراخت وشادرم التى تكلمت عليها سالفاً (٢) .



٢ - ومن طريقة سخرية الجاحظ أيضاً بالبخلاء : الكلام على لسانهم
بمغالطات فى الاحتجاج لبخلهم أو التعليل له بمثل مضحكة كما قال بشار :
وللبخیل على أمواله غل - زرق العيون عليها أوجه سود

(١) لاحظ استخدام الجملة الثانية فى هذه العبارة التى تدل على أن هذا
الأسلوب ذا المترادفات التى يعنى بعضها عن بعض هو أسلوب الجاحظ .
(٢) انظر صفحتى ١١٦ ، ١١٧ من البخلاء .

أو المغالطات الجدلية ، أو المبالغة في الاحتجاج ، أو الإطالة فيه ، أو تشقيق الكلام ، أو ذكر الألفاظ الخاصة بالمصطلحات الفلسفية في كلامهم ، أو الخروج من شرط إلى شرط آخر مبنى على سابقه .



فمن تعليله لعدم ارتياحه لقبول زقاق دبس أهدي إليه قوله : أول ذلك كراه الحال . ثم هو على خطر حتى يصير إلى المنزل . فإذا صار إلى المنزل ، صار سلباً لطلاب الهدية والأرزاء والمستندود . فإن بعته فراراً من هذا ، صير تموني شهرة ، وتركتموني عنده آية . وإن أنا حبسته ، ذهب في المعصائد وأشياء المعصائد ، وجذب ذلك شراء السمن (لاحظ ما توحى به لفظة جذب من خفة وتهكم) ، ثم جذب السمن غيره ، وصار هذا الدبس أضرب علينا من العيال

وهكذا يستمر الجاحظ في إيراد العلل المختلفة التي يعتل بها ذلك البخيل في كراهيته لقبول الدبس هدية ، فيدني فعلاً على فعل ، ويخرج من شرط إلى شرط ، ويذكر متاعبه وتوزعه بين أنواع السلوك المختلفة التي لا يقل أحدها عن الآخر تحيراً له .

ثم يذكر فقرة أخرى مكونة من عشرة أسطر حول قلقه من جعل هذا الدبس نبيذاً :

وإن أنا جعلته نبيذاً ، احتجت إلى كراه القدور ، وإلى شراء الحب ، وإلى شراء الماء ، وإلى كراه من يوقد تحتته ، وإلى التفرغ له .

فإن ولت ذلك الخادم اسود ثوبها ، وغرمنا ثمن الأثمان والصابون ، وازدادت في الطعم على قدر الزيادة في العمل (وهكذا يهيم استخدام الخادم في صنع النعيم وما ينتج عن ذلك من نتائج لا يعرفها إلا البخلاء ، ولا يفطن إليها ويولدها إلا أمثال الجاحظ في تهكمه وسعة خياله الساخر)

ثم يذكر في الفقرة الثالثة التي تبلغ سبعة أسطر همه وحزنه وطول تفكيره

إذا جلس في البيت ليشر به ، وما يحتاجه للنبيذ ، لا بد له من درجهم لحم (١)
ومن طسوج نقل وقطر اطر بحان ، ومن أبنار للقد .. و .. الخ .

ثم يبدأ يذكر النديم في خوف وهلع مضحك : وهو بعد هذا شوم
وخرقة وخروج من العادة الحسنة او الجملة الأخيرة من جمل الجاحظ
الهمكية - ا فإن كان النديم غير موافق ، فاهل الحبس أحسن حالا مني .
وإن كان - وأعوذ بالله - موافقا - فقد فتح الله علي الى بابا من التلف لأنه
حينئذ يسير في مالي كصيرى في مال من هو فوقى وإذا علم الصديق أن عندي
زائرا وينبذا ، دق الباب دق المدل : فإن حجبتاه فنبلاء ، وإن أدخلناه فشقاء .
وهكذا يختم تلك الفقرة بهذه الجملة الهمكية الرائعة التي لا تغلو من
سجع لطيف ا

ثم يبدأ الفقرة الرابعة من احتجاجة متضمنة ما سبق من خصائص نهكم
الجاحظ. باللفظه المفردة أنا وبالجملة أنا آخر ، كقوله : وإن بدا لي في
استحسان حديث الناس ، كما يستحسنه مني من أكون عنده ، فقد شارك
المسرفين ، وفارقت إخواني من المصلحين ، وصرت من إخوان الشياطين .
ونلاحظ. هذه الجملة الأخيرة المقتبسة من الآية ، يستعملها في خفة وبراعة
مقابلة للجملة السابقة لتمام ثم يبدأ في استنتاج المغالطة تلك التي تبني دائما على
ما في أدمغة البخلاء الموهومين من وهم ومن تصور ما بالغ فيه لضرر الإسراف :
فإذا صرت كذلك ، فقد ذهب كسبي من مال غيري ، وصار غيري
يكسب مني ا .

ثم أخيرا يختم احتجاجة بهذه العبارة المضحكة التي تجمع نفسية البخيل
الخائفة الوجلة في تلك الكلمات :

(١) لاحظ استعمال الجاحظ بالصغر درهم وما يدل ذلك على نهكم خفي .

هذا الدوشاب دسيس من الحرقة ، وكيد من الشيطان وخدعة من الحسود
وهو الخلاوة التي تعقب المرارة ، ما أخوفنى أن يكون أبو سليمان قد مل منادمتى
فهو يحنال لى الحيل ا ، ، (١)

ومثل ما سبق ما قاله الجاحظ. على اسان أبى سعيد المدائنى فى تعليقه عدم
غسله الثرب وتركه قدرا :

ويبدأ بذكر أضرار الغسل ، وأول ذلك الغرم الذى يكون فى الماء
والصابون ، والجارية إذا ازدادت عناء ، ازدادت أكلا . . ثم ينتهى بعقد
اثنى عشر سطرأ إلى هذه العبارة المضحكة ، تلك التى تضحكننا من عقل البخلاء ،
ومن لدع الجاحظ ونخبته : فيصير ذلك مدعاة إلى دخول الحمام . فإن دخلته
فغرم ثقيل ، مع المخاطرة بالثياب ، ولى امرأة جميلة شابة إذا رأته قد
اطلعت وغسلت رأسى ، وييضت ثوبى ، عارضتفى بالتطيب وبليس أحسن
ثيابها ، وتعرضت لى ، وأنا فعل ، وفعل إذاهاج ، لم يرد رأسه شيء ،
فإذا أردت مرافقتها ، ورأت حرصى ، نثرت على الحوائج نثرا . ثم احتجنا
إلى تسخين الماء ، وأشد من هذا كله أن تعلق ، فنتحتاج إلى ظئر ، فنقع فى
مألا غاية له ا ، ، (٢)

ثم ينتهى الجاحظ فى المبالغة فيقول أخيرا : « مع أمور كثيرة ، نعى
بعضها ، وبعضها أنا ، ،

ولست أدري ، ما الأمور التالية التى يمكن أن يفتق العقل البصرى عنها
بعد الذى ذكره فى عشرين سطرأ ١ إنها لعمري إحدى خباثات الجاحظ فى
التم كى ا

(١) البخلاء. ص ٦٣ ، ٦٤

(٢) البخلاء ص ١٣٩ ، ١٤١ وانظر أيضا ص ٦٨

وهناك أمثلة تشبه ما سبق في احتجاج البخلاء بهذه الطريقة منها تحليل
أبي سعيد المدائني سبب ذهابه للمطالبة بدينه والإلحاح في ذلك على الرغم مما
يتعرضه من صعاب في ذلك : (١)

° ° °

وما يستخدمه الجاحظ في احتجاج البخلاء - أو حجاجه على السنتهم : كثرة
الاستشهاد وهي إما الاستشهاد بأقوال من سبق وإما الاستشهاد بأقوال النبي
صلى الله عليه وسلم ، ولا يراعى في ذلك اختيار الصحيح منها ، بل يستخدم
كل ما دار على السنة العوام والخواص من أقوال النبي أو أفعاله إن صدقا وإن
كذبا : كاستشهاده على البخل وعدم التأذي بلبس المرقع من الثياب بأن النبي
« كان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويلطع إصبعه ويقول لو أتيت بفراع
لا كنت ، ولو دعيت إلى كراع لأجبت ، » (٢) ومن ناحية الترفيع ، فهو ثابت
لكن النبي (ص) كان يفعل ذلك زهدا لا بخلا .

واستشهاده بقول النبي (ص) وهو موضوع (٣) « إذا طبختم لحما فزيدوا
في الماء ، فإن لم يصب أحدكم لحما ، أعصاب مرقا ، »

وذكر هذا المثل دادعى أنه حديث : « من الذود إلى الذود ليل ، » (٤)
أو استشاده بهذا الحديث الموضوع : جمع الشر كله في بيت ، وأغلق عليه ،
فكان مفتاحه السكر (٥) .

(١) البخلاء ١٣٨ .

(٢) ، (٣) ص ١١ من البخلاء .

(٤) أنظر البخلاء ص ٣ . وتعلق الدكتور الجاجري عليه .

(٥) قال العجلوني في كشف الخفاء ١ / ٢٨٣ ما يلي باختصار : وله صكري
عن أم أيمن موفرا : إياك والخر ، فإنها مفتاح الشر ، وله أيضا (بصنع أخرى)
مثل ما سبق ... وشراء هذا المعنى كثير ... ص ٢٦ من البخلاء .

وما جاء به من الأحاديث الموضوعة التي لم يعن محقق البخلاء بالبحث فيها الجار قبل المدار ، والمرقيق قبل الطريق ، (١) .

وهكذا نرى أن الجاحظ يذكر على السنة بخلاءه كثيراً من الأحاديث التي يستشهدون بها وهي تربو على المائة - كما لاحظت - وهو يورد هذه الأحاديث في معرض النهي بأصحابها ، وعندما يكون قد تقمصته روح السخرية ، وهو لذلك لا يعنى بشيء من تحقيق أو اختيار بل يهمله إيرادها ، كأنه يبرأ من مثل هذه الأحاديث الموضوعة أو التي لا يحتاج العقل إلى إثبات عدم صحتها ، كأنه يبرأ من مثل هذه الأحاديث يزيد تمسكاً بمن يوردون هذه الأحاديث في معرض حجاجهم واستشهادهم على صواب رأيهم في البخل فهو كأنه ينسبها إلى سحره من بخلهم تمسكاً بجهلهم بإيراده هذه الأحاديث . مثل شيد الطعام الثريد ، ومثل عائشة في نفسه ، مثل عائشة في الطعام ، (٢) .

وكما يذكر لعمر قوله لأهله : املسوا المعجين ، فإنه أربيع الطحينيين ، (٣) وكما يفدى زيدة بن حميد النبي بقوله : بأبي وأمي رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : جمع الشر كله في بيت ، وأخلق عليه . فكان مفتاحه السكر ، فهو يفدى النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنه قال حديثاً - موضوعاً - وافق هواه انتهى به النهي بالبخل والإضرار بهم .

وهو أحياناً يعتمد على ما ينسب إلى القدماء فيما يوافق مذهب البخلاء ويعتمد احتجاجهم - وغالباً ما يكون هؤلاء الأقدمون من الزاهدين في الدنيا : كعمر بن الخطاب ، والمسيح عليه السلام وغيرهما (٤) وفي بعض الأحيان

(١) ضلله المقلون في كشف الخفاء ٣٢٧/١

(٢) البخلاء ص ٧٤

(٣) البخلاء ص ١٠

(٤) انظر ص ١٠٨ ، ١٠٩ من البخلاء .

يذكر الاحتجاج بأشخاص اشتهروا بالبخل منذ القدم كبعض الجاهليين وأبي الأسود الدؤلي والأصمعي وخالد بن عبد الله القسري^(١).

٣ - المصطلحات الفلسفية .

وما يلاحظ على أسلوب الجاحظ. الحجاجي على السنة البخلاء استخدامه ببعض المصطلحات الفلسفية كقوله : وربما عجل عليه ، فقدمه حارا ، متعنا ، وربما كان من جوهر بطيء الفتور^(٢) .

وجاء أيضا : « فتحول كل شيء كان في لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي ، لاتصال الجنس بالجنس ، والجوهر بالجوهر »^(٣) .

وقال على لسان المنكي : فإذا هو يريد أن تدفع جوهرًا بجوهر ، وعرضًا بعرض ، حتى لا تبيع أمه إلا صرف ما بين العرضين . . . وما كانت إلا أن تبادله الأعراض وتسلم إليه الجوهر ،^(٤) .

وهكذا يابى الجاحظ إلا أن يفصح عن أسلوبه بصياغة كتابه هذه الصياغة التي تخضع لما اشتهر عنه من اشتغاله بعلم الكلام والفلسفة من جهة ولما عرف عنه من روح هائلة ساخرة من جهة أخرى .

وما يدخل في هذا الحجاج الذي يتخذ صورة الحجاج المنطقي الفلسفي الجدلي قواه ، وعبتموني حين زعمت أني أقدم المال على العلم ، لأن المال به يغاث العالم ، وبه تقوم النفوس ، قبل أن تعرف فضيلة العلم . وأن الأصل أحق بالتميز من الفرع ، وأنى قلت : وإن كنا نستبين الأمور بالنفوس ، فإننا بالكفاية نستبين ، وبالحلة نعمي . . .^(٥) .

(١) وقد شك الدكتور الحاجري في صحة رمي القسري بالبخل .

(٢، ١) البخلاء ص ٦٩

(٥) البخلاء ١٤ ، ١٥

(٤) البخلاء ص ١١٣

ومن قوله أيضا ويدخل في هذا الباب ، وأكلى وحدى هو الأصل ،
وأكلى مع غيرى زيادة في الأصل ،^(١) .

وكذلك هذه العبارة ومن يشك أن الوحدة خير من جليس السوء
وأن جليس السوء خير من أكل السوء ، لأن كل أكل جليس ، وليس
كل جليس أكل ،^(٢) ومن هذا القبيل الاحتجاج للزجاج وذكر فضله
على غيره^(٣) .

ومن أروع ما جاء في الاحتجاج هو ما ساقه على لسان سهل بن هارون في
رسالته التي يشك فيها الحاجري وينسبها للجاحظ ، وأنا أنضم إليه في هذا
الشك ، وهذه الرسالة تحوى من طرق الحجاج والمغالطات السوفسطائية
ما يصل بالجاحظ إلى رتبة كبار المتكلمين الوضاعين لافى الأدب العربى
فحسب بل فى الآداب العالمية فما يذكره من هذا الباب على لسان سهل
ويدخل فى موضوعنا قواه ، وعبتمونى حين زعمت أن التبذير إلى مال القمار
ومال الميراث ، وإلى مال الالتقاط وحباء الملوك أسرع ، وأن الحفظ إلى
المال المكتسب والغنى المحتلب ، وإلى ما يعرض فيه لذهاب الدين واهتضام
العرض ونصب البدن واهتمام القلب أسرع ، وأن من لم يحسب ذهاب نفقته
لم يحسب دخوله ، ومن لم يحسب الدخول فقد أضاع الأصل ، وأن من لم
يعرف للغنى قدره ، فقد أذن بالفقر ، وطاب نفسا بالذل^(٤) .

(١) ص ٢٤ من البخلاء

(٢) ص ٦٧ من البخلاء

(٣) ص ٢١ من البخلاء

(٤) ص ١٣ من البخلاء

وبما يدخل في باب المغالطات الجدلية المضحكة قوله على لسان الثوري
لابنه :

« أى بنى إن إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوايق وإنفاق
الدوايق يفتح عليك أبواب الدراهم ، وإنفاق الدراهم يفتح عليك أبواب
الدنانير ، والعشرات تفتح عليك أبواب المئين ، والمئون تفتح عليك أبواب
الآلاف ، حتى يأتى ذلك على الفرع والأصل ، ويغامس على العين والآثر
ويحتمل القليل والكثير .

أى بنى : إنما صار تأويل الدرهم « داراهم » ، وتأويل الدينار « دينى
من النار » .

ونستطيع أن نختم الكلام على استخدام الجاحظ الحجاج والمبالغة فيه
أو إطالته كوسيلة من وسائل السخرية بالبخل أو استخدام الألفاظ أو
الجل الفلسفية الجدلية بالاكتفاء بما ذكر من أمثلة والإحالة إلى صفحات
أخرى من الكتاب كأمثلة مطولة لما ذكرنا ولا نستطيع سردها ، كهذا
الاحتجاج الطويل الذى بلغ تسع صفحات^(١) أو كثرة الاحتجاج بأقوال
السابقين^(٢) أو الاحتجاج على منافع الملاة^(٣) أو الاحتجاج للبخل والبخلاء
وما عتبه من أسماء^(٤) أو استطراده اللطيف^(٥) فن استشهاده المضحك :
وقال عمر : من أكل بيضة فقد أكل دجاجة^(٦) ، ، ،

(١) ص ١٠٦ وهو يقترب من هنا المثل الانجليزي المعروف مع ما بينهما من

فرق في التعبير وعدم المبالغة Take Care of the Pence ... etc ...

(٢) ص ١٨٢ من البخلاء (٣) ص ١٤٦ من البخلاء

(٤) ص ١٠٥ من البخلاء (٥) ص ٦٢ ، ٦٣

(٦) ص ١٢٧ (٧) البخلاء ص ١٢

٤ - والطريقة الرابعة هي السخرية بجملة يشيع فيها انهم بصرف النظر عن العبارة بأجمعها : وأولها استخفافه الجملة الاعتراضية كثيرا : كقوله على التلبيذ الذي يستخرجه من الدبس وهو ضائق بقبوله هدية : ، ، ، ، وإن سلم - وأعوذ بالله - وجاد وصفا ، لم نجد بلدا من شربه ، ، ، ، (١)

وهناك عبارات أخرى غير الجمل الاعتراضية مثل قوله على لسان بنخيل :
ألقهم إلى استعرقك ، فأحرق كل شيء لنا (٢)

وقوله : د وأن الناس يظلمون الكذب يتناسى مناقبه ، ، ، (٣) وقوله : ، ، ،
ومن أطعم النار ، جعله الله يوم القيامة طعاما للنار ، ، ، (٤)

وقوله على لسان قوم استمعوا إلى حديث أحد البخلاء . فأعجبوا بحسن تدبيره : د هذا بتوفيق الله وعنه ، ، ، (٥)

وقوله على لسان أحدهم : ، أرجو أن يكون الله قد جمع لك بهذا السمال مصالح كثيرة ، لما فتح الله لك بهذه النخالة ، ، ، (٦) ويرد عليه آخر : د صدأت ، مثل هذا يكتسب بالرأى ، ولا يكون إلا سماويا ، ، ، (٧)

وقوله : د ، ، ، ، والقداحة الغليظة بالثمن الموضع ، ، ، (٨) وقوله : د فزعم
لنا صديقنا الثوري ، وهو ما علمت أحد المرشدين ، ، ، (٩)

-
- | | |
|-------------------------|-------------------------------|
| (١) ص ٦٣ من البخلاء . | (٢) ص ٢٨ من البخلاء . |
| (٣) ص ٢٠ (نفس المرجع) . | (٤) ص ٢٠ ، ٢١ المرجع السابق . |
| (٥) ص ٢٩ | (٦) ص ٢١ |
| (٧) ص ٢٢ | (٨) ص ٢٢ |
| (٩) ص ١٢٢ | |

وعلى لسان معاذة قوله : « صار كية في قلبي ، وقذى في عيني ، وهما لا يزال يعودني . » ،^(١)

ومن الجمل التي تشتمل على سجع قوله : « يذهب بحر مالي ؛ ما أراد إلا استئصاله » ، وهناك غيرها من الجمل المسجوعة الكثير .^(٢)

وقوله : « فلما حضر وقت الغداء ، صوت بعلامه - وكان ضنخا جهير الصوت صاحب تقدير وتفخيم وتشديق وهمز وجزم ... » ،

وقوله على لسان بخيل : « إن من إفلاس المرء طمع الناس فيه » ، وقوله : « فقبض صاحب الحمار ، والماء العذب (وهما بخيلان) قبضة من حصي ثم ضرب بها الأرض ، ثم قال : لا تعلم أنك من المسرفين ، حتى تسمع أخبار الصالحين » ،^(٣)

وقال على لسان بخيل رفض أن يستضيف الجاحظ وصحابه في يوم قائط : « وقال ضانحا ... فضعه في سويداء قلبك » ،^(٤)

وقال على لسان بخيل ادعى أنه سكران : « سكران والله أنا سكران » ،^(٥)

وقوله على لسان أحد البخلاء تضايق بمن كان يأكل معه : « أجهز على الجرحي ، ولا تعرض للأصحاء » ،^(٦) يتحدث عن الطيور

(١) ص ٩٦ من البخلاء

(٢) ص ٦١ من البخلاء

(٣) ص ٢٣ من البخلاء

(٤) ص ٣٨ من البخلاء

(٥) ص ٣٨ ، ٢٩ نفس المرجع

(٦) ص ٤٤ ، ٤٥ نفس المرجع

وقوله : د اجرش يا أباكعب اجرش ا ، (١)

وقوله على لسان أحد البخلاء : د أنى لما غلبتني يوما شهوتي ، وأخرجت
يوما درهما لقضاء وطري ، ووقعت عيني على مسكته ، وعلى اسم الله المكتوب
عليه ، قلت في نفسي : إني إذا لمن الخاسرين الضالين إثن أنا أخرجت من يدي
ومن بيتي شيئا عليه : د لا إله إلا الله ، وأخذت بدله شيئا ليس عليه شيء .
والله إن المؤمن اينزع خاتمه للأمر يريد ، وعليه : د حسبي الله ، أو : د توكلت
على الله ، فيظن أنه قد خرج من كنف الله - جل ذكره - حتى يرد الخاتم
في موضعه ، وإنما هو خاتم واحد ، وأنا أريد أن أخرج في كل يوم درهما
عليه الإسلام كما هو ؟ إن هذا العظيم ا ، (٢)

وقوله : د أنا والله أحتمل الضيف والضيفن ، ولا أحتمل اللعموظ
ولا الجردييل ... ، (٣)

٥ - التشنيع : وكان الجاحظ كثيرا ما يضع النوادر أو القصص القصيرة
حول بخلائه ، وكانت هذه التشنيعات كثيرا ما تكون مبالغا فيها ، ويصدر
بها دائما الكلام على البخيل ، ومن أمثلة ذلك قوله عن أحمد بن خلف :

د فقلت له - وقد ورث هذا المال كله - : ما بظاً بك الليلة ؟

قال : لا والله إلا أنى تعشيت البارحة في البيت ا ، (٤)

(١) ص ١٢٧ من البخلاء.

(٢) ص ٥١ من البخلاء.

(٣) ص ٦٧ ، وأنظر مخاطبة أحد البخلاء ص ١٢١

(٤) البخلاء ص ٤١

ويشنع على صاحب له - لا يسميه - فيقول :

أكلنا عنده يوماً ، وأبوه حاضر ، وبني له بجىء ويذهب . فاختلف مراراً ، كل ذلك يرافنا كل .

فقات الصبي : كم تاكلون ، لا أطعم الله يطونكم ١٩
فقال أبوه : - وهو جد الصبي - ابني ورب الكعبة ١٠
ويشنع على الثوري قائلاً :

حم الثوري ، وحم عياله وخادمه ، فلم يقدرُوا - مع شدة الحمى على
أكل الحبز ، فربح كيلة تلك الأيام من الدقيق ، ففرح بذلك ، وقال : لو
كان منزلي سوق الأهواز أو نضاء خيبر أو وادي الجحفة ، لرجوت أن
أستفضل كل سنة مائة دينار أفكان لا يبالي أن يحمم هو وأهله أبداً ، بعد
أن يستفضل كفايتهم من الدقيق ٢١

وبالغ في التشنيع على البخلاء حتى يجعل أباسعيد المدائني ينهى خادمه
أن تخرج الكساحة من الدار ١ وأمرها أن يجمعها من دور السكان ، وتلقها
على كساحتهم ، فإذا كان في الحين بعد الحين ، جلس وجاءت الخادم ومعهما
زبيل ، فعزلات بين يديه من الكساحة زبيلاً ، ثم فتشت واحداً واحداً ...
إلخ. (٢)

ومن تشنيعه أنه كثيراً ما يجعل البخیل يدافع عن البخل والبخلاء (٣)

(١) البخلاء ص ٤٤

(٢) البخلاء ص ١٠٤

(٣) البخلاء ص ١٤٢

(٤) البخلاء ص ٦٥ ، ٨٢ ، ١٠٦ ، ١١٦

وكثيرا ما يزيد في بخل البخلاء (١)

٦ - التعريض : وكان في بعض الأحيان يسخر بالبخلاء تعريضا كما قال عن نفسه :

« وكذا مرة في موضع حشمة ، وفي جماعة كثيرة . والقوم سكوت ، والمجلس كبير . وهو بعيد المكان مني . فأقبل على المكي ، وقال - والقوم يسمعون - :
يا أبا عثمان من أبخل أصحابنا !

قلت : أبو الهذيل . قال : ثم من ؟ .

قلت : صاحب لنا لا أسيه !

قال الحزامي من بعيد : إنما يعني (٢) .

• • •

هذه هي سخرية الجاحظ من البخلاء ، وقد نجح نجاحا كبيرا في إخفاء قصده الساخر ، وهذا من يرفع من قيمة السخرية ، ولا يحذقها أو يمرر فيها إلا من أوتي خيالا خصبا ، وصبرا وطول ممارسة لهذا الفن ، غير أني آخذ عليه - في بعض الأحيان - كثرة المترادفات التي يوردها كثيرا عما تسيء إلى أسلوب الساخر : فالسخرية تتطلب الاختصار والإيجاز الشديد ما أمكن لأنها كاللمحة أو السهم الصغير الذي يزيد إيلا مة كلما دق حجمه ، ومن أمثلة ما نقول ، قوله في إحدى صفحات البخلاء : « الفقى لا يكون نشالا ، ولا نشافا ، ولا مر سالا ، ولا لكاما ولا مصاصا . ولا نقاضا ، ولا دلاكا ، ولا مقورا ، ولا مغربلا . ولا محلقما ، ولا مسوغا ، ولا مانعما . ولا مخضرا . . . إلخ (٣) »

(١) أنظر الصفحات ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٨١ ، ٩٣ ،

١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٣ ، ١١٣ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٤٨

(٢) ص ٦٤ ، ٦٥ من البخلاء

(٣) ص ٦٧ من البخلاء

٢ - رسالة الترييع والتدوير

السبب في كتابة هذه الرسالة :

أما السبب في كتابتها : فلم يصرح الجاحظ بالدافع الحقيقي إليه ، كذلك لم تعرف شخصية أحمد بن عبد الوهاب الذي قيلت فيه هذه الرسالة ، معرفة تامة ، ولم ينقل لنا التاريخ ترجمة مفصلة عن حياته أو العلاقة بينه وبين كتاب عصره بعامة والجاحظ بخاصة لكي نتسكن من الإحاطة بالأسباب أو الدوافع إلى كتابه هذه الرسالة .

وكل لما يصفه به كتاب الحيوان ، هو أنه كان كاتباً من الكتاب .

ويحاول محقق الرسالة ، وهو المستشرق الفرنسي شارل بلات ، الوصول إلى أحد أسباب كتابه هذه الرسالة فيقول : إن الواثق كان قد أعجب ، بقلم الصالحية ، جارية صالح بن عبد الوهاب ، أخى أحمد بن عبد الوهاب ، حينما سمعها تغنى ، فأراد شراءها ، فطلب صاحبها خمسة آلاف دينار ، وأن يتولى مصر ، كل ذلك لقاء بيعها للخليفة والتنازل عنها له ، وكان على الوزير عبد الملك بن الزيات وزير المتوكل تنفيذ هذا الأمر ، ولكن الوزير غضب من مطالبة ابن عبد الوهاب بمكة .

ثم تحول صالح بن الوهاب إلى مكة ، واشترى هناك ضيعة قضى فيها بقية عمره بعد أن اعتزل خدمة الخليفة .

ويظن المستشرق أن أحمد بن عبد الوهاب قد اتبع أخاه إلى مكة واستقر هناك ، وقد جاء هذا الظن من جملة ذكرتي الرسالة وجه فيها الجاحظ الكلام إلى أهل مكة : لكي يفتنوا إلى حقيقة الهارب إليهم والغازل بين (م ١٣ - السخرية)

ظهر انهم وهو أحمد بن عبد الوهاب ، . وقد يكون هذا الظن صحيحا وقد يكون أحد أسباب كتابه الرسالة ، ولكنة - على ما نرى - سبب غامض لم يصرح به أو يؤيده التاريخ أو المؤرخون .

وحيثما درست الرسالة دراسة دقيقة مفصلة ، أحسست بمدى الحقد الدفين الذي يحسه الجاحظ إزاءه ، ذلك الحقد الذي جعله يكتب تلك الرسالة الطويلة بذالك النفس الذي لا ينبر ، فجعلني هذا أظن ظنا أقرب إلى اليقين أنه كانت ثمة عداوة تأصلت بمرور الأيام بين الجاحظ وأحمد بن عبد الوهاب ومن الجائز أن هذا العدو كان قوى الشكيمة إلى حد أنه آذى الجاحظ ، وكان يحسده حسداً صرح به الجاحظ . في عدة مواضع من الرسالة كقوله عنه ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب ، ، ^(١) وكذلك فقد يكون د أحمد بن عبد الوهاب ، ، من أدياء العلم والأدب ^(٢) وحسن المنظر والمخبر ، حتى إن الجاحظ استغل ذلك الادعاء في محاولة السخرية منه سخرية امتدت من أول فقرة في الرسالة إلى آخر فقرة فيها ، وقد يكون هذا السبب أو الدافع أقوى من محاولة سخرية الجاحظ . به لمجرد أخوته لصالح بن عبد الوهاب الذي أراد للوزير الخطير محمد بن الملك الزيات الانتقام منه بواسطة قلم الجاحظ الحاد

منهج الرسالة :

يقدم الجاحظ لرسائله أولا بمقدمة عن أحمد بن عبد الوهاب وعن ادعائه

(١) الرسالة ص ٦ فقرة ٣ (تحقيق شارل بلات وطبعة بيروت ١٩٥٦) وأنظر

أيضا ص ١٠ / ١٠ ، ١١ / ١١ ، ١٢ / ١٣

(٢) رسالة التبريع والتدوير الفقرتان ٢ ، ٤ .

ما ليس فيه : فيصنف جسمه وحسباً حياً : وكان مفراط. القصر ، وبدعى
أنه مفراط الطول . وكان مربعا وكان جعد الاطراف وكان ملوئيل

الظهر قصير عظم الفخذ وكان كبير السن متقدم الميلاد ، ومن هذا
الوصف الحس اشتق اسم الرسالة وهي « التريبع » ، لأنه كان ربعة أو مربعا
على حد تعبيره ، و ، التدوير ، لأنه حاول أن يتخيله كأنه مدور لسعة جفرتة
واستفاضه خاصرته ، ، .

وقد جعل هذه المقدمة ملخصا للعناصر التي سيسخر منه بسببها :

فسخر من جسمه ، وكان هذا الجانب من سخريته موجزا بالنسبة للعنصرين
لتأيين : وهما سخريته من ادعائه التبحر في العلم ، وسخريته من كبر سنه
و ادعائه طول التجربة الناشئة عن كبر السن .

وبعد هذه المقدمة التي استغرقت خمس صفحات يبدأ في الرسالة . والغريب
أنه يحاول أن يبدأ هذا الجزء الذي يعد القسم الأكبر من الرسالة ، يحاول
أن يبدأ بالبسملة ، بتمهيد له ، بما يشعر كأنه يبدأ ببدءا جديدا منفصلا عن
ما قبله .

أما من ناحية طريقته في إيراد ما أورد في الرسالة : فلم يحاول أن يستمر
سخريته من عنصر ما من هذه العناصر حتى إذا ما انتهى منه انتقل إلى
عنصر التالي ، بل كثيرا ما يداخل بين هذه العناصر بعضها والبعض
آخر ولو أنه قد خصص الفقرات الأولى لسخريته من جسمه ، وقلل منها في
فقرات التالية .

وكان الجاحظ لا ينسى أسلوبه الذي طبعته به كتابته في أغلب كتبه ،
بعض فقرات هذه الرسالة : وأعني به مسحة المزاج أو التفلسف وتشويق

الكلام و كثرة إيراد المترادفات الكثيرة (١). كما ذكرت في التعليق السابق على كتاب البخلاء. ولا ينفي كثرة استشهاده بالحكم والأمثال والأحاديث النبوية والآيات، ولو أنها أقل نسبياً عما انتهجه في البخلاء، ويحاول أن يكثر من الأمثال ومن الروايات المختلفة أو الصيغ المختلفة لهذه الأمثال (٢).

وكثيراً ما يتخلل سخريته استطراده إلى الكلام عن موضوعات أخرى لا تمت إلى موضوعه بسبب قريب، بل هي استطراد بسبب لفظة أو عيب ذكره: كاستطراده في الكلام عن المراء (٣) أو المزاح (٤).

عيوب الرسالة :

أما أول هذه العيوب فهو العبارات الالهجائية الصريحة التي بثها هنا وهناك في أجزاء الرسالة في حين أنه كان من الأجدر أن لا تعتمل رسالة ساخرة على ألفاظ هجائية أو تعنى من قريب السب الذي تخالفه السخرية كل المخالفة إذ هي تقوم على التورية والتعمية والإيلاص غير المباشر كما السهم المميت الذي لا يظهر أثره إلا بعد أن يكون قد تمكن من الرمية كل تمكن من غير أن تفتن له في أول الأمر.

فن أمثلة ذلك قوله :

(١) رسالة التزييع والتدوير ٥ / ٢

(٢) رسالة التزييع والتدوير ٥ / ٧

(٣) رسالة التزييع والتدوير ٨ / ٨ ، ٨ / ٩

(٤) رسالة التزييع والتدوير ٤٦ / ٨٤ ، ٨٥ ، ٤٧ / ٨٨ ، ٤٩ ، ٩٠ / ٩١

« وما أدرى - حفظك الله - في أي الأمرين أنت أعظم إثماً ، وفي أيهما أنت أخش ظلياً : أبتعرضك للعوام ، أم يافسداك الخواص ، ، (١) »
وقوله أيضاً :

« وقد سألتك - وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلاً ولا كثيراً ... ، (٢) »

وقوله أيضاً :

« وأي نظام أفسد من عرض بجاوز للتندر ، وطول بجاوز للتقص ، (٣) »
ومن هذه العيوب أيضاً : كثرة ذكره أسماء المشهورين من الرجال حتى ربما عد ستة عشر اسماً كقوله : « وقد رأيتك زماناً تحتج بالنعمان بن للتندر وبضمرة بن ضمرة ، وبمجااعة بن مرارة ، وبمجااعة بن سمر ، وبأوفى بن رزابة ... الخ ، (٤) »

أو الصفات الكثيرة كقوله : « ... غير منخوب ولا متشغب ولا مدحول ولا مشترك ولا ناقص النفس ولا واهن العزم ولا حبود ولا منافس ولا مغالب ولا معاقب ... ، (٥) »

ومن هذه العيوب أيضاً : إطالة الجملة أحياناً كقوله : « ... ولكن حدود الأشياء إذا خفيت ومقاديرها إذا أشكلت ، ولم يكن مع الناظر فيها مثل تمامك ولا مع المتكلف لها مثل كمالك ، دخل عليه من الخلل بقدر عجزه ، وسلم منه بقدر تفاذه . ، (٦) »

(١) رسالة الزبيد والتروير ١٦ / ٢٠ (٢) المرجع السابق ٩٧ / ١٨٩

(٣) « د د د ١٥ / ١٩ (٤) د د ١٦ / ٢١ »

(٥) المرجع السابق ١٩ / ٢٦

(٦) « د د ٨٦ / ٨٦ ، وانظر أيضاً مثلاً آخر ١ / ٥٦ ، ١٠٢ / ٥٦ »

ومن هذه العيوب أيضا : المبالغة في السخرية ، مبالغة غير مقبولة أو مستملحة كقوله : ،

« وليس حسنة - أبقاك الله - الذي تبقى معه توبة ، أو تصح معه عقيدة أو يدوم معه عهد أو يثبت معه عزم أو يميل صاحبه التثبت أو يتسع للتخير أو ينهزه زجر أو يهذه خوف ... الخ ، ^(١)

ويبالغ في قياس فلسفي تمجده السخرية التي لا تميل إلا إلى الإيجاز كقوله : « وحني لو كنت إمام الرافضة ، لقتلت في طرفة ، ولو قتلت في طرفة لهلكت الأمة لأنك رجل لا عقب لك ، والإمامة اليوم لا تصح في الأخوة ، ولو صلحت في الأخوة كانت تصلح في ابن العم ، ثم إنها دنت من الأرحام بعد ذلك فصارت لا تصلح إلا في الولد ، وفي هذا القياس إنها بعد أعوام لا تصلح إلا ببقاء الإمام نفسه إلى آخر الأبد ، وهذا هو علة أصحاب المناسخة ، وأنت رافضي ، ولم يكن هذا عندك ... » ^(٢)

ومن عيوب الرسالة أيضا الاستطراء وهو المنهج الذي اتبعه في كسبه العلمية كالحيران والبيان والتبيين إذ هو يصلح في هذا المجال ولكنه لا يصلح في رسالة قائمة على الهزء وتتطلب العريضة والإيجاز ، وقد أحس الجاحظ بذلك فصرح غير مرة بإحساسه قائلا :

« فلا تعجب - أيها السامع - ولا تظن أنني مفرط ... » ^(٣)
وقوله : « وقد تعجب ناس من إطالتي ومن كثرة مساءلني ، وتعجبني من تعجبهم أشد والذي كان من إنكارهم أعظم ... » ^(٤)

(١) المرجع السابق ١٠٧/٦٠

(٢) التزييع ٧٣ / ١٣٠

(٤) المصدر السابق ١٦٥/٨٧

(٢) المصدر السابق ١٠٥ / ٥٨

وعلى الجملة ، فإننا نأخذ على الجاحظ في هذه الرسالة : جملة المطولة أحيانا وأنسجتها العقلية البعيدة عن طرق التهمك ، في أحيان أخرى ، إذ يجدر بها أن تكون خفيفة الوزن ، سريعة لماحة فلا داعي لكثرة المترادفات ، مختلفة متنوعة حتى لا يمل القارىء ، قليلة في الناحية العلمية لا كثيرة . وقد كان يستطيع إيراد بعض الطرف أو الأقسام المختصرة التي يتهكم بها في رسالته ، حتى يبعد السأم والملل عن القارىء . بالنزاهة هذه الناحية الواحدة التي حاول تنويعها بقدر طاقته الفنية الهائلة ، ولكنه على الرغم هذا لم يسلم من إملال في بعض أجزاء رسالته وسخف في بعضها الآخر .^(١)

طرق سخريته :

١ - التباله : أو محاولة الكلام على لسان أحمد بن عبد الوهاب بأن ينسب إليه كلاما يدافع به عن شكله أو قصر جسمه كقوله : «وقلت : إن كان الفضل في العدد ، فمنا يأجوج ومأجوج ، ومنا الدعاء ميص والبعوض ! واحتججت بأن الحسن والفضل لصغار ما في الإنسان كالناظرين والأنثيين .. الخ ،^(٢) ويحتج على لسانه فيقول : «وزعمت أن الإنسان إذا طال جسمه ... أسرع الانهدام إلى بدنه ، وأن القصير لا يتقوس ظهره ، ولا يميل عنقه ، ولا يضطرب شخصه ولا تعوج عظامه . ويسعه كل باب ، وبقية طعمه كل ثوب ولا نخرج رجلاه من النعش ، ولا يفضل عن الفراش ... »^(٣)

(١) المصدر السابق ٥٩ / ١٠٦

وانظر أمثلة الكلام الفاسق في ٧٢ / ١٢٩ ، ١٠٣ / ٢٢٣

والاستطراد في ٤٦ / ٨٤ ، ٨٥ ، ٤٧ / ٨٨ ، ٤٩ / ٩٠ ، ٥٣ / ٩٧ ، ٦٥

١١٥ / ٦٦ ، ١١٧ /

(٢) الترميم والتدوير ١٧ / ٢٣

(٣) المصدر السابق ١٧ / ٢٤

ويستمر في تنصيبه مدافعا عن نفسه ، كأنه يتلاعب به هازئا قائلا :
« وقلنا : لو الناس إن قالوا في الحسن كأنه طاعة ربحان ، وكأنه خروط بان ،
فقه قالوا في المريض كأنه المشتري وكلن وجهه دينار هرقل ، وكأنها دلوة
القمر ، فقد ترام وصفوا المستدير والعريض بأكثر مما وصفوا به القصير
والطويل » ، ^(١)

٢ - المبالغة :

كقوله : « وبمد ، فن يطمع في عيبك ، بل من يطمع في قدرك ، وكيف ،
وقد أصبحت وما على ظهرها خرد إلا وهي تعثر باسمك ، ولا فينة إلا وهي
تغني بمدحك ، ولا فتا إلا وهي تشكو تباريح حبك ، ولا عجيوبة إلا وهي
تنقب الخروق لممرك ، ولا عجزز إلا وهي تدعرك لك ، ولا غيور إلا وقد
شقى بك إذا كم من كبد حرى منضجة وهصدوعة مفرثة . . . وكم من عبري
موهنة وقتاة معذبة قد أفرح قلبها الحزن وأجمد عينها الكمد . . . إلخ » ، ^(٢)

٣ - التلاعب بالأسلوب :

وهي أن يذكر له الصنعة وضدها اقتداراً من الجاحظ لسيطرتة على زمام
الكلام وامثلا كه لأعنته كقوله فيه : « قد والله - عافانا الله بك وابتلى ،
وأنعم بك وانتقم ، فترحا لمن زهد فيك ، وسقيا لمن رغب إليك ، وويل
لمن جمل فضلك ، بل الويل لمن أنكر فضلك إنك - جعلت فداك - كما لم
تكن فكنت فكذا لا تكون بعد أن كنت ، وكما زدت في الدهر الطويل ،
فكذا تنقص في الدهر القصير ، إذ كل طويل فهو قصير ، وكل متناه فهو

(١) المصدر السابق ٢١ / ٢٩

(٢) المصدر السابق ٥٩ / ١٠٦

قليل ، فأياك أن تظن أنك قديم فتكفر ، وإياك أن تشكر الله محدث
فتشرك ، ، (١)

وقال في موضع آخر . . . فلما رأيتك ، علمت أنك عذاب صبه الله
على كل رفيع ، ورحمة أنشأها لكل وضعي ، ، (٢)

ويلاعبه مادحا ساخرا معظما قدره حاطا من قيمته بقوله : د ولو
استحقت عقابك يا قدامي عليك مع خوفي منك ، لاستوجبت عفوك من
إقدامي عليك لحسن ظني بك ، على أني - متى أوجبت لك العفو ، فقد أوجبت
لك الفضل ، ومتى أضفت إليك العقاب ، فقد وصفتك بالإلصاف ، ولا أعلم
حال الفضل إلا أشرف من حال العدل ، ولا الحال التي توجب الشكر إلا
أرفع من الحال التي توجب لك الصبر ... ، وهكذا يتظاهر بأنه قد أجرم
في حقه ثم يتظاهر بأنه يعظم قدره عن الانتقام فيطلب منه - هازئا - المغفرة !!
وهذا من طرق التهويل إذ يحاول الساخر أن يجعل من الشيء الملهين شيئا
عظيما فيبني عليه تهكمه ...

٤ - المدح الساخر :

ويحاول أن يمدحه ويذم في مدحه كلمات بعينها تنطق بإفصاح عن سخريته
اللاذعة ، كقوله واصفاً بيانه وأسلوبه : د وتعطى المعنى حقه من اللفظ ، كما
تعطى اللفظ حقه من المعنى ، وتجب المعنى إذا كان حيا يلوح ، وظاهر الإصباح ،
وتبغضه إذا كان مستهلكا بالاعتقيد ، ، (٣)

(١) الترتيب والتدوير ٤٠ / ٧١

(٢) المرجع السابق ٤٥ / ٨٢

(٣) الترتيب والتدوير ٢٠ / ٢٧

ويقول وأصفا ما عرض به الله عن القصر من سمات الحسن المضحكة :
 « فوالله إنك لجيد الهامة ، وفي ذلك خلاف من حسن القامة ! وإنك لحسن
 الخط ، وفي ذلك عوض من حسن اللفظ ! وإنك لقليل الشيب قليل البول ،
 وإنك لتجد مقالا ، وإنك لتعد خصالا » . (١)

د - التهم الظاهر الضاحك :

وذلك بذكره ألقاظا كاذبة مضحكة تنتزع الالبسام من القارىء انتزاعا
 كقوله حين يصوره الغاية في كل شيء وطغيانه على كل شيء حتى الجماد : «
 جعلت فداك ، ما انتهى منك الذهب ، وأى بلاء دخل بك على الخمر ؟ كانا
 يتيهان بطول العمر ، ويتيهجان ببقاء الحسن ! فلما أربى حسنك على حسنهما
 وغمر طول عمرك أعمارهما ، ذلا بعد العز ، وهاتا بعد الكرامة ! » ،

ويبلغ نهاية التهم بقوله : « وما لي فيك قول إلا قول الأعرابي حين
 ضل الطريق في الظلمة : فلما عرف قصده عند ضلوع القمر ، رفع رأسه شاكرا
 وهو يقول : « ما أقول ؟ ، أقول : رفعتك الله ، وقد رفعتك ؟ أم أقول :
 جعلتك الله ، وقد جعلتك ، أم أقول : « عمرتك الله ، وقد عمرتك ؟ ولكن أقول :
 « وهل أنطق إن نطق إلا رجيعا ، وأقول وما قلت إلا لغوا ؟ » (٢)

ويتهمكم به ناسبا إليه - كذبا - بغض الشجرة فيقول : « يعجبني - جعلت
 فداك - منك بغض الشجرة ... استغناء بنفسك ، وعذرا لقدرك ... وما أقل -
 بحمد الله - ما سبقك به إبليس ، وما أيسر ما فاتك به آدم ! » (٣)

ويقارن - متهمكما - بينه وبين إبليس في موضع آخر فيقول : « ولست

(١) المرجع السابق ٢٤ / ٣٥

(٢) الترتيب والتدوير ٥٥ / ٣٣

(٣) المرجع السابق ٢٤ / ٥٨

جعلت فداك - كيا بليس ، وقد تقدم الخبر في بقائه إلى انقضاء أمر العالم وقائه ؛
ولولا الخبر لما قدمته عليك ولا ساووته بك ، وأنت أحق منه بعذر ، (١)

ويتمكم به حينما يصف أعضاء نافذة من جسمه فيقول : ... أما كفك :
فهي التي لم تخلق إلا للتقيد والتوقيح ، وهي التي يحسن بحسنها كل ما اتصل
بها ، ويختال بها كل ما صار فيها ، كما أصبحنا وما ندرى : الكأس في يدك
أحسن أم القلم ، أم الرمح الذي تحمله ، أم المخصرة أم العنان الذي تمسكه أم
السرط الذي تعلقه ... وأما قدمك : فهي التي يعلم الجاهل كما يعلم العالم ويعلم
البعيد الأقصى كما يعلم القريب الأدنى ، أنها لم تخلق إلا لمنبر ثغر عظيم ، أوركاب
طرف كريمة ... وأما فرك ... إلخ ، (٢)

وهكذا يلعب به بوصفه وصفاً مادياً لا يليق إلا بالحسان ، ويتولع به
بوصف أجزاء من جسمه لا تذكر بجانب إنسان وقور إلا انتزعت من
الوقار انتزاعاً ١

ويرجع في نهاية الرسالة إلى سوق حديث على لسانه متسائلاً عن السبب
في التنويه بذكره قائلاً : « وستقول : مادعاك إلى التنويه بذكرى ، وتعريف
الناس مكاني ، وقد تعرف حشمتي وانقباض نفوري واستبحاشي (أي أنه
يبيض الشهرة كما ذكر قبلاً) ... ولولا أنك - جعلت فداك - مسؤول في كل
زمان والغاية في كل دهر ، لما أفردتك بهذا الكتاب ولما أطمعت نفسي في
الجراب ؛ وانك كنت أذنت في مثلها لهرمس ثم لافلاطون ثم
لأرسطاطاليس ، ثم أجبت معبد الجهن ... قترية كفك والناس ...
فهمت جناحك أحق بذلك وأولى ، وقد كان يجب أن تكون على ذلك أحرص
به وأعنى ، (٣)

(١) التزييع والتدوير ٧٢ / ٤١ .

(٢) المرجع السابق ١١٠ / ٦٢ .

(٣) التزييع والتدوير ١٦٦ / ٨٨ .

ويستخلصه أنعموا عن أشياء تظفها أو خرافات قائلا : . كم بين محمد وسواع
ويعقوب ويعقوب ؟ ومنكم نكح أسلاف نائلة (١٤) وما تقول في الحام ؟ وخبرني
عن شيبان ... وأين كان مسجل شيطان الأعشى من عمرو شيطان المخبل (١٥)
وخبرني عن الشقوعن واقواق ... وشعب رضوى (١٦).

٢ - العناصر الفنية في سخريته ، أو أسلوبه الساحر :

الالفاظ المضحكة : وقد زعموا - جعلت فداك - أن أكل ما طال
عمره من الحيوان زائد في شدة الأركان ، وفي طول العمر ، وصحة الأبدان
كالورشان ... فإن كان هذا حقا ... وكان هذا العلاج نافعا ، وكنت له
مستعملا ... أخذنا منه بنصيب ، وكيف لي بذلك ، وأما صغير الأذن وأذنك
أذن أبي مهبل ! وأما صغير الرأس ، ورأسك رأس جالوت (١٧) .

الجل الإعتراضية الدعائية : وقد مر في الفقرات السابقة أمثلة واضحة
على مقدار كل جملة دعائية ساخرة في ثنايا الكلام مثل - حفظك
الله ، (١٨) وجعلت فداك ، وقد ذكرها أكثر من عشرين مرة (١٩) وأبقاك
الله (٢٠) ويرحمك الله ، وأطال الله بقاءك .

الطريقة الإنشائية كالاستهلام والأمر والنهي مثل : فلما يخرجك

(١٤) المرجع السابق ٣٨ / ٦٦ .

(١٥) المرجع السابق ٢٩ / ٦٩ .

(١٦) المرجع السابق ٤١ / ٧٣ .

(١٧) المرجع السابق ٣٢ / ٥٢ .

(١٨) المرجع السابق ١٠ / ١٦ ، ٩ / ١٦ ، ٤٠ / ٢٤ ، ٥٧ / ٥٧ .

(١٩) المرجع السابق ٢٦ / ٤٠ ، ٢٩ / ٤٦ ، ٢٦ / ٤٩ ، ٣٢ / ٥٣ ، ٣٣ / ٥٥ .

(٢٠) المرجع السابق ١٣ / ١٤ ، ١٨ / ٢٥ ، ٣٥ / ٢٥ ، ٣٦ / ٣٦ ، ٦٠ / ١٠٧ .

إلى هذا ، وما يدعوك إليه ، وأشباهك من القصار كثير (٢٠ / ٦٦) .
 « فقل مبروفاً ، فإننا من أعوانك ، واقتصد فإننا من أنصارك ، وهات ،
 فإنك لو أسرفت لقلنا قد اقتصدت ، ولو جرت لقلنا قد امتدبت » (٣٦ / ٢٤) .
 فيا قعيد العالم كيف أمسيت ؟ ويا قوة الهيولى كيف أصبحت ؟ ويا نسر
 لقمان كيف أصبحت ؟ (٣٨ / ٢٥) .

التبكيك :

وذلك بتوجيه أسئلة يستحيل الإجابة عليها كقوله : كيف رأيت
 الطوفان ؟ ومتى كان سيل العرم ؟ ومذكم مات عوج ؟ ومتى تبلبت الألسن ؟
 وما حبس غراب نوح ؟ وكم لبثتم فى السفينة ؟
 وقد استغرق هذا الجزء من الرسالة صفحات عديدة ، وأخذ الجاحظ
 يعرض معلوماته الكثيرة فى شتى العلوم والمعارف التى كان يزخر بها عصره
 فأخذ ينتقل من علم الحيوان إلى النبات ، إلى الجغرافيا إلى التاريخ إلى الهندسة
 إلى الجبر إلى الموسيقى ، ثم يسأله فى أثناء ذلك عن أشهر رجال كل علم ، والقضايا
 العامة التى يشتمل عليها وهكذا عرض الجاحظ لذلك العقل المستنير
 الذى كان يحمله ، وأخذ يداعب به طائر الصغير ، أحمد بن عبد الوهاب ،
 والغريب أنه يسكبه بطريق توجيه السؤال مصرغاً صياغة توحى بواقعيته
 كقوله : لم لم تبزق فى وجه فرعون ؟

فقد علمت ما ذكروا من عمر نابغة بنى جمدة . . . وأنت أبقاك الله -
 تعرف ميلاد آبائهم وأجدادهم وقبائلهم وعماثرهم وأصولهم وأجدانهم
 نخبرنى : أكذبوا أم صدقوا ، أم اقتصدوا أم أسرفوا ؟

ويسأله عن النعال السنية : وزعم إسماعيل بن على أنك أنت الذى كنت
 أمرت باتخاذها ، وأشرت بصنعها وأنتك تكتم السر الذى فيها . . . (١) .

ومن السمات التي تلوح على سخريته : السجع الذي يختم به بعض

عبارات السخرة كقوله : ونحب المعنى إذا كان حياً يلوح وظاهراً

بصريح : (١٧ / ٢٠)

وفي موضع آخر : فقل نسمع . وأشر تتبع (٥٧ / ٢٤)

أبو العيناء

هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان ، ويكنى بأبي عبد الله ، وأصل قومه من بني حنيفة من أهل النمامة ، ولحقهم سبأ في أيام المنصور ، فلما صار « ياسر » في قيد ، أعتقه ، فولأؤهم لبني هاشم . وتروى روايتان إحداهما عن إساءة جده سليمان مخاطبة علي بن أبي طالب ، والأخرى عن غضب عبد الله بن حسن على جده خلاد في أيام المنصور ، وكل منهما دعا على جديه وعلى ولده بالعمى .

ولم يذكر شيء عن أبويه ، أو البيضة التي عاشا فيها اللهم إلا أن والده القاسم بن خلاد عاش في كورة بخوزستان حيث ولد ابنه محمد سنة ١٩١ هـ بعد نكبة البرامكة بسنوات ، وقبل وفاة الرشيد بسنتين . وعاش طفولته الأولى حين يبيع للأمين بالخلافة بعد وفاة أبيه في طوس ، وأضحى في السابعة من عمره لدى مقتل الأمين ، ونشأ أحول العين مخضوبا بالحمرة خضابا ليس بالمشع ، فأمضى في الأهواز سنوات من طفولته ، ثم انتقل منها إلى البصرة فأمضى فيها بقية حياته وكل شبابه وجانبا من كهولته ، في عصر المأمون الذي استمر عشرين عاما ، فأصبح أبو العيناء في ربيع السابعة والعشرين ، ثم عاصر المعتصم الذي ظل ثمانية أعوام ، فأضحى أبو العيناء في السادس والثلاثين ، ثم عاصر الواثق بالله الذي ظل خمسة أعوام لجاوز أبو العيناء حدود الأربعين .

وحينذاك اعتلت عيناه فكف بصره بعد حول لازمه صباه وشبابه وكهولته ، وكان ذلك بعد مغادرته البصرة إلى بغداد ليقتضى فيها الشطر الثاني من حياته المديدة .

وقد تلقى العلم وهو في البصرة على أيدى جلة من شيوخها : فسمع من

أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١١ هـ) وأبي سعيد الأصمى (ت ١٢١ هـ) ،
وأبي زيد الأنصارى ، ومحمد بن عبيد الله العتبي وغيرهم ،
وكان يروى عن الأصمى كثيرا

وروى عنه أحمد بن محمد بن عيسى المكي وأبو عبد الله الحكيمى ،
ومحمد بن يحيى الصولى ، ومحمد بن العباس بن مهزيب ، وغيرهم ، وقرأ عليه
الأخفش والقاضى أبو بكر بن كامل وجعفر بن قدامة السكاتب . ولم يسند
من الحديث إلا القليل ، والغالب على رواياته الأخبار والحكايات .

ولم يعرف له من الأولاد إلا جعفر وعبد الله أو عبيد الله الذى به يكنى
أما زواجه فلم تذكر منها إلا واحدة ورد ذكرها حينما حاول الزواج
بأخرى من قرابته فأتسد ذلك عليه أحد موالديه . وما يروى عن أخبار أسرته
حديث دار بيته وبين أبيه بعنوان : أنا أول عاق بالبصرة ، وهناك حديث
دار بيته وبين ابنه حينما سأله - وهو مريض - ماذا تشتهي ؟ فقال : " يتمم
أما ما عدا هذا ، فلم يذكر شىء عن حياته الاجتماعية ، إما لتقص الأخبار التى
رويت عنه ، التى لم تتم إلا بالتحية الطريفة من حياته ، وإما لعدم وجود أخبار
تتعلق بالأسرة لهدوء حياته الزوجية هدوء تاما وهذا غادر بالنسبة لغيره
من الأشخاص ، فإلا بالتأنيب شخص كما ترى العيناء ١ كذلك لم يرد شىء عن هيئته
أو شكله أو جسمه ، إلا أنه كان قبيح المنظر ، وهذا النقص الكبير فى مثل
تلك الأخبار يقلل - بل يضعف - من قيمة المحاولة التى نقوم بها لرسم أو
تصور شخصيته تصورا أقرب إلى الدقة .

وقد التقى فى حياته بكثير من رجال ثلاث عصره : فعاصر ثمانية خلفاء
بعد الأربعين هم المتوكل الذى استمر فى خلافته أربعة عشر عاما فأمرسى
أبو العيناء فى السادس والخمسين ثم عاصر ابنه المنتصر الذى حكم ستة أشهر
ثم المستعين الذى خلع بعد خلافة دامت أربعة أعوام فكان أبو العيناء فى الواحد

والستين ، ثم المعتز الذى خلع نفسه بعد ثلاثة أعوام فأصبح أبو العيناء
 فى الرابع والستين ، ثم المهتدى الذى خلع بعد أقل من عام فأضحى أبو العيناء
 فى الخامس والستين ، ثم المعتمد الذى ظل ثلاثة وعشرين عاما فأشرف
 أبو العيناء على الثامن والثمانين ، ثم المفروض الذى خلع نفسه فى السنة ذاتها ،
 وأخيرا شهد ثلاث سنوات أو أربعا من خلافة المعتضد قبل وفاته سنة اثنتين
 وثمانين ومائتين أو سنة ثلاث وثمانين ومائتين فى رواية جعفر بن أبي العيناء^(١)
 والتقى بكثير من الكتاب وعلى رأسهم الجاحظ الذى صادقه ، وبالوزراء
 والقضاة كالأحمد بن أبي دؤاد ، ومحمد بن عبد الملك الزيات وأبى الصقر إسماعيل
 بن بلبل الوزير ، والشاعر أبى على البصير ، وصاعد بن محمد النصرانى ، ومحمد
 بن مسكرم ، وإبراهيم بن المدبر ، وإبراهيم بن عتاب ، وإبراهيم المصعبى ،
 وأحمد بن سعيد الباهلى ، وغيرهم كثيرون^(٢) .

ولا شك أن امتداد عمره حتى بلغ قرنا لا قايلا قد أتاح له فرصة الاطلاع
 على طائفة ممتدة من مواكب الدهر ، رأى فى خلالها ملوكا تمز وتذل ،
 وحكومات تحيا وتموت ، وأبطالا يسوقون الناس إلى الموت ثم يشربون
 من نقي الكأس ، ورجالا أكبروا النظام فأسسوا وبنوا ، وجماعات
 استجبوا الفوضى فهدموا وحطموا وكان لهذه الحوادث الجسام والمشاهد
 المتناقضة آثار جليلة عملت فى نفسه عملما ، فكانت تجارب صقلته وحنكته
 فعرف ضعف الإنسان وإن تولى المناصب وارتقى أعلى المراتب ، وانعمرت

(١) انظر ثلاث مقالات بعنوان « أبو العيناء : من ظرفاء العصر العباسى »
 د للاستاذ صبحى إبراهيم الصالح نشرت فى مجلة الرسالة الأعداد من ٧٧١ الى
 ٧٧٣ سنة ١٩٤٨ م .

(٢) انظر مقدمة كتابنا عن أبى العيناء وفهرس الأسماء فيه .
 (م ١٤ - السخرية)

ثقت به بالناس وتمكنت ثقته بنفسه ، ورأى بهجة الدنيا لا تستحق العناية لما
قاسها بمصائبها التي تذكر صفوها ، فإذا هو يبكي على حرمانه ، ثم يزهد
زهادة الفقير الضعيف ، ثم يتشكى إلى نفسه ويهتف :

فكل جديد لها خلق	تولت بهجة الدنيا
فما أدري بمن أثق	وخان الناس كلهم
ت سدت دونها للطرق	رأيت معالم الخير
ولا دين ولا خلقا	فلا حسب ولا أدب

فنجس في تلك الآيات القلق والاضطراب بل التشاؤم يرين على قلبه
وبخاصة حينما صدم بتلك الحقيقة التي تنتقل من جيل إلى جيل وهي سوء
حال العلماء والأدباء إذا ما قيس بترف الأغنياء وما يعيشون فيه من بجموحة
العيش ، فيفيض شعره حيرة وهو يقول :

من كان يملك درهمين تعلمت	شفتاه أنواع الكلام فقلا
وتقدم الفصحاء فاستمعوا له	ورأيت به بين الوري مختلا
لولا دراهمه التي في كيسه	لرأيت به شر البرية حالا
إن الغنى إذا تكلم كاذبا	قالوا : صدقت وما غطت محالا
وإذا الفقير أصاب قالوا لم تصب	وكذبت يا هذا وقلت ضلالا
إن الدراهم في المواطن كلها	تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة	وهي السلاح لمن أراد قتالا ^(١)

ميزاته :

وكان أبو العيناء من أحفظ الناس ، وأفصحهم لساناً وأسرعهم جواباً ،
وأحضرهم نادرة ، شاعراً ^(١)

وقد ضرب به أبو حيان التوحيدى المثل في سرعة البديهة ساخراً
بالمصاحب بن هباد حين قال : قد استدرك مولانا على التحليل في العروض ؛
وعلى أبي عمرو في اللغة وعلى أبي العيناء في البديهة ^(٢) .

وقال المسعودى : وكان له من اللسان وسرعة الجواب والذكاء ما لم
يكن عليه أحد من نظرائه ^(٣) . وقال عنه ابن خلكان : وكان من أحفظ
الناس وأفصحهم لساناً ، وكان من ظرفاء العالم ^(٤) وبينه وبين أبي على البصير
مكاتبات ومهاجاة ، وكذلك بينه وبين أبي هفان ، وله أخبار حسان وأشعار
ملاح مع أبي على البصير وغيره .

قال النويرى : وهو ممن اشتهر بالمجون ، وله نوادر وحكايات مستظرفة
ومراسلات عجيبة ^(٥) . وقال بن كثير : له معرفة تامة بالأدب والحكايات
والملاح ، أما الحديث فليس له منه إل القليل . وقال الحمصرى : وكان
أبو العيناء أحد الناس خاطراً ، وأسرعهم جواباً ، وأبلغهم خطاباً ^(٦) .

والحقيقة أن أبا العيناء - كغيره من ظرفاء عصره - كما الحمدونى - لم يتم

(١) الفهرست ١٨١ ، تاريخ بغداد ٣ / ١٧٠ - وفيات الأعيان ١ / ٧١٩

(٢) معجم الأدباء ٦ / ١٨١

(٣) مروج الذهب ٤ / ١٧٠

(٤) وفيات الأعيان ١ / ٧١٩ ومعجم الأدباء ١٨ / ٢٨٦

(٥) نهاية الأرب ٤ / ٨٤ ، البداية والنهاية (طبعه السعادة بمصر سنة ١٩٣٢

١١ / ٧٣ ، نكت الهميان ٢٦٦

(٦) زمر الأدباء ٢٨١

أحد بتسجيل حياته بدقة ، اللهم إلا ما يستشف من أخباره التي جمعت
في عصره وبعد عصره ، ونثرت هنا وهناك في كتب الأدب ، ولكنها لا
تغني شيئاً عن الإحاطة بشخصيته .

أخلاقه :

كمان يشعر شعوراً تاماً بالنقص والحسرة والآلم لفقد بصره وبخاصة بعد
أن استمتع به في شبابه وكهولته ، وكذلك باحتقار الناس إياه أو اللوم
بمسا كسته على الرغم من ذكائه المفرط : فلما يدل على ذلك ، ما سأل أحد
ابن أبي دؤاد : ما أشد ما أصابك في ذهاب بصرك ؟ قال : أبدأ بالسلام
وكنيت أحب أن أكون المبتدئ ، وأحدث ما لا يقبل على حديثي ، ولو
رأيت لم أقبل عليه (١) .

فن هذا نستشف تلك الحساسية ، وتلك الفسوة التي كان يشن تحتها من
جراه فقدان بصره ، وما يروى في ذلك أن قينة قالت له : أنت أيضاً أعمى ؟
فقال لها : ما أستعين على وجهك بشيء أصلح من العمى !

ونستطيع أن نورد أمثلة أخرى مما دار بينه وبين المتوكل حينما قال
له : لولا ذهاب بصره لنا دمناء ، فالقمه أبو العيناء جواباً لا ذعاً يعبه جواب
بشار الذي رد به على خال الخليفة المهدي (٢) .

ولما ولد له ولد ، ذهب له ابن مكرم ، فوضع له حجرأ بين يديه ، ثم
انصرف . فلما أحس به ، سأل عن أحضره ، فقيل له : أبو البصير ! ولا شك
أن مثل هذه الحادثة وغيرها مما يؤثر فيه تأثيراً بيناً : وقد شعر بذلك المتوكل
حينما سأله ألا يكثر الوقعة في الناس ، فرد عليه أبو العيناء : إن لي في بصرى

(١) تاريخ بغداد ٣ / ١٧٤ ، ومعجم الأدباء ١٨ / ٢٩٠

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب المصرية الأولى) ٣ / ١٥٩

شغلا عن ذلك ا فقال المتوكل : ذاك أشد لحقدك على أهل العافية ا ولما قال له المتوكل : ما أشد مامر عليك من فقد بصرك ؟ رد مستهزئاً : ما حرمت منه النظر إليك أبها الأمير^(١) .

ا إذن فقد ولد العمى في نفسه - بالإضافة إلى ما استتبعه من مهاجمة الناس لياه ومحاولاتهم العبث به - ولد في نفسه حقدا دفيناً ، وبخاصة أنه كان إلى من الأربعين مبصراً - فطبعته تلك الحالة بطابع خاص هو الاستعداد لنم الناس وهجائهم ، بل محاولاته بدهم بذلك ، وخاصة أن الناس كانوا مولعين بمحاكسته ومضايقته والحرز به ، ويدل على ذلك ما قاله المتوكل له : إن سعيد بن عبد الملك يضحك منك . ويذكر النويرى حديث فقي أراد العبث بأبي العيناء فنهى عن ذلك ، ولكنه سأل : متى أسلمت^(٢) ؟ وذكر في موضع آخر أن فقي من أبناء الكتاب - كانت فيه جرأة - قال له عابثاً : كل الناس لك - يا أبا العيناء - زوجة ، وأنت زوجة أبي على البصير ا فرد عليه أبو العيناء رداً مفجعاً^(٣) . وقال له بعض الرؤساء : لو مت لرقص الناس^(٤) طرباً ا وقد عبث به ابن منارة الكاتب في حضور أبي عبد الله ابن المرزبان^(٥) .

وقال له المتوكل ا في حديث طويل - إنك رافضى . وفي مجلس آخر : إنك قواد (مع أنه أعمى) وذلك ليضحك الناس منه. وقلل له رجل هاشمى :

(١) زهر الآداب ٧٩٣

(٢) نهاية الأرب ٨٤/٤

(٣) نهاية الأرب ٨٤/٤

(٤) المرجع السابق

(٥) جمع الجواهر في الملح والنوادر ١٨٣

إنك بقاء (١) .

أما خلقه ، فلم يصفه لنا ماصروه وصفاً دقيقاً شاملاً ، ولا نعرف منه إلا ما نستشفه من خلال أخباره ، فأظهر ما يلاحظ عليه - كأغلب العميان - جراته حتى على المتوكل : يدل على ذلك ما قاله المتوكل - حينما قال له : قد والله اشتقتك - فقال : إنما يشفق العبد ، لأنه يتعذر عليه لقاء مولاه ، وأما السيد فتى أراد عبده دعاه . وكذلك سخر به لما قال : لولا ذهاب بصره لناقمناه . فقال : إن أعفاني من قراءة النقوش ورؤية الآلهة صلحت لذلك . وكذلك قال له بعض الوزراء : إنك أكثرت من ذكر البرامكة ، وبالغت في وصفهم بالجود ، وإنما هذا تصنيف الوراقين ! فقال له أبو العيناء : فلم لا يكذب الوراقون عليك (٢) ؟ وقد تجرأ على ابن الزيات فاضطر إلى حبسه (٣) .

ولا شك أن هذه الشجاعة والجرأة من جهة ، وعقدة النقص التي تشعره بالحققد الدفين على الناس من جهة أخرى ، قد ولدت عنده من المرارة ما جعله من للطبيعي أن يحاول إزالتها أو التخفيف منها باستهتاره بالحياة والأحياء ، وقد ولدت فيه جرأته واستهتاره وخفة روحه صفة المجون التي اتسمت بها أفعاله وكثير من نواحي سلوكه إزاء الناس . فأن يقول لجارية من الجوارى (أولم تحبني) : أنا أشتى أن أرى . . . مع أنه كان قد جاوز الأربعين ، ومزقته الحمل بسر من رأى وعدم استحيائه أو خجله من الرد الذي رده : كل ذلك قد جعله يلوح للناس مستهتراً غير آبه بالأحياء ، ويدل على عدم توقيره لنفسه . ذلك الرد الذي رده به على من سأله : لم اتخذت خادمين أسودين ؟

(١) زهر الآداب ٢٨٤

(٢) وفيات الأعيان ٧٩١/١

(٣) جمع الجواهر ٢٤٨

فقال : أما أسودان فثلاثا أنهم بهما ، وأما خادمان فثلاثا يتهما بي^(١) وكذلك موقفه من الكلام على أبيه حينما سأله المتوكل يوماً : أكان أيرك في البلاغة مثلك ؟ فقال : لو رأى أمير المؤمنين أبي ، لرأى عبداً له لا يرصاني عبداً^(٢) له ، واعتزافه بأنه أول من أظهر العقوق بالبصرة حينما حاج أباه لما قال له : يا بني ، إن الله قرن طاعته بطاعتي فقال : دأن اشكر لي ولو الديك ، فرد عليه قائلاً : ديا أبت إن الله ائتمنى عليك ، ولم يأمنك على فقال تعالى : دولا تقتلوا أولادكم خسية إملاق ، نحن نررقهم وإياكم^(٣) .

خفة روحه :

وقد كان خفيف الروح حلو الحديث ، ويدل على ذلك حرص كثير من أهل عصره على حضور مجلسه وفي مقدمتهم الخليفة المتوكل الذي ألح عليه في ذلك على الرغم من رده عليه . ولما غاب عنه قال له : قد والله اشتقتك . وصحبه رجل مفلس وهو في جماعة ، فقسموا للرجل قسمة ، فاشتري دابة وكسوة ، فكان إذا حلف : يقول : وإلا فدأني حبيس ، وثياني صدقة ، ثم قسموا له قسمة أخرى فاشتري داراً وخادماً فكان إذا حلف يقول : وإلا فدأني حبيس ، وثياني صدقة وغلأمي حر ، ودأري مقبرة . فقال أبو العيناء : طالت أيمانه ابن الزانية !

وأكل عنده سائل فأكثر ، فقال : يادأء ، أطعمناك رحمة فصيرتنا رحمة ! ودخل يوماً على المتوكل ، فقدم لإياه طعام ، فغمس أبو العيناء لقمته في خل كان حامضاً ، فأكلها وتأذى بالحوضة ، وفطن المتوكل له فجعل يضحك ، فقال :

(١) معجم الأدباء ٢٩٧/١٨

(٢) زهر الآداب ٢٨٥

(٣) زهر الآداب ٧٩٣ ، معجم الأدباء ٢٩٩/١٨ .

لا تلتنى يا أمير المؤمنين فقد بحث حلاوة الإيمان من قلبي أو روى أبو العيناء أنه أدخل على المتوكل رجلاً متنبأ ، فقال له : ما علامة نبوتك ؟ قال : أن يدفع إلى أحدكم امرأته ، فإنى أحبلها في الحال . فقال : يا أبا العيناء : هل لك أن تعطيه بعض الأهل ؟ فرد عليه أبو العيناء : إنما يعطيه من كفر به !

وبات أبو العيناء عند ابن مكرم ، فجعل ابن مكرم يفسو عليه ، فقام أبو العيناء ، وصعد السريز ، فارتفع إليه فساؤه ، فصعد السطح ، فباخته راحته فقال : يا بن الفاعلة : ما فساؤك إلا دعوة مظلوم (١) .

وكان من صفاته سرعة الإجابة التي تتطلب الجراءة ، والذكاء النادر ، وهو أشبه ببحرير حينما كان يسلام على حبه للهاش فيقول : يسدؤ ونى ثم لا أعفوا ومن الغريب أن ابنه أيضاً كان سليط اللسان ، فقد قال لابنه وهو مريض : ما تشتهى ؟ قال : اليتيم (٢) .

وقد أخش لما دخل على إبراهيم بن المدبر وعنده . الفضل بن اليزيدي وهو يلقي على ابنه مسائل من النحو — فقال : فى أى باب هذا ؟ قال : فى باب الفاعل والمفعول به . قال : هذا بابى وباب الوالدة حفظها الله !

(١) يشير إلى الحديث المشهور عن أنى هريرة رضى الله تعالى عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم : يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب . وعزتى لأنصرك ولو بعد حين . »

(أخرجه الإمام أحمد ، والترمذى ، وابن ماجه ، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهم ما .)

فتغضب الفضل وانصرف ، وكان البحترى حاضراً فصاغ هذه العبارة شعراً قللاً :

جل ما عنده التردد في الفا حل من والديه والمفعول (١)

وقد كان وضاعاً : فوضع حديث فذلك ، وصنع خبر ابن رباح ، ونسبه المسعودى إلى أبي تمام خطأ (٢) .

وأخيراً نذكر كلمة الصفدى عن قوة حفظه إذ قال : قل أن وجد أعمى بليلاً ، ولا يرى أعمى إلا وهو ذكى : منهم أبو العيناء وأبو العلاء .. والسبب الذى أراه فى ذلك أن ذهن الأعمى وفكره يجتمع عليه ، ولا يعود متعباً بما يراه ، ونحن نرى الإنسان - إذا أراد أن يتذكر شيئاً نسيه أغمض عينيه ، فيقع على ما شرد من حافظته . وفى المثل : أحفظ من العميان (٣) .

والظاهر أنه عاش أغلب حياته فقيراً ، لأنه سأل كثيراً من اتصل بهم وشكا إليهم (٤) عوزة ، فقد دخل على الحسن بن سهل ، فشكا ضيقته ، فأمر له بخمسة آلاف درهم ، فقال : أصالح الله الوزير ، لا أستقل قليلك ولا أستكثر كثير (٥) .

(١) زهر الآداب ٢٨٢ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ١٩/٤ وانظر الخبر فى نهاية النص من أخبار أبي العيناء التى حققناها ، وانظر ما عرف عن الجاحظ من الوضع فى رسالة البخلاء لطلحة الحاجر طبع دار المعارف الأولى ص ٤٠ .

(٣) نكت العميان للصفدى ص ٨٣ .

(٤) أخبار الطراف لابن الجوزى ص ٥١ .

(٥) انظر طبقات ابن المعتز ص ٤١٥ .

فن أبي العيناء :

كان أبو العيناء راوية للأخبار والقصص ، ونوادر الأدب يتميز بخفة الروح ، وعذوبة الحديث ، ولاذع الكلم ، مما كان يزيل صدا القلوب ، بجلاوة طرائفه ونوادره وتهكمه ، فأقبل الناس عليه : يحدثونه ويسمعون منه ، وقد زاد ذلك مهارته في صياغة ما يروى بالأسلوب الذي يجب أن تصاغ به النادرة أو الفكاهة ويهش اسماعها الناس ، إذ ليس كل راو قادراً على حفظ النادرة أو صياغتها بالطريقة التي تهفو لها قلوب الناس ، وتعلمهم يقبلون على سماعها ، وقد لاحظت ذلك — وسوف أبينه في إنيائه — حينما جمعت أخباره وحققها ووجدت أن بعض الرواة — في الكتب المتأخرة — يصوغون النادرة ويروونها بطريقة أو بأسلوب يفسدها كل الإفساد ويبعدها عن الروح الفكاهية مما ينفر من استماعها .

إذن ، فرواية النادرة في الحقيقة فن لا يستطيع إتقانه إلا من وهبه الله الميزات التي تعينه على ذلك ، وقد كان أبو العيناء من المبرزين في ذلك إلى حد أن قال عنه ابن خلدون : كان من ظرفاء العالم أو قد بالغ في نعمته بذلك لفرط إعجاب الناس به ، كما يعجب الناس في العصر الحديث فيطلقون على أم كلثوم ، كوكب الشرق ، .

وذكرت متنزهات الدنيا بين يدي ابن دريد ، فقال : هذه متنزهات العيون فإن أتم من متنزهات القلوب ؟ قالوا : وما هي ؟ قال : كتاب الجاحظ وأشعار المحدثين ، ونوادر أبي العيناء (١) .

وأكثر كتب الأدب رواية لأخباره ونوادره : معجم الأدباء (٢) لياقوت

(١) أدب الجاحظ للسندوني ص ٧٦

(٢) معجم الأدباء لياقوت ١/ ٦٨٢ ، ١٨١ ، ٢٧٩ ، ٧٠٥ ، ١٧٧ ، ٨٠٥/ ٨

٢٥٥/ ١٢ ، ٧٩/ ١٦ ، ٨١ ، ٨٩ ، ١٢٧ ، ١٧٨ ، ١٧٠/ ٣٢ ، ١٧٨

ثم زهر الآداب (١) للحصري . أما الأما إلى اللقائي والأغاني (٢) فلم يذكر فيهما إلا لما . وفي معجم الأدباء ذكر أنه حدث عن وهب بن جرير ، وقنص الهاهلي ، وكيسان ، وخلف الأحمر ، والفتح بن خاقان ، والجاحظ ، والأصمعي وأحمد بن أبي دواد ، وإبراهيم بن رباح ، ومحمد بن يحيى .

ومما رواه أبو العيناء من النوادر قال : دخل أبو الصقر - قبل وزارته - على صاعد وهو الوزير حينئذ ، وفي المجلس أبو العباس بن ثوابة ،

فسأل الوزير عن رجل ، فقال : أنقى (يريد : نقي) فقال ابن ثوابة : في الحرم .

فتضحك به أهل المجلس ، فقام أبو الصقر مغضباً .

وروى أيضاً هذه القادة : استودع رجل عند إمام محلته قارورة زنبق ، ليجده (٣) إياها ، وقام يصلي بهم في شهر رمضان ، وقرأ : د قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون (٤) . . . وكررها . فقال الرجل : قارورة زنبق أو حكي أبو العيناء ، قال : اجتمعنا في مجلس ابن الأعرابي - ومعنا الجاحظ والجماز - تتناشد الأشعار ، ونتذاكر الأخبار ، ووقع الجاحظ والجماز في كساد وملاحة . . . إلخ . (٥) وروى أيضاً قصة طريفة بين الجاحظ ومحمد بن عبد الملك الزيات (٦) .

(١) زهر الآداب للحصري ١٧٢ - ١٧٣ ، ٦٩٨ ، ٧٨٨ ، ٨٨٢ ، ٢٧٧

(٢) الأغاني ٨ / ١٥ والأما إلى ١ / ٧٠ .

(٣) أي أنكرها .

(٤) الآية ٧١ من سورة يوسف

(٥) ثمار القلوب للشمس ص ٤٦٤

(٦) أدب الجاحظ للشمس ص ١٧١ .

الشعر :

لم يروله الرواة إلا مقطعات قليلة في الشعر الغزلى ، ذكرلة باقوت ، في معجم الأدباء منها تسع مقطوعات قصيرة ، وذكر بعضها في كتب متفرقة مما اهتمت بأخباره .

أما كتابته فقد كان له رسائل إخوانية يبعث بها إلى إخوانه ، وغرضه غالبا هو استمناحهم بعض العطاء أو الهدايا ، وقد ذكرت فيها جمعت من أخباره رسالتين طويلتين إحداهما يذم فيها أحمد بن الحبيب على لسان الكتاب والرؤساء والقواد وغيرهم ، وهى طويلة ، والآخرى عزاهما إلى بعض الأعراب يتحدث فيها عن أكثر أهل عصره ومنهم إبراهيم بن وباح الذى يقصده أبو العيناء بهذه الرسالة ، وقد جمع له الأستاذ أحمد زكى صفوت كثيرا مما أنشأه (١) . وقد قال فيه محمد بن مكرم : من زعم أن عبد الحميد أكتب من أبى العيناء إذا أحس بكرم أو شرع فى طمع ، فقد وهم .

سخريه أبى العيناء :

ورث أبو العيناء سلاطة اللسان والجرأة عن أجداده (٢) وتمكنت منه عقدة الشعور بالنقص بسبب عاقته التى ابتلى بها بعد بلوغه الأربعين ، فزیده على ذلك ما جبل عليه من الاحساس الفكاهى sense of Humour ، فكانت تلك العوامل هى الأسس القويمة التى جعلت منه الأديب الساخر المعاصر لصنوه فى ذلك ، وأعنى به الجاحظ .

(١) انظر كتابه (٢)

(٢) انظر كتابه (٣)

(١) جهرة رسائل العرب ح ٤ ص ١٥٢ - ١٥٥ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٤

٣٢٧ - (٥)

(٢) وقد مر خبر ذلك فى الصفحات السابقة من الكتاب . (٣)

وتنقسم سخريته قسسين : أو لها وهو الأكثر والأشهر ويظهر في ردوده الساخرة إما مبتدئا وإما مدفوعا إلى ذلك بسبب إغاية الناس إياه ، لعدم ذكائهم وحققهم ، أو لسبهم إياه ومحاولتهم النيل منه ، أو لعدم إعطائه ما يطلب — كالحطيئة الشاعر المخضرم المشهور — ولذلك رد على المتوكل حينما سأله : إلى كم تمدح الناس وتذمهم ؟ ، فقال : ما أحسنوا وأساءوا . وقد قال له مرة أخرى : بلغنى عنك بذاء ، أو بلغنى أن فيك شرا .

والقسم الثانى من سخريته هو رسائل كتبها فى هجاء بعض الأشغاص ، كما حمد بن الحبيب وعيسى بن فرخا نشاء وغيرهما .

(١) ردوده الساخرة :

وهو فى ذلك يشبه عامرا الشعبي وكان من كبار الحفاظ (١) والشاعر حافظا إبراهيم — شاعر النيل — الذى جرت الفكته الساخرة العامة على لسانه ، وكذلك الشيخ عبد العزيز البشرى (٢) والساخر الأيرلندى برناردشو ، وهو من هذا الجانب يعتبر الأديب الشعبي الساخر بالرد السريع من غير حاجة إلى تفكير طويل أو ممتد ، لا يجلس الجلسة الطويلة ويقدر حزناده فكره لى يرد على من غاظه ، بل يسدد إليه ويقذفه بالكلمة اللاذعة ، التى تساوى قصائد هجائية بأكملها ، فىكون لها من قوة الرنين ، ما يملأ المجلس ضحكا بجلجلا ، وما يجعل الناس يخافون منه ويخشون هذه الخاصية اللسانية اللاذعة ، وقد سخر برناردشو من الشعب الإنجليزى كثيرا بسبب احتلالهم بلاده فما قاله

(١) عاش بين سنتى ١٩ - ١٠٣ أو ١٠٩ هـ وكان شديد الذكاء ، سريع الحراب سديده ، وكان خفيف البدن صغير الجسم فقال متهمكا تعليلا لذلك : لقد زوحت فى الرحم ؟

(٢) مؤلف كتاب « فى المرأة » ، المطبوع فى دار الكتب المصرية سنة

لسيدة إنجليزية لم تكن تعرف، - في قطار - وقد سألتها : « أظنك إنجليزية من... فرد عليها مريعاً : لا، أنا (بني آدم) »^(١) No , I am a human Being

أما أبو العيناء ، فكان صغور د شو ، في هذا القبيل ، وقد استخدم عدة عناصر في سخريته كالتضمين وبخاصة الآيات القرآنية ، كما في النادرة الآتية :
« لما سلم نجاح بن سلمة إلى موسى بن عبد الملك الأصمهلاني ليستأديه مالا ، عاقبه فتلف في المطالبة ، فلقى بعض الرؤساء أبا العيناء وقال له : ما عندك من خبر نجاح بن سلمة ؟

فقال : « فوكره موسى فقضى عليه ، وكان استخدامه هذه الآية وفيها اسم القاتل وما فعله بالضبط استخداماً رائعاً لا يتمكن منه إلا من أوتي حظاً كبيراً من الذكاء .

وبلغت كلفة أبي العيناء السابقة موسى بن عبد الملك ، فلقية في الطريق وتهده ، فقال : « أبي تولع »^(٢) ؟ والله لا قوم لك . فقال أبو العيناء ساخراً : « أريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ ، وقيل له : إن ابن نوح النصراني عاتب عليك .

فقال : « وإن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، .

وقدم صديق له من بعض الأعمال السلطانية ، فدعاه إلى منزله وأطعمه ، وجعل الرجل يكثر الكذب . فالتفت أبو العيناء إلى من كان معه فقال :
« نحن كما قال الله تعالى : « سماعون للكذب أكالون للسحت » .

ودخل عليه يوماً موسى بن عبد الملك - وعنده نجاح بن سلمة ، وأحمد

(١) آثرنا هذا التعبير العامي لأنه التعبير المستساع لترجمة النكتة .

(٢) تولع : تستخف .

ابن إسرائيل - يسارانه ، فقال : يا أبا الحسن ، د تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، وقال نجاح : كذبت يا عدو الله . فقال : د لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون . .

وقال له يوما المتوكل : إن سعيد بن عبد الملك يضحك منك .
فقال : د إن الذين أجزموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . .

وكان أحيانا يستخدم المفاجأة في السخرية ، فن ذلك قوله لصاعد : أنت خير من رسول الله ! فقال : ويلك . كيف ؟
قال : إن الله تعالى قال له : د ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك . . وأنت فظ ، واسنا نفض (١)

ونلاحظ استخدام الجناس والسجع في جملة الأخير ، بين (فظ ، نفض) ، مما يزيد من السخرية كما يفعل أكثر الساخرين بالنسكة الجنسية أو التورية ، ومن هذا القبيل تلك القصة التي عبث فيها بصاعد :

قال له صاعد يوماً : ما الذي أخرجك عنا ؟

قال . بنيتي !

قال : وكيف ؟

قال : قالت لي يا أبت قد كنت تغدو من عندنا فتأني بالخدمة السرية ، والجائزة السنية ، ثم أنت الآن تغدو مسرفاً وترجع معتما ، فإلى من ؟
قلت : إلى أبي العلاء ذي الوزارتين ؟

قالت : أيعطيك ؟

قلت : لا .

(١) مع مراعاة نطقها ظاء كما تنطق في بعض اللهجات (في نجد والعراق)

قالت : أيسفك ؟

قلت : لا .

قالت : أفيرفع مجلسك ؟

قلت : لا .

فتمالت : يا أبت « لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يفتى عنك شيئا ؟ »
ودخل على عبيد الله بن عبد الله بن طاهر - وهو يلعب بالشطرنج - فقال :
في أي الحيزين أنت ؟

فقال : في حيز الأمير - أيده الله .

وغلب عبيد الله ، فقال : يا أبا العيناء ، قد غلبنا ، وقد أصابك من الندب
خمسون رطلا ثلجاً ، فكن في حيلتها .

قال : فقام ومشى إلى ابن ثوابة ، وقال : إن الأمير يدعوك .

فلما دخل قال : أيده الله الأمير ، قد جئتكم بجمل همدان وماسبذان ؛

نخذ منه ما شئت ا

• • •

وقد تكون سخريته بجملة قصيرة مضحكة كما فعل صاعد لما استوزر

عقب دخوله من النصرانية في الإسلام ، فلما صار إلى بابه قيل له : يهلى .

فعاده ، فقيل يهلى فقال : « معذور ، لكل جديدة لذة » ا

وقال له ابن مكرم : كان ابن السكبي صاحب البريد يحب أن يشم الحرا ؟

فقال : لو رأيته لترشفك ، ا

وقال يوماً لرجل سلم عليه : من أنت ؟

قال : رجل من ولد آدم .

قال : ادن مني ، عانقني ، فاظننت أنه بقي من هذا النسل أحد ا

وزحمه رجل على حمار بالجر ، فضرب يده على آذان الحمار وقال :
يا إنسان قل للحمار الذى فوقك يقول : الطريق !
ووعده ابن المدبر أن يحمله على بغل . فلقبه فى الطريق ، فقال له : كيف
أصبحت يا أبا العيناء ؟
قال : بلا بغل !
فضحك من قوله ، وبعث به إليه .

* * *

ومن تصويره الساخر السريع ما قاله لابن الجواز المغنى يوما وهو راكب
على حمار صغير فقال : لقد ساءنى حين اضطررت الدهر إلى ركوب أصغر أولادك !
وقال له يوما : هل تذكر سالف معاشرتنا ؟
قال : إذ تضيئنا ونحن نستغفبك !

...

وأكثر نوادر أبى العيناء الساخرة كان يقولها ساخراً بمن أرادوا أن
يسخروا به : قال له أبو عبد الله بن المرزبان : يا أبا عبد الله ، لم لبست جباعة ؟
قال : وما الجباعة ؟
قال : التى بين جبة ودراعة ! .
قال أبو العيناء : لآنك صفيدم !
قال : وما صفيدم ؟
قال : الذى هو ما بين صفعان ونديم !
وقال له الكافى كيف أكتب اللؤم ؟ بلام أو لامين ؟
فقال : صور نفسك !

وقال له السدري: أشتهى أن أرى الشيطان .

فقال : انظر في المرأة !

ودخل يوماً على المتوكل ، فقدم إليه طعام ، فغمس أبو العيناء لقمته في خل كان حامضاً ، فأكلها فتأذى بالحموضة ، وفطن المتوكل له فجعل يضحك .

فقال : لا تلهني يا أمير المؤمنين : فقد سحت حلاوة الإيمان من قلبي !
وكان يميل في بعض الأحيان إلى استخدام الجناس في سخرياته كقوله
لما تقنطر بعبيد الله فرسه : قتل الجواد الجواد !

وأكل عنده سائل فأكثر ، فقال : يا هذا أطعمناك راحة فصيرتنا راحة !
وقدم ابن مكرم من سفر ، فقال له أبو العيناء : ما أعديت لي ؟
قال : قدمت في خوف .

قال : لو قدمت في خوف لخفض^(١) روحك !

ومن ردوده اللاذعة ما قاله للمتوكل حينما قال : لولا ذهاب بصري
أبي العيناء لغادمناء .

فقال : قولوا له : إن أعفاني من قراءة النقوش ورؤية الأهلّة صلحت لذلك .
ولما غضب من الجاحظ بسبب خطاب توصية طلبه منه وكتب له الجاحظ :
« كتابي إليك سألني فيه من أخافه لمن لا أعرفه ، فافعل في أمره ما تراه ، والسلام ،
عاب الجاحظ على ذلك ، فقال له : لا تنكر ذلك فإنها أمانة بيني وبينه
إذا عنيبت برجل .

فقال : بل أنت ولد زنا لم تكن قط لرشدة^(٢) .

(١) وفي رواية : لخفضت .

(٢) ولد لرشدة : ضد لونية .

قال . أتشتعني ؟

قال : إنها أمانة لي عند الشئاء على إنسان !

وزار الجاحظ وهو متقلد ديوان الرسائل في خلافة إبراهيم بن العباس ، فلما جاء إلى الديوان ، جاءه أبو العيناء ، فلما أراد أن يخرج من عنده تقدم إلى من يحجبه أن لا يدعه يخرج ولا يدعه يرجع إليه إن أراد الرجوع . فخرج أبو العيناء يريد الانصراف ، فنع من الخروج ومن الرجوع إلى الجاحظ ، فنادى أبو العيناء بأعلى صوته : يا أبا هيثم ، قد أريتنا قدرتك ، فأرنا عفوك !

وبما يغيبه هذا ما قاله لمحمد بن عبد الملك حينما سجنه لكثرة كلامه : قد علمت أن الحبس لم يكن من جرم تقدم إليك ، ولكن أحببت أن ترى مقدار قدرتك على ، لأن كل جديد يستلذ ، ولا بأس أن نرى من عفوك حسب ما أريتنا من قدرتك ، فأمر بإطلاقه .

فلقيه بعد أيام ، فقيل : يا أبا العيناء : ما تزورنا حسب نيتنا فيك . فقال : أما نيتك فتأكدة ، ولكن أرى أن الذي جدد الاستبطاء فراغ حبسك فأحببت أن تشغله بي !

وقال له عبيد الله بن سليمان : إن أخبار البرامكة في السخاء وكثرة العطاء أكثرها من تصنيف الوراقين وأكاذيبهم .

فقال : ولم لا يكذبن على الوزير - أيده الله ؟ !

وكان أبو العيناء كثيراً ما يستعمل الجملة الاعتراضية الدعائية في سخريته كالمثال السابق ، وكما قال للفضل بن اليزيدي وهو يلقي على ابن إبراهيم ابن المدبر مسائل من النحو : في أي باب هذا ؟ قال : في باب الفاعل والمفعول به .

قال : هذا بابي وباب الوالدة - حفظها الله ! !

وقال له رجل : ما أنتن إبطك !

فقال : نأقاك - أعزك الله - بما يشبهك !

ودخل أبو العيناء على بعض الرؤساء بكرة ، فاستسقى ماء ، فقال له الرجل : أنى هذا الوقت تمطش ؟

قال : أصلحك الله هذا أمان لك من الغداء !

ووعد محمد بن عبيد الله . بن خاقان أبا العيناء أن يرسل إليه دابة ، فتأخر عنه دون أن يقي له بوعده ، ثم لقيه ، فقال : كيف حالك يا أبا عبد الله ؟

قال : راجل ، أصلحك الله !

(٢) القسم الثانى من سخرياته ، رسائله :

وإذا تصفحننا ما بقى من رسائله المكتوبة ، وجدناه يهدف بها إلى طلب معونه من أحد الولاة أو كبار رجال الدول ، أو أنها هجاء مباشر أو سخرية .

ولا يعنينا فى هذا المقام إلا النوع الثانى .

ونلاحظ عليه ميله إلى الحدة أو التعريض حتى فى موقفه موقف السائل الذى يئضى العطاء ، كما قال لأبى الوليد بن أبى دؤاد :

« جعلت فداك ، مسنا وأهلنا العر ، وبضاعتنا المودة والشكر ، فإن تعطنا أكن كما قال الشاعر :

أنا الشهاب الذى يحمى دياركم لا يخد الدهر إلا ضوؤة يقدر
وإن لم تفعل : فإسنا بمن يلمزك فى الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا ،
وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون . »

ويسدد سهام سخريته إلى أكثر أهل عصره ، ولكنه ينسبها إلى غيره لماله من باع طويل فى الاختلاق والوضع :

فإن ذلك أنه كتب رسالة يشنى فيها على إبراهيم بن رباح ، ولم يفرد

بالرسالة وحده ، بل عرض له في أثناء ذمه أكثر رجالات عصره ، وقد نسب هذه الرسالة إلى أحد الأعراب ، وزعم أنه لقيه في الصحراء ، وسأله عن أهل عصره ، مبتدئاً بالخليفة ثم بغيره من الولاة والقضاة والقواد والكتاب ويصوغ ذمه لهؤلاء في جمل قصيرة موجزة مسجوعة ، فما قاله عن ابن الزيات : ذاك رجل وسع الوردى شره ، وبطن الأمور خبره ، فله كل يوم صريخ لا تظهر فيه آثار مغلب ولا قاب ، إلا بتسديد الرأي .

وقال عن الفضل بن مروان : ذاك رجل حشر بعدما قبر ، فله نشرة الأحياء ، ومعه خفوت الموتي . وقال عن أبي الوليد : إخاله كبش الزنادقة ، ألا ترى أن الخليفة إذا أهمله ، خضم^(١) فرتع^(٢) ، وإذا أمر بئقضه أمطر فأمرع^(٣) .

وهناك رسالة أخرى أطول من السابقة ، تتضمن ذم رجل واحد هو أحمد بن الحصب ، وقد أنطق جل أهل عصره بذمه ، بطريقته السابقة وهي الجمل الموجزة ، المسجوعة غالباً : فقال على لسان أبي العباس محمد بن عبد الله بن طاهر : مازال يحرق ولا يرتع ، ومازالت منذ ارتفع ، أتوقع له الذي فيه وقع . وقال على لسان جعفر بن عبد الواحد : أحسن حسناته سيئة ، وأصغر سيئاته كبيرة^(٤) .

وذمه على لسان هرون بن عيسى فقال : كانت دولته دولة المجانين ، خرجت من الدنيا والدين . وقال على لسان موسى بن بغا : لولا أن القدر

(١) الخضم : الأكل ، أو باقصى الأضراس ، أو ملء الفم بالأكل .

(٢) رتغ : أكل بشره .

(٣) أمرع الوادى : أكله .

(٤) أى كبيرة من الكبائر .

يغشى البصر ، لما نهى فينا ولا أمر ا وقال على لسان صالح بن وصيف -
شامتاً هازئاً - تجبر وتكبر وتذمر ، ودبر ، فدمر ا فكان أبا العيناء هنا
يلخص قصته الطويلة وتاريخ حياته مع الناس في أربعة أفعال ثم يختتمها
بسنخريّة القدر به ، فدمر ، وقد استمد سنخريته في أغلب هذه الجمل من
قصرها ، ومازودها به من سجع لاذع كما جاء في الجملة السابقة ، وكما جاء على
لسان سليمان بن يحيى : لم تنم له نعمة ، لأنه لم تكن له في الخير همة ا وقال ساخرأ
على لسان الفضل بن مروان : فما أجهل من يستجمله . أو لم يخبر بأمر يجهله ؟

وقال على لسان ميمون بن إبراهيم : لو تأمل رجل أفعاله فاجتنبها لاستغنى
عن الآداب أن يطلبها ا وقال على لسان ابن أبي الشوارب : كان محمد المحسنين
ويجتنب أفعالهم ، ويذم المسيئين ويعمل أعمالهم ا

وحاول أبو العيناء أن يشنع عليه ، فقال على لسان إبراهيم بن المدبر : كنت
يوماً عنده ، فقدم الطعام - وفيه هليون (١) - فأكب عليه ، فقلت : أراك
راغباً في الهليون .

فقال : إنه يزيد البلاء .

وقال على لسان آخر : كنت إذا وقع لفظه في سمعي ، أحسست النقصان
في عقلي ا

وقال على لسان بعض كتابه : كنت أرى قلم ابن الخصيب ، يكتب بمالا
يصلب ، وقد نطق بنوك (٢) صجيب .

وأخيراً أذكر ما قاله على لسان خالد بن صبيح : هو كما قال : فلان ملا

(١) نبت حار وطب .

(٢) الذوك : الحق .

يساره سلحا ، وبسط يمينه سطحا ، وقال : أمطروا في سطحي ، وإلا لاطختكم
بسلحي !

والظاهر أن هذه الرسالة أطول مما أورد في نشر الدرر ، لأنها أوردت
بعض زيادات في جمع الجواهر في الملح والفراد : ثم قال في نهايتها : « وهي
أطول من هذا » .

• •

وسخر مرة من أبي الصقر الوزير حينما تأخر توقيعه عنه برسومه ،
فكتب إليه . . . أما والليل إذا عسعس ، فالبنان ، ابنة الدنان ، وملا مسات
الحسان ^(١) وأما والصبح إذا تنفس ، فالبنان للعنان ، ومؤامرات السلطان ،
فمن أبو العيناء القرنان ؟ ^(٢)

وسخر ذات مرة من صديق له تولى ناحية ، فكتب إليه : أما بعد ،
فإني لا أعظك بموعظة ، لأنك غني عنها ، ولأنك أعلم بها مني ، ولا أرغبك
في الآخرة لمعرفة بزهدك فيها ، ولكني أقول كما قال الآخر :

أحار بن بدر قد وليت ولاية فكن جرذا ^(٣) فيها نخون وتسرق
وكأثر تميم بالغنى إن للغنى لساناً ، به المرء الهيوبة ينطق

وأعلم أن الحياة فطنة . والأمانة خرق ، والجمع كيس ، والمنع صرامة ،
ولمست كل يوم ولاية ، فاذكر أيام العطلة ، ولا تحقرن صغيراً ، فمن الذود
إلى الذود ^(٣) لابل ، والولاية رقدة فتنبه قبل أن تنبه !

(١) القرنان : الديوث المشارك في قرينته .

(٢) الجرذ : ضرب من الفأر .

(٣) الذود : ما بين الثلاثة إلى العشرة .

ولا يخفى مادسه أبو العيناء في هذه الرسالة الساخرة من تمكروما استخدمه من أساليب السخرية المختلفة : كالاستشهاد ، والخبر والنهي والأمر الخارجة عن معناها- كما يقول البلاغيون القدماء -- إلى السخرية والهزء .

* * *

وأخيراً - وليس آخرأ - نورد سخريته عن طريق الوصف المضحك لهدية : إذ حملة عبد الله بن يحيى بن خاقان على دابة ، فأخذها منه ابنه محمد ، وقال : أبعث إليك بخير منها .

فتأخر عنه ذلك ؛ فإقنيه ، فقال ، : ما خبرك ؟

فقال : بخير ، يامن أبوه يحمل ، وهو يرجل !

فقال : أنا أنفذ إليك بغلا فارها بخير تأخر .

فتأخر عنه . . . ثم إقنيه ؛ فقال : كيف حالك يا أبا عبد الله ؟

قال - ساخرأ - راجل - أصلحك الله !

فضحك ، وأنفذ إليه بغلا ، وزعم أبو العيناء أنه غير فاره ، فكتب إلى أبيه ساخرأ من هذه الدابة ، واصفاً إياها قائلاً : أمر لي بدابة تقف للنثرة ، وتعثر بالبعرة ، كالفضيب اليابس عجفاً ، والعاشق المجهود دنفاً ، وقد أذكرت الرواة عروة العذرى ، والمجنون العامرى ، مساعد أعلاه لأسفله . . . إلخ

ومن الصورة المضحكة وصفه قائلاً : حباه (١) مقرون بسماله ، فلو

أمسك لترجيت أو أفرد لتعزيت ، وإلكنه يجمعهما في الطريق المعمور ،

/

والمجلس المشهور، كما أنه خطيب مرشد، أو شاعر منشد اثم يبالغ في إحاطة
الصور بهذا الإطار المضحك : تضحك من فعله النسوان : وبتأغى من أجله
الصبيان ، فمن صاح بصيح : داوه بالطباشير ، ومن قائل يقول : نقوا له
الضمير !

وينتقل إلى صورة مضحكة ثالثة : قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ،
ولحق العلماء في الأمصار . فلو أعين بنطاق ، لروى بحق وصدق ، عن جابر
الجعفي ، وعامر الشعبي .

وهكذا نرى أبا العيفاء بجملة الموجزة المريعة ، وبسجعه الظريف الذي
لا يكاد يتركه ، يحاول السخرية بمحمد بن عبيد الله وهو يتنهد بذلك البغل
الذي أهدها إليه .

٥- الحمدوني

هو إسماعيل بن إبراهيم ، ويختلف الرواة في اسم جده : أهو حمدون أو حمدونة أو حمدويه، وينفرد أبو الفرج الأصفهاني^(١) (ت ٢٥٦ هـ) برواية حمدويه بضم الدال أو فتحها، وتابعه في ذلك ابن خلكان فقال الحمدوي . وكان حمدونه أو حمدويه جده صاحب الزنادقة أيام الرشيد^(٢) والغريب أن جمع ما بأيدينا من مصادر قد أجمعت على إهمال تحديد سنة وفاته وبالتالي الفترة التي عاش خلالها ولم تشف غلتنا بأخبار هذا الشاعر ، لكي توضح شخصيته أكثر بما نراها الآن. غير أننا يمكن أن نحدد جزءا من الفترة التي عاش خلالها إذا رجعنا إلى الأخبار التي تذكر اتصاله ببعض شخصيات معاصرة له : فهو قد سمع دعبل بن علي (ت سنة ٢٢٠ هـ) يقول : أنا ابن قولي :

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى
وسمع أبا تمام (ت سنة ٢٣١ هـ) يقول : أنا ابن قولي :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

وذكر خالدا السكاتب (المتوفى سنة ٢٣١ هـ أو سنة ٢٦٩ هـ) في إحدى مقطوعاته البائية ، والتقى بالمبرد (٢١٠ - ٢٨٦ هـ) وبسعيد بن حميد سنة ٢٤٩ هـ وبعبد الصمد بن المعذل الشاعر (ت حوالي سنة ٢٤٠ هـ) والخليفة العباسي المتوكل فيما بين سنتي ٢٣٥ هـ ، ٢٤٩ هـ

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب المصرية) ٢٠ / ٢٢٦ ووفيات الأعيان (بيروت) ٧ / ٩٥ والأنساب للسمعاني ٤ / ٢٤١ .
(٢) زهر الآداب للحصري ص ٥١٣ .

إذن نستطيع أن نحدد تلك الفترة مطمئنين بثلاثين عاماً تنحصر بين سنتي وفاة دعبل سنة ٢٢٠ هـ وفاة المتوكل ٢٤٩ هـ ولا بد أن تمتد سنوات قبلها وبحوز بعدها أيضاً .

وما زالت أظن ظناً لا يرقى إلى مرتبة اليقين أن هناك صلة بينه وبين شخصية تدعى دحمدون بن إسماعيل بن داود ، يقال إنه كان نديم المتوكل العباسي وتوفي سنة ٢٥٤ هـ

هـ. كذا ضمن معاصرونا وأعلينا وعليه بإلقاء الضوء على شخصيته، فلم يذكره أمثال المبرد في كتبه مع أنه روى عنه أبياته في الشاة والطليسان ، وكذلك عبد الله بن المعتز صاحب الطبقات (ت ٢٩٦ هـ) ، أو أبو الفرج أقرب المعاصرين له شبها به ، وما أجدر كتاباً كالآغاني أن يحيط به خبراً

ويبدو أن الحمدوني شاعر خاض في أكثر من غرض من أغراض الشعر: فروى له شعر غزلي ، ومنه قصيدة يعارض بها لامية تأبط شراً

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلاً دمه ما يطل
تبلغ ٢٨ بيتاً يقول في مطلعها :

لك الحاظ مراض ودل غير أن الطرف عنها أكل^(١)
وله أبيات قافية منها :

زعموا أن من تشاغل بالحب سلا عن حبيبه وأفاقا
كتبوا ما كذا بلونا ولكن لم يكونوا فيها أرى هشاقا^(٢)
وروى له ابن الشجري في حماسته بيتين في العود^(٣)

(١) المقدم الفريد (طبعة لجنة التأليف) ٣ / ٢٤ - ٢٦

(٢) المرجع السابق ٥ / ٣٤٣ .

(٣) حماسه ابن الشجري ص ٢٦٠ .

وله في سعيد بن حميد، وقد ولي ديوان الرسائل سنة ٢٤٩ هـ
لبس السيف سعيد بعدما عاش ذا طمرين لا نوبة له
إن لله لايات وذا آية الله فيما نزله^(١)

والظاهر أنه كان فقيرا، فكان يتكسب من مجونه ومن تظاهره بالحق
ولذلك عدله بعض أصحابه على تحامقه، فقال: حماقة تعواني، خير من عقل
أعوله، ثم أنشد:

عذلوني على حماقة جهلا وهي من أعقلهم الذواحلي
حمقى اليوم قائم بعيالي ويموتون - إن تعاقلت - ذلا^(٢)
والظاهر أنه كان ماجنا، وقد روى قصة لوطي وبغاء معه، جرت
بغداد^(٣) وأغلب الظن أن شطرا كبيرا من حياته كان بالبصرة، لما لذلك نسبة
إليها ابن خلكان^(٤).

وكان مواعا بالهجاء، فرويت له أبيات نونية تعرض فيها للأعاعر الهجاء
الحديث عبد الصمد بن المعذل الذي هدده فإمتلا فرقا منه وقال:

ترح طعنت به وهم وارد إذ قيل إن ابن المعذل واجد
هيات أن أجد السبيل إلى الكرى وابن المعذل من مزاحي حارد^(٥)
ولكن للسخرية غلبت عليه، فقال في ثقل:

-
- (١) الظهري حوادث سنة ٢٤٩ هـ .
(٢) غرر الخصائص للوطواط ص ١٣٣ .
(٣) طبقات ابن المعتز ص ٣٧١ .
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان في ترجمة يوسف بن رافع ٨١/٦ ص ٥٢٩ .
(٥) الأغاني (دار الكتب المصرية) ١٣ / ١٣٥ وانظر معجمه الذي رواه
الحصري في زهر الآداب ١٠٤٩ .

مشى ، فدعا ، من ثقله الحوت ربه وقال : إلهى زبدت الأرض ثانيه
وقال :

سألتك بالله إلا صدقت وعلى بأنك لا تصدق !
أتبغض نفسك من ثقلها وإلا فأت إذن أحمدق (١)

وقال فى قينة ذات صنان :

من كان لا يدرى لها منزلا فقل له يمشى ويستنشق (٢)
ولكنه اشتهر بشعره الذى قاله قتما جنا ساخر فى شاة سعيد ، وطيلسان (٣)
ابن حرب .

أما شاة سعيد: فقد أهداها إليه سعيد بن أحمد بن جواسيدان وكانت
أضحية مزولة ، فاستوحى ما قاله أبو الخطاب البهلى فى خروف أهدى
إليه وكان مهزولا (٤)

(١) زهر الآداب للحصرى ض ٤٤٢ وجمع الجواهر له ص ٣٢

(٢) ثمار القلوب للثعالبي ص ٨٢

(٣) الطيلسان من لباس المعجم أصله تالسان

(٤) وهذا هو رجز أبي الخطاب كما ذكره ابن الجراح فى كتاب الورقة ص ٦٢

أهدى إلينا معمر خروفا

كان زمانا عنده مكتوفا

يعلفه الكشيح والسفوف

والفارقون بعده، دوف

حتى إذا صار مستجيفا

أهدى فأهدى قصبا ملفوفا !

جلل جلدا فوقه وصوفا

وكان من فعاله موزوفا

فقال عدة مقطعات . قال الثعالبي : كان المثل يضرب بشاة منيع ، ثم تحول المثل إلى شاة سعيد لكثرة ما قال الحمدوني فيها^(١) : كذلك استوحى الحمدوني قول أبي حمران السلمي في طابلسانه ، وكان قد أخلق حتى بلى :

يا طابلسان أبي حمران قد برمت بك الحياة فما نلتذ بالعمر
في كل يوم له رفا يجده هيهات ينفع تجديد مع الكبر
إذا ارتداه لعيد أو لجمعه تنكب الناس أن يبلى مع النظر^(٢)

والطابلسان الذي ظفر بتهكم الحمدوني هو طابلسان أهداه إليه أحمد ابن حرب المهلبى - وكان من المنعمين عليه المحسنين إليه - فلم ير ضه ، قال أبو العباس المبرد : وأئتمدنا فيه عشر مقطعات استحلينا مذهبها فيها ، فجعلها فوق الحسنين ، فطارت كل مطار ، وسارت كل مسار^(٣) وروى ابن شاعر الكتبي أنها دمثا مقطوع^(٤) ، ولكن الأصح هو ما رواه ابن المعتز في طبقاته قال : وله فيه قريب من مائتي بيت في خمسين قطعة تفنن معانيها^(٥) وقد جمعت هذه المقطعات وأحصيتها فوجدتها ثمانى مقطعات في الشاة ، وتسع وعشرين قطعة في الطابلسان تبلغ كلها حوالى ١٦٠ بيتا . وقد بذلت جهدى فى استقصاء جمعها وتحقيقها ، وسوف أذيل بها هذا البحث .

ويعتمد الحمدوني فى تهكمه بالشاة أو سخريته بصاحبها سعيد ، على المبالغة فى وصفها بالهزال ، وجعلها تتغنى دائما - كأنها عاشقة - بحبيبها ،

(١) ثمار القلوب ص ٣٠١ .

(٢) المرجع السابق ، ووفيات الأعيان (بيروت) ٩٨/٧ وفوات الوفيات

١٧/١ .

(٣) ثمار القلوب للثعالبي ص ٤٨٢ .

(٤) وفات الوفيات ١٧/١

(٥) طبقات ابن المعتز ص ٣٧١

ألا وهو العلف الذى حرمت منه ، فحينما تراه، تتحرك عواطفها وتجيش
فتتغنى ببیت یضمن من إحدى الألفانى المشهورة فى عصره ، وبهذا یشخص
الشاة، ویجعلها عاشقة مدنقة ، ولهذا فهى « تضىو » أى مهزولة دائماً ولبست
إلا جلدًا وعظاما .

والثقافة الدينية تسيطر علیه دائماً فیتسكى علیها ویستخدمها مادة
لخیاله وتشبیهه : فابن سعید یصبح من وراء الحجرات كشاعر بنى تيمم الذى
صاح بالنبي ﷺ أن یمخرج إلیهم لمنافرتهم ومفاخرتهم، ویذكر قصة أصحاب
الجنة ، والسائر الذى عبد العجل ، ویستخدم آیات كثيرة فى التضمنين :
« الروح من أمرى ربى » ، « كالكلب إن تحمل علیه یلمث أو تتركه یلثم » ،
« أنذا كنا عظیما فخره » ، وهناك مقطوعة رائیة أقامها هلى تضمین خمس
آیات من سورة القمر هى ١٩ - ٢١ - ٦ - ٧ - ٢٩

وهو یثبت نفاذ شاعریته بعبقریته فى اقتناص التشبیه الرائع : الطیلسان
لقدمه أسیر الله فى الأرض . یشفق علیه إشفاقه على عرضه . كان شراعاً سفینة
نوح . كالخلیج الذى لا یطیع الرفاء .
كالطور الذى تجلى له الله فذكاً مثل آل فرعون فى العرض على النار بكرة
وعشبة ، وقد فطن إلى خلود المشبه به إذ هو من القرآن الکریم فقرنه بما
شبهه به فى شعره فغدا رائعا أخذاً . . .

ولا یسکاد یتترك الفكاهة فى تمکمه بل تسرى فى کل مقطوعة سریان النسيم
العلیل الذى ینعش الأبدان ویوقظ فیها الحیاة : فالشاة حینما تبصر علفاً
فى نومها تتغنى :

ياما نعى لذة الدنيا بأجمعها إني لیفتنى من وجهك النظر

وكذلك في مبالغته عن الطيلسان :

لقد حالف الرفاء حتى كأنه يحاول منه أن يعله الرفوا !

ولا يترك الظرف وإرسال النكتة اللاذعة بديهة وقد مر بابن حرب - صاحب الطيلسان - وعلى كتف الحدودى وسادة ، فسأله ابن حرب : لآى شئ هذه يا حمدونى ؟ قال : أرقع بها طيلسانك ! فقال : ما تزال تهجوننا منشورا وموزونا (١) .

وهو خفيف الروح دائما أبدا فى أبياته ، فبعد أن يذكر أن الطيلسان كان مجلبة لنعم كثيرة بتندره به ، يقول :

ولكم قد حاز لى أردية ترى وقصا
كان دهر طيلسانا ثم قد أصبح شصا

وتناسب الحركة فى أبياته حريصا على الواقعية التهكية التى تزيد أبياته طرافة وهى التى نعمت بالشخيص الساخر دائما :

فأناها مطمعا فأنته لتعتلف !
فتولى ، فأقبلت تتغنى من الأسف
ليته لم يكن وقف عذب القلب وانصرف

وهاك بيتين رائعين من هذا القبيل :

فإذا الملا ضحكوا بها . قالت لهم
لاتهن أوا بى ، وارحمونى ترحموا

مرت على علف ، فقامت لم ترم
عنه ، وغنت ، والمدامع - حجم

والحمدوني حاذق يوفر لشعره الذبوع بالفاظه العذبة، وبكلماته الرقيقة،
ويتوج ذلك باستخدام البحور المناسبة لذلك التهكم الضاحك فجعل
مقطعاته من الخفيف ، ومجزوء الرمل ، والمنسرح ، والمتقارب وكذلك
يستخدم القافية الساكنة غالباً .

أبو العلاء

أحمد بن عبد الله بن سليمان : سليل أسرة تنوخية يمنية معروفة ، إذ اتصل فيها العلم ، وسار المجد في ركبهم جيلا بعد جيل ، وداول الله بينهم منصب القضاء آباء وأحفاداً فكان منهم جده وأبوه وخاله وابن أخيه ، وتوارث هذا البيت الكريم العلم والشعر والأدب ، فكانوا أشبه بأسرة زهير في الجاهلية ، وجريير في الدولة الأموية .

ولد أبو العلاء بمرة النعمان بحلب سنة ٣٦٣ هـ وأصيب بالجذري وهو في الرابعة ففقد نور عيذه ، وأمسى كفيف البصر يلفه الظلام في روحاته وغنواته فكانت تلك هي الصدمة النفسية الأولى في حياته ، ومع هذا فقد أخذ ينهل من معين العلم الثري ينبع من بيته الكريم ، يغدقه عليه أبوه الذي ظل له خير هاد حتى أصيب فيه إذ اختاره الله إلى جواره وهو في الثامنة والثلاثين من عمره سنة ٣٩٥ هـ فكانت تلك هي المحنة النفسية الثانية التي امتحن بها . . . وأبى عايه طموحه وهمته أن يستكين ، وقد عوضه الله عن حبيبتيه صفاء ذهن وحدة ذكاء وشرها لاقتناص العلم بكل جوابه وصنوفه فكان هذا حافظاً له إلى الاتصال بالبيئات العلمية المختلفة برشف من معينها الذي لا ينضب ، فكان ممن اتصل بهم علماء حلب : هؤلاء الذين ورثوا النهضة العلمية الكبرى التي خلفها عهد سيف الدولة الزاهر ودولته الحدة على العلم ، وكذلك ولي وجهه شطر أنطاكية واللاذقية وطرابلس ، ولم يجد بأساً من أن يسمع من أحد رهبان دير في اللاذقية شيئاً من فلسفه القدامى ولاهوت النصارى عما يقال إنه كان ذا أثر في بذر الشك في نفسه فيما بعد .

وقد عاش في بيئة سياسية مضطربة : إذ كانت حلب نهبا للطماعين من الحمدانيين والفاطميين والروم وأبناء مرداس ؛ فاهتز الكيان الاجتماعي والاقتصادي لتلك المقاطعة من الشام بسبب هذا الاضطراب ، وكان لهذا من غير شك - أثره القوي ، وبخاصة في شخصية مرهفة الحس يقظة الوجدان كشخصية أبي العلاء .

عاش شاعرنا الكبير تلك الفترة من حياته الأولى يرشف وينهل ويعمل من معين العلم ما وسعه الجهد ، وأعانته الطاقة ، وما أتاحته له فرصه المختلفة : ولعله لم يختلف عما حوله إلا في شدة حساسيته ، وما يتبع حرمانه من نور عينيّه ، أما فيما عدا هذا فلمه كان حسن العشرة ، يجالس الأصدقاء والخلان ، يشركهم أحاديثهم ، ويبادلهم تفكيرهم ، ويأخذ من أطراف الحياة بنصيب ما ، حتى لعبة الشطرنج لم تعد فيه مارسا لها ، وأغلب الظن أنه كان مكفى السعى وراء العيش إذ كان له وقف يدر عليه ثلاثين ديناراً في السنة يقتسمها هو وخادمه الموكل به

وهكذا سار في درب الحياة حتى أشرأبت عنقه إلى حاضرة النور والعلم بغداد فرلى وجهه شطرها وهو في الثامنة والثلاثين من عمره في أخريات عام ٢٩٨ هـ فأقام فيها سنة وسبعة أشهر : حضر في خلالها مجالس العلماء والرواة والشعراء فكانت فترة خصيبة من سنى حياته مفعمة بالنشاط العلمي والفكري ، فترة مباركة عكرها عليه بعض العلماء ومنهم الشريف المرتضى الذي قسا عليه فأمر جلساءه أن يجروه «إصطيلا» (١) من قدميه ، ولقد زاد قلقه النفس - بالإضافة إلى إحساس بالغربة يستكن في ضميره - حقيقته إلى رؤية أمه التي امتلأت أحاسيسه لطفة على لقائها : كل هذا قد شده إلى الإياب ، وأمكن - القدر امتحنه بالحنة الكبرى الثالثة بل هي الثالثة الأثافي ،

(١) الإصطيل هو الأعمى كما نطقها الشريف المرتضى .

إذ وصل إلى المعرة فوجد أمه قد انتقلت إلى الرفيق الأعلى : حينذاك تبدلت حاله ، وبدأ الطور الثاني من حياته سنة ٤٠٠ هـ تقريباً مفهماً بسكر لعية الدنيا وكل ما فيها ، معتزلاً الناس إلا من يتردد عليه من الطلاب ومن يريدون أن يتزودوا بنوره ، متشامخاً ، وقد انطوى على نفسه رهين الحبس في بيت لا يكاد يغارقه طوال هذا الشطر الثاني من عمره الذي امتد حتى الخامسة والثمانين حيث ودع الدنيا في سنة ٤٤٩ هـ .

وقد تجلّت فلسفته وتأملاته العميقة ونظراته الثاقبة في كل تتاجه سواء في ديوانية سقط الزند أو اللزوميات ، أو رسائله التي منها « الغفران » تلك التي دجها رداً على صاحبه الحلبي ابن القارح الذي أرسل إليه رسالة طالباً منه ، راجياً إياه أن يرد عليها ، وذلك حوالي سنة ٤٢٤ هـ .

أما ابن القارح هذا فهو علي بن منصور الحلبي يكنى أبا الحسن ويلقب دوخلة : كان شيخاً قيمياً بالنحو حافظاً لقطعة من اللغة والأشعار ، راوية للأخبار ، وكانت معيشته من التعليم بالشام ومصر : فأدب بها ولدى الحسن بن جوهر القائد وكانا مختصين بالحاكم ، وكذلك أدب أبا الحسن المغربي الذي وزر ببغداد ، وسامت العلاقة بينهما - لسبب غير واضح - إلى حد أنه أمطره بأهاج كثيرة جعلت أبا العلاء المغربي يذكر ابن القارح - حينما ذكره - مذسوباً إلى هجائه ذاك بقوله عنه « أعرفه خيراً ، هو الذي هجا أبا القاسم بن علي بن الحسين المغربي (٣٧٠ - ٤١٨ هـ) ومع هذا فقد كان ابن القارح على علاقة حسنة بوالده أبي الحسن المغربي بمصر ، فأتى عليه في رسالته بعكس موقفه من ابنه الذي يرى أبو العلاء مستهجنًا هذا الموقف مما يستشف من رسالة الغفران في قسمها الثاني الذي رد فيه علي ابن القارح بعض مزاعمه .

وبما هجاه به ابن القارح قوله :

لقيت بالكمال سترًا على فقصك ، كالباني على الحص
فصرت كالسكنف إذا شيدت بيض أعلاهن بالحص
جاعة الدنيا بلا غرة ويا طويس الشؤم والحرص
قتلت أهليك وأنهت يد ت الله بالمرسل تستعصى

ويقول ياقوت عنه أيضا : وكان بينه وبين شخص يدعى «الكسروي»
مهاجرة ومهاجرة ومماظنة وشعره يجرى مجرى شعر الملعدين ، قليل الحلاوة ،
خاليا من الطلاوة . ولم يتزوج ولا أعقب . ولد بحلب سنة ٢٥١ هـ ، وكان
موجودا حتى سنة ٤٦١ هـ (١) ، فإن صح هذا فيكون قد عمر حتى جاوز
المائة عام .

ومبلغ علمي أن الدكتور الفاضلة محمقة الغفران لم تتعرض لشخصية
ابن الفارح بللدراسة المستفيضة فيما يتصل من مؤلفاتها حرل الغفران أو
أبي العلاء ، فألمحت إليها في دراستها «للففران» دون أن تتعرض لها
بالتفصيل ، واهتمت بشخصية أبي العلاء «المحروم» وبالظروف السياسية
والاجتماعية والاقتصادية التي اكتشفت عصره وحياته ، دون أن تلقى ضوءا
على ابن الفارح ، وهو الذي لا بد وأن يكون الباعث الأول الذي حرك
أبا العلاء إلى ما خاض في دروب رسالته ، وما جعله يقمص شخصية الهازي .
الأكبر من الدنيا ومن فيها ، واكتفت بالشعور ونحوه بالاشمئزاز الحاد لما ذكره
في آياته الصادية السالفة الذكر وما توحى به كلمة «السكنف» من تقزز حاد ،
وكذلك نعتته في كتابها الذي حاولت فيه جاهدة عد الرسالة «مسرحة مكتملة
البناء» (٢) ، نعتته بالخيانة إذ انضم إلى الحاكم الذي انقلب عليه وقلب له

(١) معجم الادباء لياقوت ٨١/١٥ -- ٨٨

(٢) صدر الكتاب في بيروت سنة ١٩٧٦ م .

ظهر المجن فباء بغضب الناس وسخرية الدهر منه ، وتغير الحاكم وقلبه له
ظهر المجن : أغلب الظن أن تلك هي شخصية ابن القارح في مخيلة الدكتور
محقق الغفران منذ سنة ١٩٥٠ م ، تلك المحققة التي ضربت صفحا عن بيتين
أوردتهما ياقوت في كتابه معجم الأدباء ضمن ما اختاره له من أبيات مصدرة
بأنها « في المداعبة » ، وهي في ظني تعد مفتاح شخصيته .

وقد تكون السبب الأقوى - إن لم أكن مخطئا - في سخرية أبي العلاء
بإبن القارح . ويؤيد زعمي اقتصار السيوطي ^(١) في البغية على هذين البيتين
ولم يروغيرهما ، كأن البيتين ظلا - حتى عصر السيوطي على الأقل - أشهر
ما يروي لابن القارح وأفضل ما يمثل شخصيته ، ولا بأس من إيرادهما على
الرغم ، ما نشعر به من غضاظة في إيرادهما :

أين من كان يوضع الآ... إجلالا على الرأس عنده ويباس
أين من كان عارفا بمناذير الآ... الكبار مات للناس ١١

وقد قصد ابن القارح في البيتين - كما نرى - إلى التفهكة ولا شك ، أو
إلى هجاء مخنث ، أو إلى التمرض إلى لعوب ، وأغلب الظن أنهما قد صمكا -
فيما وصل من شعر ابن القارح وأدبه - أسماع أبي العلاء ، مع ما عرف به
من هجو والوزير أبي القاسم المغربي ، والذي نعت به جوره أبو العلاء في « الغفران » ،
كأن ابن القارح لا يعرف إلا بهذا الهجو ، بالإضافة إلى هذه النقيصة الحاقية
التي تسقط صاحبها حينما يأخذ جانب حاكم ظالم وينأى بجانبه من رعية
مظلومة بغية وفده ، وإذا بالحاكم يتنكر له ولا يعطيه سؤله ، بل ينتقم منه
بحرمانه ، كل هذا ولا شك كان هالة أحاطت بصورة ابن القارح وشخصيته

في مخيلة أبي العلاء حينما قرئت له رسالة ابن القارح : فماله تحذاق هذا الشيخ الكبير ذي السبعين عاما أو ما ينيف عليها ، في رسالته ، ومحاولته إثبات مقدرته اللغوية من جهة ، ولكي تعلو منزلته في عالم الأدب إن هو ظفر بشيء أبي للعلاء عليه من جهة أخرى ، متلفعا ، بل ملحا على تلقي جواب أبي العلاء عليها إذ ختمها بقوله : وأسأله - أدام الله عزه - تشريفي بالجواب عنها ، فإن هذه الرسالة - على ما بها - قد استعجنت وكتبت عني وسمعت مني ، وشرقتها باسمه - وطرزتها بذكره ، ، ، ، ، وإذا جاء جواب هذه ، سيرتها بحلب وغيرها إن شاء الله . . . ، ،

وهكذا ندرك الظروف النفسية الخاصة التي حدث بأبي العلاء إلى أن يدبج رسالته متعاليا على هذا الشيخ الفاني المغرور - ابن القارح - الذي أحاط المجنون باسمه ولا شك - بل ربما لطخه - بسبب هذين البيتين الداعرين اللذين اكتفى السيوطي بالتمثيل بهما عنوانا على شعره وربما على شخصيته ، وأغلب الظن أن شعرا آخر من هذا القبيل قد عرف له ولكنه ضاع فيما ضاع من شعر كثير .

والغريب أن ابن القارح - في أواخر رسالته - يروى بدون حياء نادرتين لإحداهما تتعلق بأبنة أخت له سرقت ثلاثة وثمانين ديناراً له . فلما هددها السلطان أخرجت إليه بعضها وقالت : والله لو علمت أن الأمر يجري كذا ، كنت قتلتها ! وكان الأجدر به أن يستحي من ذكر ما يمس عرضه هكذا ، ويعمل بقوله : وإذا بليتيم فاستتروا ، ، ولم يفت أبا العلاء أن يتهم به فأطال تهمكه بالشيخ وبالثمانين ديناراً وبذكره لهذه الغادرة في ضحك طويلة استغرقت عدة صفحات من أواخر رسالته .

أما الأخرى فتلك الوديعة - وكانت جارية - استودعت صديقا ، فأراد

أن يجربها ، فلما كتشف أنها ثياب وليست بكرات كما ادعى صاحبها ٤ :
وهكذا نقرأ ناهرة باردة أشبه بالغشاء ، ومع هذا فليس لها موضع يدعو
إلى سردها في الرسالة ، وإن دلت على شيء في خلق - وأغلب الظن كذلك
عند أبي العلاء - فإنها تدل على صدورها عن شيخ مهتر لم يرج حرمة لسن
ولا لمساكنة أبي العلاء حتى يحسب رسالته بهذه الأباطيل التي كان يعرفها أبو العلاء
عن البشر وعن ابن القارح ولا شك في شبابه أو كهولته ، ولكنه ولا شك
يستبعد صدورها عن شيخ كابن القارح ذي السبعين عاما (١) وهو الذي كان
يحذر به أن يكون أكثر وقارا وأبعد همة ، إلا إذا كان قد خرف وأهتر.

ولا تحوى الرسالة موضوعا خطيرا ، ولكنها تحوى محاولة لإظهار البراعة
اللغوية والأسلوبية من خلال اللفظ المختار والجملة الرصينة أحيانا ، والاستطراد
إلى أفكار جانبية ، وعرض لما يختزنه عقل ابن القارح من بعض مصطلحات
طائفة من العلوم الكيميائية والرياضية وغيرها ، والاستشهاد بالأمثال وتصوص
الشعر المحفوظة والأخبار الأدبية التي كان يحصوله منها كثيرا ، وهو لا ينسى
ما خلق على روح العصر من محسنات بدعية أظهرها السجع كما جاء فيها :

... بعد أن منيت بربضها بالدرخمين وأم حبو كرى والفتكرين ،
بل رميت بأبدية الآباد والناحية التآد ... ،

وتبدو الرسالة متقطعة الاتصال في بعض أجزائها مما يسبب خللا فيها
ويغشيها بسحابة من الغموض كما ظهر في الصفحة ٢٢ من طبعة دار المعارف .

ويسوق خبر رسالة أبي الفرج الزهرجى الكاتب ، تلك الرسالة التي
حملها إلى أبي العلاء ، ولكنها سرقت منه ، فيظهر استيائه من ذلك ، وشكوى

(١) انظر قول ابن القارح في رسالته ص ٤١ : فلما بلغت عشر الثمانين.

أموره ، وبث شقوقه ، وإطلاعه خالع عجره وبجره . . طالع ، ثم يستطرد
إلى بيت لملني :

أذم إلى هذا الزمان أهله :

ويتقد شاعر العربية الكبير الذي ادعى النبوة ، ويخرج من ذلك مستطرداً
إلى الحديث عن الزنادقة حديثاً مطولاً ، ثم سن القصيدة وأنها بلاء ، ربما
كانت عافية صروف الغواني عنه ثم يستطرد منه إلى صبر النبي - صلى الله
عليه وسلم - على البلاء في حديث طويل ، ثم عرج على وصف نفسه ، ومنه
خرج إلى الدفاع عن نفسه وتبرأتها بما اتهمه به أبو العلاء من هجاء الوزير
أبي القاسم المغربي وما دار بينه وبين أبيه في مصر عنه ، وأخيراً يثنى على
أبي العلاء رسائله وعقائل ألفاظه وحفظه .

السخرية في رسالة الغفران :

بدأ أبو العلاء يرد على ابن القارح واضعاً نصب عينيه أو فؤاده الذكي
وحافظته النادرة كل ما تضمنته الرسالة من أفكار وما ظهر به الكاتب من
تقمر في الأسلوب فحاول المعري أن يخمده ويظهره قزماً إذا ما قرن به :

ففي أسلوب أبي العلاء حمد ضخم لألفاظ أحسن غرائبها وحوشيتها
ووعورتها فحاول شرح معظمها ، بادئاً إياها بقوله : « قد علم الجير - الذي
نسب إليه جبرئيل - أن في مسكني حماطة . . . ويستطرد إلى معاني الحماطة ،
ثم إلى معاني « الأسود » . . . وهكذا يستمر حتى يصل إلى ذكر رسالة ابن
القارح ويبدأ في السخرية منه ذاماً إياها بأسلوب المدح ، أو مادحاً إياها
على الحقيقة ، تمهيداً للسخرية به : « عجبت من استأق عقودها الفاخرة ،
ومثلها شفع ونفع ، وقرب إلى الله ورقع ، وألفيتها مفتحة بمنجيد ، صدر عن

بليغ مجيد... وفي قدرة ربنا - جلت قدرته - أن يجعل كل حرف منها
شبح نور ، لا يمتزج بمقال الزور... ولعله سبحانه قد نصب لسطورها
المنجية من اللهب معاريج من الفضة أو الذهب، تعرج بها الملائكة من الأرض
الراكدة إلى السماء.... وهكذا يلجأ أبو العلاء إلى خياله الرائع وإلى السجع
في بث سخريته : سطورها تنجى من اللهب... معاريج من الفضة أو
الذهب... وأي قيمة ضخمة للرسالة حتى تعرج بها الملائكة... ؟

ويبدأ أبو العلاء في إدخال شبيهه ابن القارح جنته ثم جحيمه عارضا
ما فيهما من ألوان النعيم : أنهار من عسل مصفى... خمر... أباريق... أسماك
دنان الخمر... مقابلا بين ذلك وما قيل فيها من شعر في الدنيا الفانية ،
وكذلك بعض ألوان العذاب ، ويجعله يلتقى بعشرات من الشعراء والفحاة
والرواة وبعض الشخصيات ذات المقام العالي كعلي بن أبي طالب وفاطمة
الزهراء رضي الله عنهما وقاضى حلب... وغيرهم^(١).

أما القسم الثاني من الرسالة فيرد فيه على رسالة ابن القارح ردا مباشرا
تفصيليا ، بينما يعد فيما سلف من القسم الأول منها قد ردّ ردا رمزيا : فيبدأ
أبو العلاء مدافعا عن المتنبي الذي هاجمه ابن القارح متعرضا لذكر الزنادقة
والملاحدين حتى يصل إلى نهايتها ، وهو لا يكاد يترك شيئا مما ذكره ابن
القارح إلا تعرض له ، غير ما يدل على تفاهة الكاتب فقد ضرب عنه صفحا ،
ومما تعرض له « الدنانير » التي سرقت منه ، وتستغرق اثنتي عشرة صفحة^(٢)
يحوس خلالها بتهكم رائع ، وكذلك « الثمانين » وهو هدهدها فيستغرق ثمانين
صفحات ، ويستمر متندرا بأبن القارح من خلال ذكر نصوص أدبية تتصل

(١) رسالة الغفران (طبعة دار المعارف الأولى) ص ١٢١ - ٢٧١ .

(٢) المرجع السابق من ص ٥٥١ - ٥٦٢ .

بها . . . وهكذا يتخذ من عناصر كثيرة مواد - يجعلها مدار سخريته أو محور هزئه وتندرته: فهو الشيخ الهرم الذي ضرب في أعماقه روح ماجن لا يستحق إلا التندر المستمر: تصعد الملائكة بكلمات رسالته وبسطورها المنكوسة منها إلى السماء فوق معارج من الفضة . . . أو الذهب (بادئاً بهذا تندرته) مستفيداً بآيتين^(١) كريمتين فهما ذكر الكلم الطيب، شبهها كلا منها بشجرة طيبة، ويستطرد إلى جزاء ما أثنى به على الله بشجر في الجنة ضخم ذي ظل يملأ ما بين المشرق والمغرب . . . وهكذا يجد ابن القارح نفسه في الجنة وقد بدأ يتلعب به المعري راوية للاخبار في الدنيا، فيظل هكذا في فردوس الآخرة حيث يجعله يلتقي بمؤلا الرواة والعلماء الذين روى عنهم: سيبويه والمبرد والأصمعي وعشرات غيرهم، وملتقياً بطائفة كبيرة متفرقة من الشعراء في الجاهلية والإسلام والعصر العباسي حتى أبي تمام، ويجعل ابن القارح يقول: « لقد شقيت في الدار العاجلة بجمع الأدب، ولم أحظ منه بطائل، وإنما كنت أتقرب به إلى الرؤساء فأحتلب منهم (ص ٢٨٤ من الغفران) ويجعله يقول في موضع آخر: « إنما أنا صاحب قلم وسلم . . . (الغفران ص ١٧٣) ويتمعجب من حفظ الشيخ ابن القارح أدبه في الآخرة ورده أنه كان يدعو الله أن يمتعه بأدبه في الدنيا والآخرة، (ص ٢٣٣ من الغفران) وهذا منتهى التهمك. ويسخر به لامزا المعلمين وهو أحدهم بقوله على لسان امرئ القيس: « وأما المعلمون في الإسلام فغيروه على حسب ما يريدون، ولا بأس بالوجه الذي اختاروه، . . . (ص ٣١٠ من الغفران) والمعري دائماً أبدأيستخدم الجمل الاعتراضية تهكماً عليه، ولا يكاد يذكره إلا متبوعاً بهذه الجمل التي منها: فيقول - خلد الله ألفاظه في ديوان الأدب^(٢)،

(١) الأولى من سورة فاطر الآية ١. والثانية من سورة ابراهيم الايتان ٢٤، ٢٥

(٢) رسالة الغفران ص ٢٢٨

ومنها دوى مرضى له أدلم الله الجمال ببقائه - للشوق إلى فطر سبحانه ،^(١)

وحتها : « فيهم الشيخ - لازلت همته عالية - »^(٢)

ولئن كان ابن القارح هو مدار سخرية المعري ، فإن المواد التي استخدمها في السخرية قد جعلها مدافا لسخريته أيضا ، كما فعل حينما سخر من الرواة الذين يوردون السخرية من ابن القارح : فيدير ممركة بين الأصمعي والمازني حول وزن لوزة - كأنها شيء خطير - ويجعل الأول يشتم الثاني بقوله :
يا فاضل^(٣) .

وكذلك يسخر من الرواة حينما يفضح التخطيئ للشر أو تصحيفهم في روايته : فيجعل الطالبة الجعدي يقول بصدد أبيات غيبية وضمت عليه :
ما جعلت الشين قط روبا ،^(٤) ويجعل أحنس قيس يقول : « ما هذه عما صدر عني : وإنك منذ اليوم لم تلغ بالمخحولات »^(٥)

ويذكر قصة خلاف مع أصحابه وسؤاله إياهم عن كيفية إيراد قافية البيت الثاني من النص الآتي :

ألم بصحيتي وهم هجوع خيال طارق من أم حصن
لما عاشتني : عسلا مصفى لئلا شامت يوحوارى بسنى^(٦)

إذا ما كانت الرواية « من أم حفص » بدلا من أم حصن

(١) المرجع السابق ص ٢٦٧ .

(٢) « د د » ص ٢٨٤ .

(٣) رسالة النفران ص ٢٧٥ .

(٤) « د د » ص ٢٠١ .

(٥) « د د » ص ٢٠٤ .

(٦) « د د » ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

وبفرع من هذه الحكاية فيقول : ويأخذ في اقترح أسماء أخرى مثل : لم
جزء . . . : الخ القوافي كلها ، وبذلك يظهر أبو العلاء اقتداره على النظم من جهة
وسخريته من الرضاعين كخلف من جهة أخرى ١

ولا يكتفى بسخريته الخفية من ابن القارح المعلم الراوى ، بل يسخر منه
من ناحية ما عرف عنه بالمجون : فيستطرد في الكلام عن الجنة بذكر المدام
وبفرع منها ذكر الأباريق متلعباً بالأسلوب بمثل قوله : هيهات هذه

أباريق ، كأنها في الحسن أباريق ١ ، ثم يبدأ في شرح مفرداتها جازماً بطريق
خفى يا خفاق ابن القارح في التفتن إلى مدلول الكلمات الثلاثة : ثم يخرج
من ذلك إلى الانتقال إلى أدب الدنيا متناولاً ما قاله عدى بن زيد عن المدام
والصيد ، ثم يخرج إلى ذكر ألوان الخمر ويجعلها أو تصورها على هيئة الطير
السابحة ، فهو بهذا يلعب بعقربنا أو بنخيل ابن القارح ، ثم يبالغ في وصف هذه
الخمر التي ليس لها مثيل . . . ويستمر في وصف الخمر مزرباً على النمر بن
تولب قوله في الدار العاجلة . . . وهكذا ينتقل بين الآخرة والدنيا مورداً
محفوظه من نصوص مزرباً على أمثال ابن القارح ما يحفظه من نصوص ، ولا
يكتفى بهذا ، بل يكمل له خياله الذي لا يكاد ينفى شيئاً إلا أحاطه بما
هو بسبيل تناوله : السحك بعد الخمر ، الندامى ، النومة وما تحتاج إليه من دابة
تركب ، ولا يكتفى أبو العلاء بالسخرية التشخيصية من الراوى المقصود
بالسخرية وهو ابن القارح أو الرواة والشعراء والعلماء الآخرين ، بل يدس
عبارات وصوراً تحمل السخرية في حياتها أو برنينها : فها هي صورة رف من
إوز الجنة تغنى للأعشى ما يطلبه من غناء (١) وقوله على لسان زفر : وأحسب
هذا الذي نجيتني به .. يعنى الشعر - قرآن إبليس المارد ، ولا ينفق على الملائكة

إنما هو للجان وعلوه ولد آدم^(١)، وفي موضع آخر :

« وحسبنا شهيدا على ذلك الآية المتلوة في فرقان محمد^(٢)، ومن الصور قوله على لسان لبيد : « . . . فلا يؤمن أن يسمى فاعلو ذلك أزواج الإوز ، فتضرب الجماعة عن اقتسام أولئك القيان . . . »^(٣)

ومن لمزه جعله عليجا وحشيا يدخل الجنة لأن صائدا صاده بمخلب ، وكان إهابه كالسلب . . . وتظهر بنزيعه الصالحون ، فشملته بركة من هؤلاء^(٤) ، وكذلك لمزه حسان بن ثابت ذكره الخمر في أول مدحة مدح بها الرسول^(٥) . وكذلك جعله وسيلة الشيخ في دخوله الجنة هذه الجمل التي كان يكتبها في نهاية كل كتاب « وصلى الله على سيدنا محمد . . . وعلى عترته الأخيار الطيبين . . »^(٦) ، وجعله يحار في عبوره الصراط حتى تهبه السيدة فاطمة الزهراء جارية تحمله على الصراط بصورة مضحكة ، منشدا :

ست إن أعياك همي فاحمليني زفقونه

ويقول عقب ذلك أبو العلاء على لسان ابن القارح متهمكما به :

« . . . فلذلك بقى على حفظي ما نزفته الأهوال ولا نهيك تدقيق

الحساب^(٧) ، متناسيا قوله تعالى : يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت^(٨) ،

(١) المرجع السابق ص ٢٤٤

(٢) « د د » ص ٣٥٢

(٣) رسالة الغفران ص ٢٢٦

(٤) « د د » ص ٢٢٧

(٥) « د د » ص ٢٤٩

(٦) المرجع السابق ص ٢٥٤ وقارن ذلك بما جاء في قوله تعالى : « وأن ليس

للإنسان إلا ما سعى » .

وما أكثر التقاطه ما ذكره ابن القارح في النصف الثاني من رسالته ، ورده عليه متبحرا بلغته ، وتقريعه بسبب غضبه من ابنة أخته للدنانير التي سرقته والثمانين التي ربما زادت عدا عليها ، فكأنه قط يلعب فأرا كما فعل حين ذكره الدنانير^(١) وهذا يذكرنا بسخرية الوزير بالملك فيما سلف من قصة « إبلاد وإبلاد وإيراخت ، في كلية ودمنة .

وهناك عبارات لم يتورع أبو العلاء عن أن يفوه بها بسخرية متجرتا على رب العزة ، في مثل قوله على لسان النابغة الجعدي مخاطبا الأعشى : « أسكت يا ضل بن ضل ، فأقسم أن دخرك الجنة من المنكرات ، ولكن الأقضية جرت كما شاء الله ! لحقك أن تكون في الدرك الأسفل من النار ، ولقد صلى بها من هو خير منك ، ولو جاز الغلط على رب العزة ، لقلت : إنك غلط بك ، ومع استخدامه حرف الامتناع « لو ، فإن هذا لا ينفي ما في العبارة من سم السخرية^(٢) ويقول على لسان أوس : « ولقد دخل الجنة من هو شر مني ، ولكن المغفرة أرزاق ، كما أنها النشب في الدار العاجلة . . . »^(٣)

وهكذا سخر سخرية لازعة من الشيخ المعلم الراوية ابن القارح مخاطبا بالنحاة الذين تشملهم سخريته حينما يعملون عدى بن ربيعة التغلبي لا يشتر إلا ملحقا أو مضافا إلى هذا البيت :

ضربت صدرها إلى وقالت يا عديا لقد وفيتك الآواقي
وكأنما صارت نكته نحوية في بيت أوبيتين لشاعر من الشعراء هي أهم

(١) رسالة الغفران من ص ٥٤ ، إلى ٥٦٩

(٢) رسالة الغفران ص ٢٢٢

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٢ - ٢٢٣

ط يعرف به وما يذيع به اسمه ، كأن تلك النكتة التي تهم التحويين صارت
لهم من إبداحة الخفى في الله نيا العاجلة ١١

وهكذا نرى أن الرسالة كلها ضحكة كبرى ، بل فهتمة مكتومة تنبئ
عن فم أبي العلاء الذي لعله - في الطور الثاني من حياته - لم يعرف الضحك
أو الابتسام هكذا في دنيا الرفاق وفي سمر المتفككين ، فكانت رسالة ابن
القارح سببا في إطلاق تلك السخرية اللاذعة من معقلها الذي استكنت فيه دهرأ
طويلا منذ صار رهين الحبسين ، تلك السخرية التي صارت لحمية الرسالة
وسداها من خيوطها ، ولعل للعقاد كان أصدق من عبر عنها بقوله ، وحسبنا
أن نقول إن الرسالة كلها في وضعها وفي تركيبها ، وفيما بدا من معانيها
القريبة ، وما انطوت عليه من المعاني البعيدة والمضامين الخفية ، إن هي إلا
ضحكة واحدة متصلة ، يجر بها المعرى حيننا ، ويوارب بها أحيانا ، وقد
يفرق في الصخر حين يوارب ويدارى حتى تخاله ساخرا من السخر مترفعا عن
الاهتمام بإظهار قصده ، أشدة استخفافه وقلة مبالاته ، (١)

ومع هذا فقد علق طه حسين على ما كتبه العقاد بقوله : « إن الخنى
يقرأ رسالة الغفران ويفقه ما فيها من سخرية ، لا يستطيع أن يعلم بأن
أبا العلاء كان مسلما حقا ، وقد أفهم أن يتجنب العقاد مثل هذا البحث ، لأن
فيه شيئا من الحرج ، ولكني أحب أن يكون الناس مثلي ، يكرهون أنصاف
الحقائق ، ويؤثرون العلم والتاريخ على كل شيء . »

وأغلب الظن أنها حالات نفسية كانت تقتلب شخصية أبي العلام الحساسة

(١) مطالعات في الكتب والحياة للعقاد (طبعة التجارية سنة ١٩٢٤ م)

فتكليف بها آراؤه ، فيرى أنا قد اقترب من هاوية الكفر ، ويرى أنا آخر
قد رجع وأتاب ، ومن يقرأ ما كتبه الصفدى وما رواه من مرويات كثيرة
عنه وعن معاصريه إزاءه ، يتبين له صدق دعوانا ، وقد كتبت رسالة الغفران
غالباً في ظروف سيطرت عاياه وأحاطته به ، خفيل إليه أنه في قمة الجمال
الإنسانى وصار ينذر إلى الناس من حل وكأنهم إزاءه قد انحدروا إلى هاوية
الانحطاط والضعفة ، انحطاطا يذكّر بالساحر الإنجليزى سويفت مؤلف
رحلات جلفر ؛ فتلك الحالة هى التى ولدت عنده حالة السخرية العميقة من
ابن القارح والناس والمجتمع وما فوقهم فكانت رسالة الغفران ١ ، ،

ذيل

مقطعات الحمدونى

فى الشاة والطيلسان

(١)

وكان المثل يضرب بشاة منيع ، ثم تحول المثل إلى شاة سعيد ، لكثرة ما قال الحمدونى فيها ، وتسميره الملح فى وصف هزالها :^(١)

ما أرى إن ذبحت شاة سعيد	حاصلا فى يدى غير الإهاب ^(٢)
ليس إلا عظامها لو تراها	قلت : هذى أدارن ^(٣) فى جراب
كم تغنت بحرقه حين تطعو	م لم تذق غير سف التراب ^(٤)
رب لا صبر لى غير ذا العذاب	بليت مهجتى وأودى شبابى

(١) ثمار القلوب ص ٣٠١ والورقة لابن الجراح ص ٦٢ ، وفوات الوفيات .
وهى من بحر الخفيف .

(٢) الإهاب : الجلد الذى لم يدبغ .

(٣) أدارن : جمع الدرن وهو الوسخ . ورويت فى « الورقة » لابن الجراح :
أرزان . والأرازن : جمع أرزن : وهو شجر صلب يتخذ منه العصى . ورواية
فوات الوفيات : أزانف .

(٤) روى هذا البيت وما يليه فى فوات الوفيات هكذا :
من حشبا الشياه اللواتى إذا ما . . أبصروهن قيل شاء الشباب
ستراهن كيف يهصقن فى وجه . . . المضحى بهن يوم الحساب .

(٢)

وقال :

صاح بي ابن سعيد من وراء الحجرات^(١)
قرب الناس الأضاحي فأنا قربت شاتي
شاة سوء من جلود وعظام نخرات
كلها قدمتها للـ ذبح قالت : واحياتي !

(٣)

وقال :^(٢)

أبا سعيد لنا في شاتك العبر جاءت وما إن^(٣) لها بول ولا بحر
وكيف تبهر هامة عندكم مكثت طعامها الأبهضان الشمس والقمر
لو أنها أبصرت في نومها علفا غنت له ، ودموع العين تنحدر
يا مانعي لذة الدنيا بأجمعها^(٤) إني ليفتني من وجهك النظر

(٤)

وقل :^(٥)

هامة سعيد في أمرها عبر لما أتتنا وقد مسها الضرر

(١) الأبيات من مجزوء الرمل .

(٢) زهر الآداب ٥٤٩ - وجمع الجواهر ١٣٥ - ونهاية الأرب ١٠ / ١٣١

وفوات الوفيات ١ / ١٨ وهي من بحر البسيط .

(٣) جمع الجواهر : وليس لها .

(٤) جمع الجواهر : بما رحبت . . . إني ليمتني . وفي نهاية الأرب والوفيات : ليقنني .

(٥) الآداب ٥٤٩ - وجمع الجواهر ٢٩٤ - ونهاية الأرب ١٠ / ١٣١ -

وفوات الوفيات ١ / ١٨ وهي من المنسرح .

وهي تغني من (١) سوء حالتها حسبي بما قد لقيت يا عمر
مرت بقطف (٢) خضر ينشر ها قوم فظفت بأنها خضر
فاقبلت نحوها لتأكلها حتى إذا ما تبين الخبر
وأبدلتها الظنون من طمع ياسا تغنت والدمع منحدر
كانوا بعيدا وكنت أمهم (٣) حتى إذا ما تقر بوا هجروا

(٥)

وقال : (٤)

لسعيد شوية سلما (٥) الضر والمجف (٦)
قد تغنت وأبصرت رجلا حاملا علف
بأبي من بكفه بره دأى من الدنف
فأناها مطمعا فأتته لتعتلف
فتولى (٧) فأقبلت تنغني من الأسف
ليته لم يكن يقف عذب القلب وانصرف

(١) جمع الجواهر : لسوء .

(٢) القطف : جمع قطيفة : دثار مخمل .

(٣) جمع الجواهر : أمهم .

(٤) العقد الفريد ٤ / ٢٩٠ - وزهر الآداب ٥٥٠ - وجمع الجواهر ٢٩٥ -

وفوات الوفيات ١ / ١٨ - ونهاية الأرب ١٠ / ١٣٢ وهي من مجزوء الخفيف .

(٥) العقد : نالها .

(٦) فوات الوفيات : والتلف .

(٧) العقد : ثم ولي .

(٦)

وقال : (١)

جاء سعيد لي بشا	ة ذات سقم ودنف
فاحلة الجسم إذا	ماهي مرت بالجيف
صاحت عليها هنا	يا أختنا ذات العجف
تخفقها العبرة إن	مرت بأصحاب العلف
كم تغنى ولها	شرق إليها ولطف
قد تقطعت إلى	وجهك شوقا وأسف

(٧)

وقال الحمدوني في أضحية أهداها إليه سعيد بن أحمد بن جوسبنداد : (٢)

أسعد قد أهديتني (٣) أضحية	مكنت زمانا عندكم ما تطعم
نعضوا (٤) تغامزت (٥) الكلاب بها وقد	شدوا عليها كي تموت فيقضموا
فاذا الملا ضحكوا بها قالت لهم	لاتمزأوا بي ، وارحموني ترحموا
مرت على علف ، وقامت لم ترم	عنه ، وغنت ، والمدامع سجم (٦)

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للتحالبي ص ٣٠٢ .

(٢) الآداب ٥٤٩ - وجمع الجواهر ٢٩٤ - وفوات الوفيات ١ / ١٨ وهي من بحر الـ كامل .

(٣) زهر الآداب : أعطيتني .

(٤) النضو : المهزول .

(٥) زهر الآداب : تعاقرت .

(٦) المرجع السابق : تسجم .

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي

متأخر عنه ولا متة — دم (١)

(٨)

وقال : (٢)

بشاة سعيد وهي روح بلا جسم تمثلت الأمثال في شدة السقم
تقول لي الإخرا ن حين طبختها أنطبخ شطرنجا عظاما بلا لحم ؟
فقلت : كلوا منها ، فقالوا تهزأ أنطمننا ملبوس قوم من العجم !
وكم قد تغذت إذ تطاول جورعا ولم تر عند القوم شيئا من الطعم
ألا أيها الغضبان بالله ما جرى إليك فقد أبليت جلدي على عظمي

(٩)

وقال الحمدوني في طيلان ابن حرب (٣) :

قل لابن حرب مقالة العائب ولست فيما أقول بالكاذب
أما رأيت الرفاء يحربني (٤) برفوه طيلسانك الفاذب ؟
أفناه جور البلي عليه كما أفنى الهوى قلب خاله الكاتب (٥)

(٦) البيت لأبي الشيص وكان معاصره أبو نواس ممجبا بالقصيدة التي منها
هذا البيت إعجابا شديدا (الآخاني ١٦ / ٣١٩) .
(٧) ثمار القلوب ص ٣٠٢ وهي من بحر الطويل .

(١) التشبيهات المشرقية لابن أبي عون (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت
رقم ١٧١٤٠ ز) ص ٢٣٣ وقد طبع حديثا . والطيلسان من أردية العجم معرب
وتالسان .

(٢) يحربني : يسلمني .

(٣) في الاعلام للزركلي ٢ / ٣٤٣ : د خالد بن يزيد البغدادي أبو الهيثم
المعروف بالكاتب : شاعر غزل من الكتاب ، أصله من خراسان ، عاش وتوفي في

(١٠)

وقال (١):

أيا طيلسانى أعيت طي أسل بجسمك أم داء حب ؟
ويا ريح صيرتني أتقيك وقد كنت لا أتقى أن تنهي
ومستحبر خبر الطيلسان فقلت له: الروح من أمر ربى^(٢)

(١١)

وقال (٣):

قل لابن حرب طيلسا نك قوم نوح منه أحدث
أفنى القرون ولم يزل عن مضي من قبل يحدث^(٤)
فاذا العيون لحظنه فكانه باللحظ يحدث
يودى إذا لم أرفه وإذا رفوت فليس يلبث

= بغداد . كان أحد كتاب الجيش في أيام المعتصم ، وكان يهاجى أبا تمام ، وغلبت عليه السوداء ، وعاش عمرا طويلا حتى دق عظمه ورق جلده . شعره رقيق أكثره غزل . له ديوان مخطوط توفي سنة ٢٦٢ هـ أو سنة ٢٦٩ هـ (انظر المنتظم لابن الجوزى ٥ / ٣٥ - والأخاني ٢١ / ٣١ - وفوات الوفيات ١٤٩ / ١ وإرشاد الأريب لياقوت - ٤ / ١٧١ - وتاريخ بغداد ٨ / ٣٠٨) .

(١) زهر الاداب ٥٥٢ هـ ومي من المتقارب .

(٢) الآية الكريمة ٨٥ من سورة الإسراء .

(٣) وفيات الأعيان (طبعت بيروت) ٧ / ٩٧ وروى البيت الثالث : يحرث . والآيات من مجزوء الكامل ورويت أيضاً في جمع الجواهر ١٢٤ وفوات الوفيات ١ / ١٧ .

(٤) روى هذا البيت في فوات الوفيات وفيات الأعيان (بيروت) ٧ / ٩٧

هو طيلسان لم يزل . . . عن مضي من قبل يورث

كالسكب إن تحمل علي — الدهر أو تتركه يلمث^(١)

(١٢)

وقال^(٢) :

يابن حرب كسوتني طيلساناً يزرع الرفو فيه وهو شباخ^(٣)
مات رفاؤه ومات بنوه وبدا العيب في بنهم وشاخوا

(١٣)

وقال^(٤) :

يابن حرب كسوتني طيلساناً مل من صجة الزمان وصدا
فحسبنا نسج العناكب لوقي^(٥) س^(٥) إلى ضعف طيلسانك سدا^(٦)

(١) الآية الكريمة ١٧٦ من سورة الأعراف .

(٢) وفيات الأعيان (بيروت) ٩٧ / ٧ - وفوات الوفيات ١٧ / ١
والتشبيهات ٢٢٣ .

(٣) أعقب ابن أبي عون في التشبيهات المشرقية ٢٣٣ البيت الأول ما يلي
دون أن يذكر الثاني الذي أثبتته ابن خلكان في الوفيات :
تستطير الغزور طولاً وهرضا فيه حتى كأنهم رعاخ

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٧١ - وجمع الجواهر ص ١٢٥
وثمار القلوب ٤٨٢ - وزهر الآداب ٥٥٠ ووفيات الأعيان (طبعة القاهرة)
٦ / ٨١ ص ٥٢٩ ، ٣ / ٤٣٧ وفي طبعة بيروت من الوفيات ٧ / ٩٦ أورد
الأول والرابع فقط بروايه : فصد - ورويت الآيات أيضاً في فوات الوفيات
١٧ / ١ وهي من بحر الخفيف .

(٥) زهر الآداب : قد حال .

(٦) هذا البيت والذي يليه لم يذكر في ثمار القلوب .

إن تنفسيت فيه ينشق شقا أو تنحنجت فيه ينقد قد (١)
طال ترداده إلى الرفو ح لو بعثناه وحنده انتهى

(١٤)

وقال (٢)

يا قاتل الله ابن حرب لقد أطال إتماعي على عهد
بيلسان خلت أن البلي تطلبه بالوتر والحد
أجد في رفوي له والبلي يلهم به في المزل والجد
ذكرني الجنة لما خدا أصحابها منها على جرد (٣)
أن أتهم الرفاء في رفوه مضى به التزيق في نجد
غنيته لما قضى راحا يا واحد تتركني وحدي (٤)

(١٥)

وقال (٥) :

طيلسان لابن حرب جاءني قد قضى التزيق منه وطره
أنا من خوف (٦) عليه أبدا سامري (٧) ليس يالو حذره
يا ابن حرب خذه أو فابه ث بما نشترى (٨) عجلا بصفر عشره

(١) روى هذا البيت في جمع الجواهر ص ١٢٥ هكذا :

إن تنسمت فيه ينجر جرا أو تبسمت منه ينقد قد

(٢) زهر الآداب ١٠٤٧

(٣) الآية ٢٥ من سورة القلم .

(٤) انظر الأغاني ٦ / ١٧٢ ، ١٦٣

(٥) زهر الآداب ص ٥٥٢ ، وجمع الجواهر ص ١٢٥ .

(٦) جمع الجواهر : من خوفى .

(٧) السامري : الذي عبد العجل ، كان عظيما من بني إسرائيل .

(٨) جمع الجواهر : يشترى .

لعل الله يحْيِيه لنا إن ضربناه ببعض البقرة
فهو قد أدرك نوحا فمسي عنده من علم نوح خبره
أبدا يقرأ من أبصره أنذا كنا عظاما نخره^(١)

(١٦)

وقال (٢):

طيلسان لابن حرب جاءني خلعة في يوم نحس^(٣) مستمر
فإذا ما صحت فيه صبيحة تركته كشمس المحتظر^(٤)
وإذا ما الريح هبت نحوه طيرته كالجراد^(٥) المنتشر
مقطع^(٦) الداعي إلى الرافى إذا ما رآه قال: ذا شيء نذكر^(٧)
وإذا رقاؤه حاول أن يتلافاه تعاظم فقره^(٨)

(١٧)

وقال (٩):

فيما كسانيه ابن حرب معتبر فانظر إليه، إنه إحدى الكبر^(١٠)

(١) الآية ١١ من سورة النازعات .

(٢) زهر الآداب ص ٥٥٢ .

(٣) الآية ١٩ من سورة القمر .

(٤) الآية ٣١ من سورة القمر . والمحتظر : صاحب الخطيئة .

(٥) الآية ٧ من سورة القمر .

(٦) المقطع : الساكت المنطلق إلى من هتف به .

(٧) الآية ٦ من سورة القمر .

(٨) الآية ٢٩ من سورة القمر .

(٩) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٧١ - وثمار القلوب ص ٤٨١ .

(١٠) الآية ٣٥ من سورة المدثر .

قد كان أبيض ثم مازلنا به زفره ، حتى اسود من صده الإبر

(١٨)

وقال (١) :

طيلسان لابن حرب يشداهى لامساسا (٢)
قد طوى قرنا فقرنا وأناسا فأناسا
لبس الأيام حتى لم تدع فيه لباسا
غاب تحت الحس حتى لا يرى إلا قياسا

(١٩)

وقال (٣) :

طيلسان لابن حرب ذو أياد ليس تحصى
أنا فيه أشعر النا س ، إذا ما الشعر نصا
وأراني صرت أدنى بعدما قد كنت أقصى
واتقاني الناس وازدا دوا على شعري حرصا
ولكم قد حازلى أردية تنرى وقصا
كان دهر طيلسانا ثم قد أصبح شعا

(٢٠)

وقال (٤) :

ولى طيلسان إن تأملت شخصه تيقنت أن الدهر يقنى وينقرض

(١) زهر الاداب ص ١٠٤٨ وهى من مجزوء الرمل .

(٢) الاية ٩٧ من سورة طه .

(٣) الجواهر ص ١٢٤ وهى من مجزوء الرمل .

(٤) زهر الادب الجواهر ص ١٠٤٦ - وجمع الجواهر ص ١٢٥ وهى من

بحر الطويل .

تصدع حتى قد أمنت انصداعه وأظهرت الأيام من عمره الغرض
كأنى لإشفاقى عليه بمرض أخو سقم بما تمادى به المرض (١)
فلو أن أصحاب الكلام يرونه لما روك (٢) فيه وادعوا أنه عرض !

(٢١)

وقال (٣):

وطيلسان إن تأملته قد دته بالطول والعرض
كأن إشفاقى عليه إذا غدوت لإشفاقى على عرضى
لو أنه بعض بنى آدم كأن أسير أسير الله فى الأرض (٤)

(٢٢)

وقال (٥):

ولى طيلسان ناحل الجسم غير أنه ثبوت لهبات الرياح الزعازع
وما ذاك إلا أنه متهتك يخل سبيل الريح غير منازع
أراه كضوء الشمس بالعين رؤية ويعنى من نمسه بالأصابع
وثقل اسم الطيلسان لضعفه فسميته د سانا، فهل ذاك نافعى !

(١) لم يروى فى جمع الجواهر .

(٢) رواية جمع الجواهر : رأوه ما ما ينوك

(٣) التشبيهات المشرقية لابن أبى عون ص ٢٢٣ - ووفيات الأحيان

٩٣ / ٦ وثمار القلوب ص ٨١ دون ذكر البيت الثانى وروى الشطر الثانى من البيت الأول : شقيقته .

(٤) اقتبس مما جاء فى الخبر : أنى للعبد إذا بلغ تسعين سنة ، كتبت له

الجنة وكفرت عنه السيئات ، وسمى أسير الله فى الأرض ، ،

(٥) التشبيهات المشرقية ص ٢٢٣ وهو من بحر الطويل

(٢٣)

وقال : ٩

وهبت (٢) لنا ابن حرب طيلسانا
يسلم صاحبي فيميد شتمى
أجيل الطرف في طرفيه طولا
فلست أشك أن قد كان قدما
فقد (٦) غنيت إذ أبصرت منه
قعى قبل التفرق يا ضباعا
يزيد المرء ذا (٣) الضعة انصاعا (٤)
لأن الروح يكسبه انصاعا (٥)
وعرضا ، ما أرى إلا رقعا
لنوح في سفينته شراعا
جوانبه (٧) على بدني تداعى
ولا يك موقف منك الوداعا (٨)

(٢٤)

وقال : (٩)

يا ابن حرب إني أرى في زوايا يديتنا مثلما كسوت جماعه

-
- (١) زهر الآداب ص ٥٥٣ - ووفيات الأعيان (مصر) ٣ / ٣٣٧ (وبيروت) ٧ / ٩٦ - وجمع الجواهر ص ١٢٥ والايات من بحر الوافر .
- (٢) روى هذا الشطر في الوفيات هكذا : رأينا طيلسانك يا ابن حرب ...
- (٣) جمع الجواهر : في الضعة .
- (٤) يروى ابن خلكان بعد هذا البيت :
- إذا الرفاء أصلح منه بعضا تداعى بعضه الباقي انصاعا
- (٥) روى هذا البيت في وفيات الأعيان ، وجمع الجواهر هكذا :
- يسلم صاحبي فيقد شبرا به ، وأقد في ردى ذراعا
- وروى الحصري في جمع الجواهر (له) بدلا من (به) .
- (٦) الوفيات (بيروت) : وقد
- (٧) الوفيات (القاهرة) بقاياه على كنفى
- (٨) البيت للقطامي عمير بن شميم التغلبي . وضباعة : اسم امرأة .
- (٩) زهر الاداب ص ١٠٤٨ - وفيات الأعيان ٣ / ٤٣٥ - فوات
- الوفيات ١ / ١٧ وفيات (بيروت) ٧ / ٩٧ برواية : (مثل من) بدلا من (مثلها) .

طيلسان رفوته ورفوته الر رفو منه حتى رفوت (١) رقاؤه
فأطاع البلي وصار خليعا (٢) ليس يعطى الرفاء في الرفو طاعه
فاذا سائل رآني فيه ظن أني فقي من أهل الصنائه (٣) ا

(٢٥)

وقال في الطيلسان وكتبها إلى بعض الرؤساء (٤)

دعني أبكي كسوتي إذ ودهت فلا زمني على البسكا إذ أزفت
يا بن الحسن أما ترى دراهق سملا تردت بالبلبل وتدرعت
فيها من التمزيق مالو أنه مرت بها ربيع الصبا لتفطمت
بحكي (٥) تخرق طيلساني إنها منه تعلمت البلي فتضعفت
لافرج الرحمن منه إله أهدى ليأني كلها فتقطعت
فلتحمد الله الجبال فانها لو قارنته لحشمت (٦) وتصدت

(٢٦)

وقال (٧)

إن ابن حرب كسافي ثوبا نظير الجرافه

(١) فوات : رقعة ...

(٢) فوات : خليقا .

(٣) فوات : الضياحة .

(٤) وفيات الأعيان (القاهرة) ٩٣ / ٦ - (بيروت) ٩٦ / ٧ وهي

من بحر الكامل .

(٥) وفيات (بيروت) : تحكي .

(٦) المرجع السابق : تخشمت .

(٧) زهر الاداب ١٠٤٧ - وجمع الجواهر ١٢٨ ، وعروضه مستغلن فاعلاق .

أظّل أدفع عنه وأتقى كل آفة
فقد تعامت من خشيتي عليه الشفاهة ١

(٢٧)

وقال (١) :

وطيلسان إن تأملته لـج من التمزيق في محك
كأنه من طول رفقى به يملكني من صار في ملكي ١

(٢٨)

وقال (٢) :

لطيلسان ابن حرب نعمة سبقت
قد كنت دهرأ جهولا ثم حنفتي
أظّل اجتنب الإخوان من حذر
يا طيلسانا إذا الأحاظ جلن به
لئن بليت فكم أبليت من أمم
وكم رآك أخ لي ثم أنشدني
بها تبين فضلي فهو متصل
عليه خوفي من الأقوام إن جهلوا
كأنما بي جرح ليس يندمل
فعلن فعل سهام فيه تانتعل
تتري ، أبادتهم أيامك الأول
ودع هريرة إن الركب مر نحل (٣)

(٢٩)

وقال (٤) :

وطيلسان هرم يحتمى
كان كعبى إذا انضمتا
عليه أكل الخل والبقل
عليه خوفي الريح في غل

(١) التشبيهات المشرقية ص ٢٢٣ .

(٢) زهر الاداب ص ١٠٤٦ وهى من بحر البسيط .

(٣) لأعشى قيس .

(٤) التشبيهات المشرقية ص ٢٣٤ .

(٢٠)

وقال : (١)

طيلسان مازال أقدم في الدهر زمن الدهر امار اقيه حيله
وترى ضعفه كضعف عجوز رثة الحال ذات فقر معيله
غمزته الرقاع فهو كمصر سكتته نزاع (٢) كل قبيله
إن أزينه يابن حرب بذي فخرير (٣) قد زان قبلي بجيله

(٢١)

وقال : (٤)

قل لابن حرب طيلسانك قد أوهى قواى بكثرة القدم (٥)
متبين فيه لمصره آثار رفو أوائل الأهم
فكانه (٦) الخمر (٧) التي وصفت فى «ياشقيق النفس» (٨) من حكم ،
فاذا رمناه ، فقيل لنا قد صح ، قال له البلى : انهدم

(١) زهر الآداب ص ١٠٤٧ - والتشبيهات المشرقية ص ٢٣٥ بدون الرابع ،
وهى من الرمل .

(٢) النزيع : الغريب ، كالنازع . وجمعه نزاع .

(٣) جرير بن عبد الله البجلي رضى الله عنه ؛ صحابى . وقد ذكره الشاعر
غسان فى هجائه جرير بن عطية الشاعر الأموى المشهور :
لعمرى لئن كانت بجيلة زانها . . . جرير ، لقد أخزى كليباً جريرها .

(٤) زهر الاداب ٥٥١ ، ٥٥٢ - وجمع الجواهر ١٢٦ .

(٥) زهر الاداب : الغرم .

(٦) زهر : وكأنه .

(٧) الخمر التي وصفت من قول أبى نواس :

ياشقيق النفس من حكم . . . نمت عن ليلي ولم أنم

(٨) زهر الاداب : الروح .

مثل السقيم برأ^(١) ، فراجعه نكس^(٢) ، فأسلمه إلى سقيم
أشدت حين طغى فأعجزنى ومن العناء رياضة الهرم
(٣٢)

وقال :^(٣)

يا بن حرب كسوتنى طيلساناً أمرضته^(٤) الأوجاع فهو سقيم
فاذا ما لمصته^(٥) قلت : سبحا نك تحيى العظام وهى رميم
طيلسان له إذا هبت الويب ح عليه عنكبى هنيم^(٦)
لو يدب الحولى مر ولد الذ ر عليه لأنوبته الكلوم^(٧)
(٣٣)

وقال :^(٨)

يا بلك فى جبة مخرقة أطول أعمار مثلها يوم

-
- (١) المرجع السابق . برو فعاوده . . .
(٢) النكس : عود المرض .
(٣) زهر الاداب ١٠٤٧ - جمع الجواهر ١٢٦ - وفيات الاعيان (مصر)
٣ / ٤٣٧ - ٦ / ٨١ / ٥٢٩ - و (بيروت) ٧ / ٩٦ وهى أيضاً فى ثمار القلوب -
والايات من بحر الخفيف .
(٤) فى الوفيات روايتان : أنحلته الأوجاع - أنحلته الازمان وهو .
(٥) فى الوفيات (بيروت)
فاذا ما رفوته قال : سبحانك محي العظام . . . وفى زهر الاداب : لمصته . . .
(٦) زهر الاداب : هميم . وبعد البيت الثالث أنفرت د زهر الاداب
بهذا البيت :

أذكرنى بيتاً لحسان فيه . : حرق للفؤاد - بين أقوم

ولم يذكر البيتان (٣) ، (٤) فى الوفيات .

(٧) الليث من قصيدة لحسان بن ثابت فى ديوانه .

(٨) التفهيمات المشرقية ص ٢٣٣ .

وطيلسان كالال يابسه على قيص كأنه غيم (٣٤)

وقال : (١)

إن ابن حرب جادلي كاسياً بطيلسان هــرم قشعم
انظر إلى كثرة تمزيقه كأنما مزق في مآتم
ذمي له وهو ذميم كمن بينى بناء فوق مستهدم
يصـدعه اللحظ يابسه صدع فؤاد العاشق المنعم
يذكرني كثرة تمزيقه تفرق الناس عن المومم

(٣٥)

ومن ملح مضمنات الحدوني قوله : ويقال إن أول شعر قاله فيه ، وقد
قال فيه خمسة بن مقطوعاً (٢) يريد إبراهيم بن المهدي - وهذا الشعر له -
وتنمته :

كسأتني ابن حرب طيلساناً كأنه فتي ناحل (٣) بال من الوجد كالشن
يغنى لإبراهيم لما (٥) لمسته ذهب من الدنيا وقد ذهبت مني (٦)
ذهبت من الدنيا وقد ذهبت مني (٧) هوى الدهر لي عنها ، وولي لها غنى
فإن أهلك نفسي ، أهلك نفساً نفيسة وإن أحسبها أحسبها على صن

(١) المرجع السابق وكذلك الصنحة .

(٢) فوات الوفيات للصلاح المكتبي ١ / ١٧ وثمار القلوب ص ٤٨١ .

(٣) ثمار القلوب : عاشق .

(٤) الشن والشنه : القرية القديمة .

(٥) ثمار : حين .

(٦) هذا الشطر روى في الأغاني (بيروت ٥ / ٢٦٠ ولم أعر على بقية البيت .

(٧) هذا البيت والذي يليه إنفرد بروايتها للصلاح المكتبي في الوفيات .

(٢٦)

ومن طريف شعره قوله :^(١)
يا طيلسان ابن حرب قد همت بأن^(٢)
ما فيك من حيلة تغنى ولا ثمن
فلو تراني لدى الرفاء مرتبطاً
أقول^(٣) حين رآني الناس ألومه
من^(٤) كان يسأل عما أين منزلنا
تودى بجسمى كما أودى بك الزمن
قد أوهنت حيلتي أركانك الوهن^(٥)
كمأنتى في يديه الدهر مرتين
كأنما لى في حانوته وطن
فالأقحوانة^(٦) منا منزل قمن^(٧)

(٢٧)

وقال فيه أيضاً :^(٨)

طيلسان لو كان لفظاً إذن ما شك خلق^(٩) في أنه بهتان

-
- (١) جمع الجوهر ص ١٢٥ - وزهر الاداب ص ٥٥١ - وثماو القلوب ص ٤٨٢ والآيات من بحر البسيط .
- (٢) ثمار القلوب : بما ... يودى
- (٣) لم يرو في ثمار القلوب .
- (٤) ثمار القلوب : غنيت .
- (٥) البيت للحارث بن خالد المخزومي ، وكان أمير مكة على عهد عبد الملك بن مروان ، وبعده في الأغاني (طبعة صادر) ٣ / ٣٢٠
- إذن نلبس العيس صفوا ما يكدره
ليت الهوى لم يقربني اليك ولم
طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمن
أعرفك إذ كان خطى منكم الحزن
- (٦) موضع قرب مكة .
- (٧) قمن : خليق وجدير أن تسكنه أو معناه قريب .
- (٨) وفيات الأعيان (مصر) ٩٣ / ٦ (وبيروت) ٩٧ / ٧ - وثمار القلوب ص ٤٨١ ، ٤٨٢ - والآيات من بحر الخفيف .
- (٩) ثمار القلوب : إنسان .

فهو كالطور إذ تجلي له الله فذكرت قواه والأركان
كم رفوناه إذ تمزق حتى بقي الرفو وانقضى الطليسان
(٢٨)

وله من أبيات (١) :

لقد حالف الرفاء حتى كأنه يحاول منه أن يعلمه الرفوا
(٣٩)

وقال : (٢)

يابن حرب أظلمت ظالي (٣) برفوى طيلسانا قد سكنت عنه غنيا
هو (٤) فيه الرفو آل فرعون في العـ رض على النار بكرة (٥) وعشيا
زرت فيه معاشرنا فازدروني فتغنيت إذ رأوني زريا (٦)
جئت في زى سائل كي أراكم وعلى الباب قد وقفت مليا

(١) وفيات الأعيان (مصر) ٦/ ٨١/ ٥٣٩ - (وبيروت) ٧/ ٩٦

وهو من بحر الطويل .

(٢) جمع الجواهر ص ١٢٤ - وطبقات ابن المعتز ص ٣٧١ - والتشبهات

المعرفية ص ٢٢٤ - وزهر الاداب ص ٥٥٣ - وثمار القلوت ص ٤٨١ - وفيات

الأعيان (مصر) ٣/ ٤١٧ (وبيروت) ٧/ ٩٦ وهي من بحر الخفيف .

(٣) زهر الاداب - والوفيات - والتشبهات - وابن المعتز : فقرى .

الوفيات أيضاً : وترى .

(٤) الوفيات ، وزهر الاداب : فهو ...

(٥) زهر : غدوة . وهو يشير إلى الآية الكريمة رقم ٦٦ من سورة غافر .

ونهاية الآية ٦٢ من سورة مريم .

(أنظر سبب هذه الآيات في جمع الجواهر ص ٤٩)

(٦) هذا البيت والذي يليه لم يرويا إلا في زهر الاداب .

الموضوع	صفحة
الباب الثاني : العاقلون	٨٣ - ٣٥٧
أدب السخرية في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي حسان والخطبة	٨٣
جرير	٨٨
أدب السخرية في العصر العباسي	١١٢
ابن المقفع	١١٥
الجاحظ	١٤٩
أبو العيناء	٢٠٧
الحدوني	٢٢٤
أبو العلاء المعري	٢٤٢
ذيل : تحقيق مقطعات الحدوني في الشاة	٢٥٨
في الطيلسان	٢٦٢
المراجع	٢٧٩

المراجع

- الأخبار الطوال للدينوى مصر ١٩٧٢ م
أخبار الأذكىاء لابن الجوزى تحقيق محمد مرسى الخولى مصر ١٣٧٠ هـ
أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزى القدس ١٨٤٣ م
أدب الجاحظ للسندوبى (التجارية بمصر) ١٩٤٢ م
أدب الدنيا والدين للماوردى القاهرة ١٩١٢ م
أساس البلاغة للزخشرى دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م
الأعلام لخبر الدين الزركلى مصر ١٩٥٤ م
الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني (دار الكتب المصرية) ١٩٢٦ - ١٩٧٥ م
الأمالى لأبى على القالى دار الكتب المصرية ١٩٣٦ م
الباثستان تراجمة د. عبد الحميد تونس الكويت ١٩٧٠ م
البخلاء للجاحظ تحقيق د. طه الحاجرى دار المعارف ١٩٥٨ م
البيان والتبيين للجاحظ (مصطفى الحلبي) ١٩٠٢ م
تاريخ الرسل والملوك للطبرى (دار المعارف) ١٩٦٢ م
تاريخ بغداد للخطيب البغدادى (الخانجى) سنة ١٩٣١ م
القصة والنقد فى الأدب العربى للسباعى السباعى يومى
(دار نشر الثقافة بالاسكندرية) سنة ١٩٥٠ م
تأويل مختلف الحديث لابن قتية القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ
التشبيهات المشرقية لابن أبى عون المخطوط والطبوع مصر ١٩٦٨ م
تفسير الضحاوى طبع صبيح بالقاهرة ١٩٢٦ م
تفسير الطبرنى (دار المعارف بمصر) ١٩٦٥ م
تفسير الكشاف مصطفى الحلبي بمصر

- تحقيق ما للهند من مقولة لليروني الهند ١٩٢٤ م
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي مصر ١٩٥٨ م
- الجاحظ لإفرايم البستاني (عدد ١٩ من مجموعة الروائع : بيروت)
- الجاحظ د. طه الحاجري دار المعارف ١٩٦٢ م
- الجاحظ جنا الفاخوري دار المعارف ١٩٦٤ م
- الجاحظ شفيق جبري دار المعارف ١٩٦٦ م
- جحا المضحك المضحك لعباس محمود العقاد (دار الهلال) بمصر ١٩٥٦ م
- جرير حياته وشعره د. نعمان محمد أمين طه دار المعارف ١٩٦٨ م
- جمع الجواهر في الملح والنوادر الثعالبي عيسى الحلبي ١٩٥٠ م
- حكم قرطوش د. عبد اللطيف حمزة عيسى الحلبي مصر ١٩٥٥ م
- الحماسة لأبي تمام بشرح للرزوقي لجنة التأليف والترجمة بمصر ١٩٦٥ م
- الحماسة لابن الشجري طبع حيدر آباد الدكن بالهند
- الحيوان للجاحظ طبع مصطفى الحلبي بمصر ١٩٣٨ م
- خزانة الأدب للحموي مصر ١٩٠٤ م
- دراسات في الأدب الإسلامي للأستاذ محمد خلف الله لجنة التأليف ١٩٤٧ م
- ديوان امرئ القيس نشر السنهوري بالمكتبة التجارية ١٩٤٩ م
- وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم "بدار المعارف ١٩٥٨ م
- ديوان أبي نواس لجنة التأليف بمصر ١٩٥٤ م
- ديوان زهير بشرح ثعلب دار الكتب المصرية ١٩٣٨ م
- ديوان جرير د. نعمان محمد أمين طه دار المعارف ١٩٧٠ م
- ديوان حسان بن ثابت طبعة البرقوقي ١٩٢٩ م
- والدار القومية بمصر ١٩٧٤ م

- ديوان الخطيئة د . نعمان محمد أمين طه الحلبي ١٩٥٨ م
- ذكر المعتزلة المرتضى حيدر آباد بالهند
- رسائل الجاحظ (على هامش السكاهل المبرد) مصر ١٩١٨ م
- رسائل الجاحظ نشر الخانجي بمصر ١٩٠١ م
- رسالة الترييع والتدوير للجاحظ تحقيق شارل بلات دمشق ١٩٥٦ م
- رسالة الغفران للمعري دار المعارف بمصر ١٩٠٩ م
- زهر الآداب للمصري (تحقيق البجاوي) الحلبي ١٩٥٨ م
- زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع مصر ١٩٠٦ م
- شرح العميون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة مصر ١٩٧٠ م
- السيرة لابن هشام بتحقيق مصطفى السقا الحلبي ١٩٤٢ م
- سيكولوجية الضحك الحمد عطية الله عيسى الحلبي بمصر ١٩٤٧ م
- سيكولوجية الفكاهة والضحك زكريا ابراهيم مكتبة مصر ١٩٥٨ م
- ضحى الإسلام لأحمد أمين لجنة التأليف ١٩٣٨ م
- الضغائن لهنري برجسون ترجمة سامي اللدروني
- طبقات الشعراء لابن المعتز دار الكاتب المصري ١٩٤٨ م
- طبقات فحول الشعراء لابن سلام دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م
- كتاب الشعر لأرسطو ترجمة د . إحسان عباس دار الفكر ١٩٥٢ م
- كتاب الشعر لأرسطو ترجمة د . شكري محمد عياد
- دار الكاتب العربي بمصر ١٩٦٧ م
- العصر العباسي الأول د . شوقي ضيف دار المعارف
- العصر العباسي الثاني د . شوقي ضيف دار المعارف

- العقد الفريد لابن عبد ربه
مصر ١٩١٣ م
- ولجنة التأليف والترجمة
١٩٤٧ م
- أبو العلاء المعري د. عائشة عبد الرحمن
مصر ١٩٦٧ م
- أبو العلاء المعري (رسالة الغفران) العدد ١٧ من مجموعة الروائع
لإفرايم البستاني الطبعة الثانية بيروت ١٩٤٢ م
- أبو العلاء المعري فاقد المجتمع لزي المحاسني
مصر ١٩٥٣ م
- نحرر الخصائص الواضحة للوطواط جمال الدين القاهرة ١٢٩٩ هـ
- فصول مختارة لطله حسين (بالاشتراك) دار الطباعة الحديثة ١٩٥٦ م
- الفكاهة في الأدب د. أحمد الحوفي دار نهضة مصر بالقاهرة ١٩٥٨ م
- الفكاهة في مصر د. شوقي ضيف (كتاب الهلال) ١٩٥٨ م
- فن تكوين النكتة لجون ويزدم مقال بمجلة علم النفس
دار المعارف ١٩٤٨ م
- الفهرست لابن التميم تحقيق فلوجل
طبع ليسك ١٨٧٢ م
- فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي (بيروت) ١٩٠٧ م
- العقل الباطن وعلاقته بالأمراض النفسية تعريب عباس حافظ
القاهرة ١٩٤٦ م
- كشف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشهر من الحديث على ألسنة الناس
المجلدوني مصر ١٩٣٦ م
- كيلة ودمنة (طبعة مكتبة دار الهلال بمصر) ١٩٢٤ م
- كيلة ودمنة (نشر الأب شيخو) بيروت ١٩٣٦ م
- كيلة ودمنة (تحقيق المرحوم د. عبد الوهاب عزام)
دار المعارف ١٩٤٢ م

- لسان العرب لابن منظور الأفریقی مصر ١٣٠١ هـ
- مجلة الاثنين مصر ١٩٤٨ م
- مجموع رسائل الجاحظ (الساسی) ١٩٠١ م
- مروج الذهب للمسعودی (نشر محمد محيی الدین عبد الحمید) ١٩٤٨ م
- مطالعات فی المکتب والحياة للعقاد (التجارية) ١٩٢٦ م
- معجم الأدباء لياقوت مصر ١٩٣٨ م
- المفضليات للضبي (دار المعارف بمصر) ١٩٤٨ م
- ابن المقفع للدكتور عبد اللطيف حمزة مصر ١٩٢٦ م
- ابن عثمان د. عبد اللطيف حمزة الحلبي بمصر ١٩٤٦ م
- مناهج الدراسة الأدبية د. شكري فيصل بيروت ١٩٧٠ م
- نتائج الفطنة فی نظم كائلة ودمنة (بيروت) ١٩٠١ م
- نثر الدرر فی المحاضرات للآبي زين الكفافة منصور بن الحسين مخطوط
- النثر الغني د. زكي مبارك مصر ١٩٣٢ م
- نهاية الارب فی فنون الأدب للنویری دار المکتب ١٩٤٨ م
- نوادير أبي العیاء ومخاطباته د. نعمان طه مطبعة المدنی بمصر ١٩٧٢ م
- الهجاء والهجاءون د. محمد محمد حسين مكتبة الاداب ١٩٤٧ م
- الورقة لآبي عبد الله محمد بن داود الجراح (تحقيق د. عزام) دار المعارف ١٩٥٣ م
- الوزراء والمکتاب للجهشياری (تحقيق مصطفى السقا) الحلبي ١٩٤٨ م
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلدكان (نشر محمد محيی الدین عبد الحمید) بمصر ١٩٤٢ م وبيروت ١٩٧٠ م
- يتيمة الدهر فی شعراء أهل العصر للشعالبي القاهرة ١٩٣٤ م

Edgar Johnson : Treasury of Satire .

Newyork / 1944.

G. G. Sedjewick Of Irona Especially in Drama Toronto 1948

Sterhen Potter : Sense joy Humouy / Newyork 1954.

Harms Worth's Universal Encc / Irany.

The Americana.

La Rousse

Encylopydia Britanicca

استدراك

- سقط سهواً من ص ٢٠٦ الفقرة الآتية

وقد حذا حذو الجاحظ الشاعر الأندلسي الناثر ابن زيدون (ت ٤٦٣ هـ)
فنهج نهجه في رسالته الهزلية المشهورة التي بدأها متحدثاً بها على لسان ولادة
تخاطب الوزير ابن جمهور ، ثم انتقل إلى إنطاق إحدى جوارى الوزير متهمكة
بابن جمهور مخاطبة إياه زاعمة ، أن المروءة لفظ أنت معناه ، والإنسانية اسم
أنت جسمه وهيولاه ، قاطمة أنك انفردت بالجمال !!

واستأثرت بالكمال ، واستعليت في مراتب الجلال ، واستوايت على
محاسن الجلال ، حتى خملت أن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ، وأن قارون
أصاب بعض ما كنزت ، والنطف عثر على فضل ما ركزت ، وكسرى حل
غاشيتك ، وقبصر رعى ماشيتك ...

وهكذا نلاحظ أنه حشد فيها كثيراً من الأسماء التي يرمى بها إلى حوادث
تاريخية وأحداث مختلفة ، وشخصيات مذكورة في التاريخ سواء عند العرب
أو الفرس أو غيرهم في الجاهلية والإسلام ، مثل كسرى ، وقبصر ، والإسكندر
وبلقيس ، والزباء وغيرهم من القواد والخطباء والشعراء والحكام والولاة .
وتنبئنا الرسالة بكثير من محفوظ ابن زيدون من روائع الأدب العربي ،
وهو ينزع فيها إلى استخدام السجع الازدواج .

للمؤلف

* مختارات شعراء العرب لابن الشجري : وقد أوشك على الصدور في ثوب قشيب .

* ديوان جرير : وقد صدر عن دار المعارف في دغائر العرب ، سنة ١٩٧٠

* جرير حياته وشعره : د د د د د د مكتبة الدراسات الأدبية ،
سنة ١٩٦٨ م

* ديوان الخطبة : في طبعة جديدة ومنقحة .

* هاشميات الكميت : تحت الطبع .

* نوادر أبي العيناء : وهي سخریات طريفة وردود لاذعة . صدر
سنة ١٩٧٢

* رسالة الترييع والتدوير للجاحظ : تحت الطبع .

* نثر الدور في المحاضرات للآبي : تحت الطبع .

السخرية في الأدب العربي

بحر طريف في موضوع طريف لم يسبق تناوله : تعرض فيه المؤلف للكلام
عن الضحك والفكاهة وما روح السخرية ومجالاتها الحيوى ، وتكلم عن
صورها المختلفة وأساليبها في مصادر الأدب والبلاغة عند العرب وغيرهم ،
وتناول بالتفصيل أشهر الساخرين في القرون الخمسة الأولى وهم : الحارثية
وجرير وابن المقفع والجاحظ وأبو العيثاء والحدوثي وأبو العلاء المعرى :
فربط سخريتهم بحياتهم في تحليل أدبي نفيس رائع ، كما ذيل الكتاب الذي
يقع في ٢٨٣ صفحة ، بقاوتات تمكينة للشاعر الحدوثي .